محمد الصالح الصديق

تكريم العلماء و الأدباء في العالم العربي قديما و حديثا

ديوان المطبوعات الجامعية

محمد الصالح الصديق

تكريم العلماء و الأدباء في العالم العربي
قديما و حديثا



ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية - بن عكنون - الجزائر

رقم النشر: 4.07.4761
رقم ر.د.م.ك (ISBN): 9961.0. 0865.0
رقم الإيداع القانوني: 2005/1961.

الإهـــــداء

- إلى الذين لا ينفكّون يجاهدون بالفكر والقلم: يدعون إلى الألفة التي تجمع، والوحدة التي تقوّي، والقوة التي تدفع وتُدافع، والعمل الذي يغيّر مجرى التاريخ!!

- وإلى الذين استحقوا بأعمالهم الفكرية، كل التكريم، ولم يُكرَّموا، ومع ذلك واصلوا المسيرة بكل آمالهم وآلامهم، فما وهنوا وما استكانوا!

- وإلى الذين استحقُّوا التكريم، وافتكُّوه بجدارتهم وعصارات أمخاخهم، ومضوا في طريقهم دون أن تغريهم هتافات المعجبين وتصفيقاتهم!

إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا الكتاب.

المؤلف

أضـــــواء

قال الله تعالى:

«فَاذكُروني أذكُركم واشكُروا لي ولا تكفرون» (البقرة/ 152).

«لئن شكرتم لأزيدنَّكُم» (إبراهيم/ 07).

«ولقد كرَّمنا بني آدَمَ» (الإسراء/ 70).

وقال الله تعالى:

«قُتِلَ الإنسانُ ما أكفره» (عبس/ 17).

«وقليل من عبادي الشَّكور» (سبأ/ 13).

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم:

(إذا جمع الله الخلائق يوم القيامة، قال لعبده: هل شكرت فلانا؟ فيقول: يا رب، علمت أنك المنعم فشكرتك، فيقول الله تعالى: لمْ تشكرني إذا لم تشكر من أجريتُ ذلك على يده!)

رواه أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني
في كتابه (محاضرات الأدباء) ج1 ص378.

المقدمة

أقامت بلدية القبة والجمعية الخيرية -مشكورين- حفلاً في أواخر شهر أكتوبر سنة 2003 لتكريم أئمة في المنطقة، وثلاثة من الأساتذة هم صديقنا الأستاذ عبد الرحمن شيبان رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ورفيق العمر الشيخ محمد نسيب، وصاحب مؤلف هذا الكتاب!

وحينما كنتُ أستمع إلى الكلمات التي كانت تُلقى بهذه المناسبة، مرَّ بذاكرتي شريط سريع لمحت فيه طائفةً من أعلام الفكر الذين كُرِّموا عبر عقود مضت في مختلف أصقاع الأرض بأنواع مختلفة من التكريم!

ثم تركَّز فكري في محطات من التكريم متنوعة، هي (أوقع في النفس، وأجدى في عالم الفكر من موضوعات شتى تُلحُّ على السّاحة اليوم، وتفرض نفسها على الفكر والقلم!

وبدأت أفكرفي وضع كتاب في هذا الموضوع، ثم قطعني عن هذا التفكير توزيع الجوائز على المكرَّمين!

ولكن ما إن انتهى الحفل، وخرجت من قاعة الاحتفال متجها نحو سيارتي، حتى عاودني التفكير في الموضوع بقوة وجدّية، وأخذ الموضوع هذه المرة يتضح في الذهن أكثر، وتنجلي حدوده ومعالمه، كما تنجلي أحداث الأمس وأعمال اليوم، وأخذت النفس تنبسط نحوه وتنشرح، وظلت الدوافع تتقوى وتتزاحم وتُلح، فما إن عدت إلى البيت واستويت على المكتب، حتى أخذت في وضع الخطة، وتصميم الموضوع، وجمع المادة، من مكتبتي الخاصة -وهي ولله الحمد غنية- ولكني مع ذلك لا أستغني عن بعض المراجع التي لا أملكها والتي أخذت في البحث عنها!

وهكذا شرعتَ في العمل -على عادتي- مستعينا بالله معتمدا على محصولاتي الفكرية، التي تجمعت لي في عقود غابرة من البحث والدَّرس والتحصيل!

ولكن ما إن مضت ثلاثة أيام حتى أنشب المرض أظفاره في الصديق الحميم الأستاذ نسيب، وظلَّ يصارعه قرابة أسبوع، ثم كانت النهاية، فلفظ روحه وتخلصت من قيدها المادي الغليظ، وصعدت إلى مصدرها الأول، فكان لهذا أثره النفسي العميق على الفكر والقلم والموضوع!

ولم تمضِ إلا أيام قليلة حتى ارتحلت عني رفيقةُ العمر بعد مرضٍ عضال ظلت تغالبه طوال سنتين، فغامت سماءُ الحياة بركام من السحائب الجوُن، وتركت فراغا موحشا، وظلامًا معتما، وحزنا عميقا ظللتُ أياما وليالي أغالب فيها الجزع بالإيمان، ووقع المُصاب بالصبر، والفراغ الرهيب بالأنس بالله وتلاوة ذكره!

وكلَّما عدتُ إلى العمل. انقبضت عنه نفسي، وشعرت كأني غريب عنه. قَد غام أفقُه، وأستعصم، بعد أن كان بمثابة الروح للجسد، ومناط الحياة والأمل، وينبوع نورٍ يبدّد أمامي كل ظلمة!

ولكن اللّه تعالى رؤوف بعبده، رحيم بهذا الفكر والقلم، فما هي إلا أيام من الحزن والوحشة، والألم والحسرة، وحياةٍ لا يربطها بالعالم الخارجي، الذي يعيشُه الناس إلا الليل والنهار، وهذه الشّمسُ الساطعة التي تضيء الأرضَ كلها، بينما لا تستطيع أن تضيء قلبي وأغوار نفسي-فما هي إلا هذه الأيام- حتى بدأتْ حياتي تنتعش، ورؤيتي تتضح، وقلبي ينشرح، والحقيقة تتجلى، والحياة تتدفَّق من حولي، وتحرك في الأعماق شهوة العمل، وتمعن في الإثارة والإهابة والتهييج، وتقيم الدليل من نفسها قويا باهرا على أن الحيَّ يجب أن يظل حيًا، بل يجب أن يكون كالجدول السَّلسَل الرقراق يفيض على جوانبه الردّى والخصب والحياة!

ويجب أن يكون شعار الحي: ماذا قدمتُ، لا ماذا أخذت! وهذا لا يكون إلا بالحركة والعمل، وبالحركة والعمل فقط!

عندئذ عُدت إلى القلم، إلى هذا الكتاب لأتمّمه حسبَ التخطيط له، ورغم المعزِّين الذين يتوافدون على البيت يوميًا، فإن العمل قد تواصل بجدّ، لأنهم بمواساتهم وتعاطفهم، وكشفهم عن مصائبهم وبلاياهم في هذه الحياة يهُون المصاب، ويخف الألم، وتقوى الإرادة، وتنتصر الحياة على الموت!

وها هو الكتاب بين يديك -قارئي الكريم كما خطَّطنا له وأردناه والحمد لله- رغم ما واجهنا من ظروف قاسية زلزلت حياتنا، وكان لها في الأسرة والأقارب وقع أليم، وصدًى عميق.

وإننا إذ نحمد الله الكريم على توفيقه وإعانته على إتمام هذا العمل، في وقت وجيز، وظروف متميزة، وحال نفسية لا ندَّعي أن الألم فيها قد سكت نهائيا، وأن الجرح قد اندمل كليةً، لأن وهيج النار في أعماق النفس، ومثار الشجون بين حنايا الضلوع، نلاحظ أن الحياة ملأى بمتاعب مضنية، ومشاق مرهقة، ومحنٍ وبلايا، فلا ينبغي للإنسان أن يواجهها بالفشل والإحباط والاستسلام، بل عليه أن يوطن نفسه على أن الحياة هكذا: حلاوة ومرارة، ونور وظلام، وعلو وهبوط، وبهذا يُعيد إلى النفس طمأنينتها وإيمانَها، ويعيد إليها رغبتها في الحياة فيمضي بقوة لا يثنيه عن هدفه شيء!

ولولا هذا ما تمّ هذا الكتاب ولا رأى النور في أمد قصير!

على أنه لابدّ من إعادة هذه الملاحظة التي سبق أن أبديناها في هذا الكتاب، وهي أن التكريم تقليد قديم معروف شائع في العالمين: العربي

والغربي، منوّع من حيث أسبابه، وظروفه، وأهدافه، وأنواعه، ومن هنا فإنه متشعب المناحي، لا تفي به إلا مجلَّدات ضخام وما عَمَلُنا هذا إلا لبنة في الصرح، وشمعة على الطريق، وبذرة في الأرض!

وإذا كان الفضل للمتقدم فإنه أيضا للمتأخر الذي يضيف، واللاحق الذي يتم!

والله تعالى قد وعد بالأجر الجزيل للعاملين الذين يحملون الأمانة بالصدق، ويبلّغون الرسالة وافية غير منقوصة!

سدّد الله خطانا، وهدانا إلى أقوم طريق، وغلَّبنا على بلايا الأيام، وخطوب الدهر، إنه سميع مجيب.

محمد الصالح

القبة 1 ذي القعدة 1424هـ

25 جانفي 2004م

التكريم : معناه ومغزاه

معنى التكريم ومغزاه:

(**كرُم**): معناه: عظُم، وشرُف، وفضُل.

ويتعدَّى إلى المفعول به بالهمزة أو التضعيف، فيقال: محمد أكْرم عمرًا، ومحمد كرَّم عمرًا.

وقد ورد متعديا بالهمزة أربع مرات في ثلاث آيات من القرآن الكريم، هي هذه:

في قوله تعالى من سورة يوسف: «**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مصر لامرأته أكرمي مثواه**» (يوسف 21).

وفي قوله تعالى من سورة الفجر: «**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمه ونعَّمه فيقول ربي أكرمني**»(الفجر 15).

وفي قوله تعالى من نفس السورة: «**كلاَّ بل لا تُكرمون اليتيم**» (الفجر 17).

وورد متعديا بالتضعيف مرتين في آيتين اثنتين: في قوله تعالى من سورة الإسراء: «**قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي**» (الإسراء62)، وفي قوله تعالى من نفس السورة: «**ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيِّبات**» (الإسراء 70).

والإكرام أو التكريم: أن تفضل إنسانا وتشرفه بإيصاله بشيء لا تلحقه فيه غضاضة، وقد شاع في مختلف العصور والبلدان تكريم العلماء والأدباء والأبطال وأصحاب المواقف التاريخية المتميزة بشيء يشعرون معه بالتقدير والاحترام والوفاء لهم.

والتكريم نوعان: تكريم الأحياء، وتكريم الأموات، فتكريم الأموات يكون بالتذكير في تأبينهم بتاريخ حياتهم، وبأعمالهم، وخصالهم الحميدة، وأخلاقهم الكريمة، وسجاياهم الطيبة، حتى يقتدي الناس به وينتهجوا سبيله!

وأما تكريم الأحياء - وهو الذي يهمنا بالدرجة الأولى- فإنه يكون بطرق ووسائل مختلفة، والهدف منه الاعتراف بمقام المُكرَّم ومكانته، والوفاء له، وتقديرُ مواهبه وآثاره، والتشجيع على المضي في الطريق، وحفز همم الأجيال الصاعدة للاقتداء به!

ويغلب على كل حفل ينظم للتكريم طابع علمي ووطني وأخلاقي، فالطابع العلمي يتجلَّى من خلال إبراز الجانب العلمي في الشخصية ومواهبها الفكرية، ومحصولها العلمي والثقافي، والطابع الوطني يتجلَّى من خلال التعريف بدور الشخصية في المجال الوطني من جهاد، ونضال، وتضحية، ورؤية سديدة واضحة، وغيرة وطنية صادقة، أما الطابع الأخلاقي فيبرز في أن الذين يتبنون فكرة التكريم ويقومون بها إنما يريدون أن يوفوا للرجل، ويعترفوا له بالفضل، وأن يقدموا في ذلك شهادة يوثقها جمهور من هؤلاء الأوفياء، وتظل على لسان التاريخ تعكس هذا الوفاء، وتدعو الأجيال الوافدة على هذال الوجود إلى الوفاء لرجالهم، رموز النضال والعطاء والتضحية!

وهذه المنافسة التي تنجم عن تكريم الأوفياء العاملين وتترتب عليه، خلق نبيل، وفضيلة من فضائل الإسلام العظيم، وجزء من الهدْي النبويّ، عليه الصلاة والسلام.

وإذا كان الكثير من الناس يتنافسون في حطام هذه الدنيا وحقائرها، ويتجشمون في ذلك متاعب ومشاق مضنية، فإن النبلاء العقلاء يترفعون عن ذلك، ويتنافسون في عظائم الأمور، من العلم والمعرفة، والجهاد من أجل الحرية، والنضال في سبيل ما يبقى على ما يفنى!

وعادة التكريم سنة قديمة متأصلة في نفوس العرب بالخصوص، وإذا كان تتبعها في مختلف مراحل التاريخ، ومختلف البلدان أيضا أمرًا يتقاضانا مجلدا ضخما، فلا أقل في هذا العمل الوجيز من أن نتحدث عنها بإيجاز واقتضاب في العصر الجاهلي، وعصر الإسلام والعصر الحاضر:

التكريم في الجاهلية

- أسواق للتنافس في الشعر
- من التكريم في الجاهلية اختيار المعلَّقات

من التكريم في الجاهلية مسحُ وجه الفرس والفارس

التكريم في الجاهلية:

الذي لا شك فيه هو أن العرب كانوا أقدر على البيان من غيرهم، وأنهم كانوا في مستوى مرموق من الفهم، والذكاء، وإصابة الحدس، وحدة الألمعية، وصدق الفراسة، وكان لشعرائهم مقدرة فائقة على قول الشعر، لاتساع لغتهم للقول، وملاءمة بيئتهم للخيال، وصفاء قريحتهم، وسذاجة معيشتهم وقوة عصبيتهم!

يقول أحمد أمين في كتابه «فجر الإسلام»[1]: إن الشعراء كانوا من أرقى الطبقات عقلا بدليل ما صدر عنهم من شعر، وبدليل أحاديث مبعثرة نراها تدل على اعتداد الشعراء بأنفسهم من ناحية الرقي العقلي، كالذي جاء في سيرة ابن هشام: «إن الطفيل الدوسي قدم مكة ورسول الله بها، فحذره رجال من قريش من سماع النبي حتى لا يتأثر بقوله! قال الطفيلي: فمازالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا، ثم قلت في نفسي: واثكل أمي! والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته».

وقديما قالوا : «إن الشعر ديوان العرب» ويعني هذا أن الشعر سجل أخلاقهم وطباعهم، وعاداتهم وسلوكاتهم، ودياناتهم وعقليتهم، ومن هنا كان للشعر وزن كبير عندهم، كما أن للشاعر مكانة مرموقة بل متميزة في

---

(1) ص: 56.

تصوير جوانب الحياة، وأحداثها وألوانها، فهو الناطق بآمال قبيلته وآلامها، والمخلد لمفاخرها ومآثرها، والناضح عنها يوم حفلهم، فكانت قبيلة إذا نبغ فيها شاعر صنعت الولائم، وأقامت الأفراح، وجاءتها تهاني القبائل المختلفة.

قال ابن رشيق في كتابه «العمدة»:

«كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها؛ وصنعت الأطعمة، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم».

ومن أجل هذه المكانة للشاعر كان الناس يتسابقون إلى إكرام الشعراء اتقاء لذمهم، أو رغبة في مدحهم، وفي التاريخ قصص كثيرة عن قبائل وأفراد خملت بهجاء الشعراء لها، وآخرين نبهوا بإشادة الشعراء بذكرهم.

ومن هنا كان الفخر والاعتزاز بالشعر، وكان مثار التنافس بين الشعراء، ومطمح أنظارهم، ومهوى قلوبهم، يتبارون فيه ويتفاخرون به، ويقدرون من برز بينهم فيه، ويجلونه ويعترفون له بالفضل.

أسواق للتنافس في الشعر

وكانت للعرب أسواق كثيرة يقيمونها خلال السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض، ويحضرها سائر العرب بما عندهم من المآثر والمفاخر وهي: «دومة الجندل» و «سوق هجر» و «سوق المشقر» و «سوق عدن ابين» و«سوق صنعاء» و «سوق حضرموت» و «سوق ذي المجاز» و «سوق مجنة» و «سوق حباشة» و «سوق عكاظ».

وغايتهم عرض ما لديهم من بضائع، وشراء ما يحتاجون إليه، وتحدث فيها مصالحات ومعاهدات واحتفالات.

وكان من أشهر هذه الأسواق: ذو المجاز، ومجنة، وعكاظ. وكان الشعراء يحضرونها بأجود ما تفجرت به ينابيع شعرهم فيتبارون به، ويتنافسون، ويعرض كل واحد ما عنده على حَكَم يختارونه من بينهم، وقد شغل هذا المنصب النابغة الذبياني مدة من الزمن!

إلا أن عكاظ أشهر هذه الأسواق على الإطلاق في الجاهلية وأعظمها، اتخذت سوقا بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة إلى سنة ٥٤٠م ثم بقيت في الإسلام إلى أن نهبها الخوارج الحرورية حين خرجوا بمكة مع المختار ابن عوف سنة 129هـ.

وقد شاهدت هذه الأسواق بالخصوص منافسات شعرية في أبعد حدودها، وعلى أشد ما يكون التنافس، وشاهدت قرائح الشعراء وهي تجود بروائع الشعر وخوالده، وشاهدت نقدة القريض وهم يسلطون أشعة النقد على كل كلمة، وكل تعبير، وكل معنى، وكل إشار، بلا تميز أو محاباة أو مواربة.

«ولد كان لهذه السوق العظيمة وغيرها من أسواق العرب تأثير كبير في تهذيب اللغة، فإن كل شاعر وخطيب كان يفضي بأحسن ما فتح به الله عليه من المعاني العالية، في العبارات الجزلة المنتخلة فيتلقفها السامعون ويدخلونها إلى كلامهم ويلفظون ما سواها من وحشي الكلمات ومتنافر التراكيب، وفي ذلك من أثر التهذيب اللغوي ما لا يستهان به، وكانت قريش لقربها من تلك السوق أسبق القبائل للتقاط كل معنى حسن، ولفظ جزل، وعبارة شاردة، فنسب إليها التهذيب الأخير للغة العربية،

واستأهلت الشرف العظيم بنزول القرآن الكريم بلغتها واعتبرت لهجتها أخلص لهجات العرب من التعقيد والتنافر»[1].

وإذا برز شاعر بين الشعراء ونالت قصيدته الإعجاب والتقدير، اعترفوا له بالنبوغ وكرموه، وكيفية التكريم عندهم أن تضرب قبة تكريما له كما فعلوا بالنابغة الذبياني الذي سمي أشعر العرب فجلس في القبة وجاءته الشعراء، كما جاءه حسان مثلا، وعرضوا عليه أنفس أشعارهم، وقام الحارث بن حلزة يتبختر بين الجموع تبختر الجاهلية وقال:

آذنتنا ببينها أسماء ... ربَّ ثاوٍ يُمل منه الثواء

بعد عهد لنا ببرقةَ شما ... ء فأنى ديارها الخلصاء

من التكريم في الجاهلية اختيار المعلقات

ومن التكريم - في نظرنا - اختيار العرب قصائد لفحول من شعرائهم بلغوا عندهم قمة الإجادة، وذروة الإبداع، فذهبوها على الحرير، وعلقوها على أستار الكعبة تشريفا لها، وتعظيما لمقامها، واعترافا لأهلها بالمقدرة الشعرية حتى صاروا يترنمون بها في نواديهم ومجالسهم، وهي القصائد المعروفة باسم «المعلقات».

واختلف أصحاب الأخبار في شأن هذه المعلقات فقال بعضهم: إن العرب قد بلغ من تعظيمهم إياها أنهم علقوها على أستار الكعبة - كما قدمنا - وأنكرذلك بعضهم وأكبره، وأقدم من أنكره، أبو جعفر النحاس النحوي!

وأكثر أهل العلم يذهبون إلى أنها علقت في الكعبة. قال ابن عبد ربه (وكان معاصرا لابن النحاس وتوفي قبله سنة 328هـ): «وقد بلغ من كلف

---

(1) دائرة معارف القرن العشرين للأستاذ فريد وجدي.

العرب به – بالشعر – وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة، وعلقتها بأستار الكعبة، فمنه ما يقال له «مذهبة امرئ القيس» و «مذهبة زهير» والمذهبات سبع ويقال لها «المعلقات».

وأيد أخبار تعليقها في الكعبة كثير من رجال العلم في أعصر مختلفة، منهم، ابن رشيق، صاحب العمدة، وهو من كبار نقدة الشعر، وابن خلدون المؤرخ الشهير (انظر رجال المعلقات العشر للشيخ مصطفى الغلاييني).

ومنهم من ذهب إلى أنها سميت بالمعلقات لأنها جديرة بأن تعلق في الذهن لجمالها، أو لأنها كالسموط تعلق في الجيد، وهناك آراء كثيرة لا تغني في شيء!

والخلاف في أن هذه القصائد علقت بأستار الكعبة أو لم تعلق، وفي أن الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا هل هو مدون أم غير مدون. كل ذلك مبسط في مظانه كالمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي، والفهرست لابن النديم، والعمدة لابن رشيق.

والذي يعنينا نحن في هذا العمل الوجيز هو أن الشعراء في الجاهلية كانوا يكرمون من نبغ فيهم.

وإذا ثبت أن المعلقات قد علقت بأستار الكعبة تقديرا لأصحابها فهذا تكريم لهم.

أما عدد أصحاب المعلقات وعددها فقد اختلف فيه الرواة، فمنهم من يرى أنها سبع وأصحابها هم هؤلاء: امرؤ القيس، وطرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمى، ولبيد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، وعنترة بن شداد، والحارث بن حلزة اليشكري.

ومنهم من رأى أنها ثمانية وهؤلاء يضيفون إلى أصحابها النابغة الذبياني، وبعضهم يرى أنها عشرة ويضيف إليهم: الأعشى ميمونا، وعبيد بن الأبرص!

وأما أشعر هؤلاء فمثار خلاف وجدل بين أهل الأدب أيضا، على أنهم كادوا يتفقون جميعا على أن شعراء المعلقات أشعر شعراء الجاهلية، ثم ذكروا أن أشعر هؤلاء ثلاثة هم : امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني. قال أبو عبيدة:

«أشعر الناس أهل الوبر خاصة، وهم امرؤ القيس وزهير، والنابغة، وفي الطبقة الثانية: الأعشى، ولبيد وطرفة».

واختلفوا فيمن هو أشعرهم جميعا، فقال الفرزدق: امرؤ القيس أشعر الناس! وقال جرير: النابغة أشعر الناس، وقال ابن مقبل: طرفة أشعر الناس! وقال ابن أحمد: زهير أشعر الناس! وقال الكميث: عمرو ابن كلثوم أشعر الناس! وقال ذو الرمة : لبيد أشعر الناس! وقال الأخطل: الأعشى أشعر الناس!

والراجح أن هؤلاء جميعا نبغاء الشعر في الجاهلية، ولكن أشعرهم امرؤ القيس، ثم زهير، والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، وطرفة.

وهناك مقولة مشهورة يتداولها أهل الأدب وهي قولهم: «أشعر الشعراء أربعة، زهير إذا طرِب، والنابغة إذا رهِب، والأعشى إذا غضِب، وعنترة إذا كلب (أي غضِب).

وكل هؤلاء موضع التكريم والتقدير عند عامة أهل الأدب لنبوغهم الشعري!

من التكريم في الجاهلية مسح وجه الفرس

ولا بأس أن نستطرد بكلمة مختصرة عن نوع آخر من التكريم في الجاهلية، وهو مسح وجه الفرس السابق ومسح وجه فارسه، رغبة في إفادة القارئ الكريم.

قال صاحب «شفاء الغليل»: إنهم كانوا يمسحون وجه السابق من خيول الحلبة تكريما، وربما مسحوا وجه فارسه».

ولقد صارت جملة «مسح الوجه» مرادفة لكلمة تكريم لأنهم تجاوزوا بالمعنى الأصلي عن كونه كريما في حلبة المجد مبرّزا على أقرانه حائزا قصبات السبق في ميدان المكارم، ومضمار الكمال كما قال جرير:

إذا شئتم أن تمسحوا وجه سابق
جواد فمدوا في الرهان عنانيا

وقال ابن عبد ربه:

وإذا جياد الشعر طاولها المدى
وتقطعت في شأوها المبهور
خلوا عناني في الرهان أو امسحوا
عني بغرَّة أبلق مشهور

التكريم في الإسلام

- تمهيـد
- خير الدنيا وخير الآخرة منوطان بالعمل
- العمل مناط الحكم، وموضعُ التقديـر
- الجزاء على قدر العمل
- صور من التكريـم في الإسلام

التكريم في الإسلام

تمهيد:

نلاحظ في البداية أن الإسلام يدعو إلى العمل الصالح البناء، ويحث على المنافسة فيه، ويشجع على ذلك، ويميز بين العامل المجد النشيط الذي يبذل الجهد في عمله ويحرص على إتقانه، وبين الكسول الخامل الذي يتوانى عن عمله، وإذا باشره مارسه في فتور وخمول، وإذا أداه كان عمله مثالا للرداءة والفساد!

وكل مجتمع كثر فيه العاملون المجدون الذين يحبون عملهم، ويخلصون له، ويتقنونه، ساده الرخاء وعاش في رغد من العيش، وأمن من الخوف والجوع!

وأي مجتمع يسوى بين العاملين المجدين، والكسالى الخاملين، لهو - بلا شك- مجتمع يعمل ضد نفسه وضد الكفاية، والإنتاج، وضد المصلحة والإنتاج!

خير الدنيا وخير الآخرة منوطان بالعمل الصالح:

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية آيات وأحاديث تقرر هذه السنة الاجتماعية الدينية، الخلقية، تقديرا واضحا جليا، ولكننا نقتصر على آيتين قصيرتين في اللفظ ولكنهما كبيرتان عميقتان في الدلالة والإحاطة:

إحداهما قول الله تعالى: «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» (التوبة 105).

تقرر الآية الكريمة أن خير الدنيا وخير الآخرة منوطان بالعمل، فلا شرف للإنسان، ولا وجود له في هذه الحياة، ولا حياة له إلا بالعمل، ولا سعادة له في الآخرة إلا بالعمل، فالعمل قوام الحياتين!

فمن تتبع القرآن الكريم وجده يعنى بالغ العناية بالعمل ويقرنه دائما بالإيمان، لأن الإيمان مقدمة والعمل نتيجة، فإذا لم يثمر الإيمان العمل فليس بإيمان، ولا قيمة للإيمان إذا لم يترجمه العمل إلى واقع الحياة، فكل ما يشاهد على وجه الأرض من بنايات، ومصانع، وجسور، وطرق، وسكك حديدية، وآلات، وكتب، كانت أفكارا ثم ترجمها العمل إلى الواقع، وكل الحضارات الإنسانية التي مرت بهذه الأرض والتي يعيشها الإنسان في هذا العصر كانت آراء ثم أخرجها العمل إلى حيز الوجود!

والآية تقرر أيضا أن كل عمل يقوم به الإنسان سواء كان خيرا أو شرا فالله تعالى يراه ولا يخفى عليه، ومن ثم وجب أن يراقبه في عمله، ويتذكر دائما أن الله ينظر إليه، ومن هنا وجب أن يخلص فيه ويتقنه، ويكون عمله في الخلوة كما يكون في الجلوة!

ومما تفيده الآية الكريمة أن كل عمل يقوم به الإنسان يراه الرسول والمؤمنون يوم القيامة، حيث تعرض الأعمال وتبلى السرائر، ويحصل ما في الصدور ليوزن كل عمل بميزان الإيمان المتميز بين الإخلاص والنفاق، قال تعالى: «**ويومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية**» (الحاقة 18).

وفي المنار: «فإذا كانت الخلائق النفسية، والأعمال السرية لا تخفى على الناس مهما يكن من محاولة صاحبها لإخفائها فماذا يقال في الأعمال التي هي مقتضى العقائد والأخلاق، وما انطبعت عليه النفوس من الملكات، ومرنت عليه من العادات؟

نرى المؤمنين الصادقين يخفون بعض أعمال البر التي يستحب إخفاؤها كالصدقة على الفقير المتعفف سترا عليه، ومبالغة في الإخلاص لله تعالى الذي ينافيه الرياء وحب السمعة، ولكنهم لا يلبثون أن يشتهروا بها، ونرى بعض المنافقين يخفون بعض أعمال النفاق خوفا من الناس لا من الله ولكنهم لا يلبثون أن يفتضحوا بها».

وأخرج أحمد وابن أبي الدنيا في الإخلاص عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال:

«لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان».

العمل مناط الحكم، وموضع التقدير:

وإذا كانت الآية الكريمة تقرر أن حقيقة النوايا ومخبوءات الصدور تنكشف بالعمل. ففي ضوء ذلك يلاحظ أن العمل هو مناط الحكم وموضع التقدير، ودليل إيجابية الإنسان ومحدد قيمته ومركزه في الحياة وعلى حسبه يكون (تقييمه) وتقديره وتكريمه!

وقد اشتبه هذا الذي ذكرناه على أحد المعلمين مع قوله تعالى: **«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا»** (الحجرات) فرأى أن الله تعالى قد قرر مبدأ المساواة في هذه الآية فلا فرق بين الناس جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم، ولكني بينت للمعترض الكريم، أن الله تعالى سوى بين الناس جميعا في أصل الخلقة، ووحدة الربوبية، واستواء الناس أمامها، وهذه التسوية لا تعني أبدا إلغاء الفوارق المترتبة على الصفات والمواهب والأخلاق والأعمال الصالحة، فإن إلغاء هذه الفوارق يكون تنكرا لقانون طبيعي فطري، فإن هناك فرقا واضحا بين عالم وعالم وكاتب وكاتب، وصانع وصانع، وزارع

وزارع، ومن هنا كان العمل هو ميزان التفاضل بين الناس مع قيام المساواة العامة بينهم، وعلى حسب ذلك يكون التقدير ويكون التكريم.

ومن أجل هذا جاء بعد تقرير المساواة مباشرة ما يرفع هذا الإلتباس أو الاشتباه وهو قوله تعالى: «**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**» (الحجرات). ويقول الرسول ﷺ: **«لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى وعمل صالح».**

ويعلق المرحوم العلامة الشيخ محمد محمد المدني على هذه الآية وهذا الحديث ويقول:

«والتقوى ليست كما يتصور كثير من الناس أنها المظهر الديني أو الروحي في المحافظة على الصلوات والعبادات والمناسك ولو مع القعود عن العمل، وإيثار الكسل، وارتكاب السوء والإيذاء، وإنما التقوى هي طاعة الله فيما أمر به أو نهى عنه، وذلك معنى لا يتجزأ ولا يكون في العبادات دون المعاملات ولا في المعاملات دون العبادات، ولا في المسجد دون المنزل، أو الشارع أو المصنع أو الجامعة أو المدرسة أو الوظيفة، إنه في ذلك كله فبمقدارما يحقق المرء منه تكون له الكرامة عند الله، والتفاضل إنما هو على أساس نِسْبي لا على أساس نَسبي[1].

وجماع القول أنه لا يمكن أن يتساوى المجدُّ في عمله، والمفرّط المهمل فيه، ولا يمكن أن يتساوى المخلص المثابر مع صاحب النية السيئة أو اليائس المنكمش، وعلى هذا الأساس يكون التقدير والتكريم لذوي الجد والنشاط والإخلاص الذين يشرفون أممهم وأوطانهم، ويمكن أن يكونوا قدوة لغيرهم!

---

(1) منبر الإسلام.

الجزاء على قدر العمل:

أما الآية الثانية فهي قوله تعالى: ﴿**ولكل درجات مما عملوا، ولنوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون**﴾ [1]، وهذه أيضا تقرر تلك السنة الاجتماعية الدينية الخلقية وهي أن الجزاء على قدر العمل، فلكل عامل في أي مجال من مجالات الحياة درجته، فعلى قدر نشاطه واجتهاده وإتقانه للعمل تكون درجته، ويكون تقديره وتكريمه، وبهذا التمييز للمجدّ على الكسول، وللمخلص على غير المخلص، والمثمر على غير المثمر يكون التمييز بين المواهب والكفاءات!

وليس هذا فقط بل هناك رقابة لا يغيب عنها شيء من جهود العاملين، وإخلاص المخلصين، إنها الرقابة الإلهية الدائمة التي في نظرها وتقديرها كل حركة وكل سكنة وكل كبيرة وصغيرة، فإذا همش من يستحق التكريم ونسيه أو تناساه أهل الأرض فهناك رقابة الله حاضرة وافية وهناك من يكرم ويجازي الذي لا يضيع عنده شيء، قال الله تعالى: ﴿**إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا**﴾[2]. وقال: ﴿**إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض**﴾[3]. وقال: ﴿**ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما**﴾[4]. وقال: ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ [5].

هذا هو الإطار الذي رسمه الإسلام للعاملين المجدين، وهو إطار يكفل للفرد والمجتمع الطموح إلى العلا، ويضمن التنافس في الاجتهاد والتضحية.

---

(1) الأحقاف الآية 19.
(2) الكهف الآية 30.
(3) آل عمران الآية 195.
(4) طه الآية 112.
(5) النحل الآية 97.

والأمة العربية الإسلامية إنما يعظم قدرها ويعلو شرفها - والأمة الجزائرية -جزء منها - يوم تعرف قدر أبنائها العاملين المجدين الذي يعملون بلا صخب أو دعاية أو تهريج فتبوئهم مكانتهم، وتقدرهم وتكرمهم، وتعرف أنهم معيار رقيها وتقدمها، وأوسمة شرفها!

أما أن يكون التقدير والتكريم لاعتبارات ومفاهيم لا تمت بصلة إلى قيمة الإنسان الذاتية وآثاره وأعماله، فهذا يحط من قيمتها ولا يدل إلا على قصر في النظر، وسوء في التصرف.

صور من التكريم في الإسلام

أدرك المسلمون من دينهم ومن واقع الحياة والتجربة أهمية التكريم وما ينجر للفرد والمجتمع من فوائد، وراء التشجيع كأسلوب من أساليب الدعوة إلى العمل والتنافس فيه، فكانوا يحتفلون بالمجدين المجيدين، ويكرمونهم ولم يكن احتفاؤهم وتكريمهم مقصورا على الشعراء والأدباء فقط، بل تجاوزه إلى العلماء والفضلاء، فكانوا يقيمون الاحتفالات الحافلة لتكريمهم في حياتهم وتأبينهم بعد موتهم، وتغالوا في ذلك حتى كانوا يقيمون الحفلات عند الانتهاء من درس[1] وختم الكتب الهامة التي كانوا يدرسونها في معاهدهم الدينية والعلمية، وكانوا يحتفلون بالمتعلم إذا ختم القرآن الكريم أو انتهى من درس كتاب هام في الحديث أو الفقه كصحيح الإمام البخاري، أو صحيح الإمام مسلم، أو الموطأ للإمام مالك، ونحو ذلك من الكتب المعتبرة، يحتفلون به احتفالا شائقا يحضره كثير من رجال العلم والأدب والأعيان، فتلقى فيه الخطب والقصائد الشعرية، وتكون فيه المذاكرة.

---

(1) الهلال، ج4 س27 يناير 1919.

وفي كتب التاريخ حفلات التكريم التي أقيمت لهذه الأغراض، وقد حفظ لنا ما لا يحصى من الخطب والقصائد التي قيلت فيها، بل إن كتب الفقه قد أثبتت وجود هذه العادة الحميدة سواء بالنسبة إلى الأموات فتسمى «تأبينا» تذكر فيه محاسن الميت ومآثره، أو بالنسبة إلى الأحياء فيسمى احتفاء وتكريما، وإن كان الفقهاء قد عدوا تأبين الميت من البدع واستدلوا على ذلك بما روي من الآثار المعروفة في كتب السنة.

وتكريم الأحياء - وهو الذي يعنينا هنا- كان شائعا في الإسلام شيوعا ذائعا، لتقدير المسلمين للعلم وإجلالهم لأهله، ولعلمهم أن التكريم يحفز الهمم إلى طلب العلم، ويدفع إلى الأمام في طريق تحصيله ونشره والعمل به.

فكانوا يتحينون الفرص والمناسبات للاحتفاء بمن يحوز السبق في ميدان العلم والمعرفة. أو ينجز عملا فكريا هاما. فمن ذلك الاحتفال بالعلامة ابن حجر عند فراغه من تأليف كتابه «فتح الباري في شرح البخاري» فقد احتفل به احتفالا عظيما رددت ذكره الأمصار البعيدة والقريبة وظل وسيظل أنشودة على لسان الزمان، وحضره من العلماء وأفاضل الأدباء، وأهل الفكر، ورجال الخطابة جم غفير، وكان الذين حفظ التاريخ أسماءهم من هؤلاء الأعلام ينيف عددهم على ثمانين. أما علماء الطبقة الثانية وغيرهم من الأدباء والوجهاء وما دونهم فلا يحصيهم العد.

وقد ألقيت خطب وقصائد شعرية في هذا الحفل للتنويه بفضل المحتفل به. فمن ذلك قصيدة للشهاب المنوفي مطلعها:

تمنعت بدموع الصب في حجب
فانظر لشمس الضحى في حلة السحب

ومنها :

شرحت صدر البخاري مثل جامعــه
فـــراح ينشــد هـــذا منتهــى الطــلــب
هــذا وحقِك عــام الفتــح حــج بــه
ليت فضلــك وفــد العلــم عـــن رغـــب

ومن ذلك أيضا قصيدة الصلاح الأسيوطي التي جاء فيها :

كم للبخاري من شرح وليس كما
قد جاء شرحك في فضل وتتميم

وقصيدة العالم المفسر البرهان البقاعي:

بابي الخــدود نــواضــرا حسنــاتهــا
كنواضر الغــزلان فــي الدينــار
قصدت يكون المسك حسن ختامها
فتعلمت من ختم فتح البــاري

وممن شاركوا في الحفل بالقصائد الشعرية هؤلاء العلماء الأجلاء الذين لهم شهرتهم العلمية الواسعة أمثال: شمس الدين الدجوي، والخطيب برهان الدين المليحي، ومحب الدين البكري، وشرف الدين الطنوبي وشمس الدين النواجي[1].

وجاء في مقال للأستاذ عبد الفتاح عبادة نشره في مجلة «الهلال»[2] تناول فيه عادة التكريم في العالم العربي قديما وحديثا :

---

(1) ذكر بعضها المقتبس (س 1، ص344).
(2) ج4، س 27 يناير 1919.

ولما فرق مؤلفه- المحتفل به - صرر فضة ومجامع حلوى أنشد الدجوي:

بفتح الباري انشرح البخاري
وأحمد ختمه بالفضل جامع
ادار دراهمـا صـررا فأنشـى
وحلوى فيه تأخذ بالمجامع

ومن حفلات التكريم في الإسلام ما أتى به الجبرتي في تاريخه من الاحتفال بتكريم اللغوي الشهير السيد مرتضى الزبيدي بعد أن أكمل قاموسه «تاج العروس» سنة 1188 وذلك بإقامة حفل بهيج حضره علماء ذلك العصر وكبار أدبائه، منهم هؤلاء الأعلام: الشيخ علي الصعيدي، والدردير، والعيدروس، والأجهوري، والأمير الكبير، وعبادة العدوي، وأبو الأنوار السادات وغيرهم كثير كما بسطه وفصله الجبرتي.

وفي سنة 300هـ – 912م احتفل أبو القاسم بن الوزير الخاقاني بدخول ابنه الكتاب، فدعا من القواد والرؤساء جماعة بلغوا ثلاثين نفسا، وأمر الداعي بإعطاء المعلم ألف دينار، وأُكرم الناس وأكلوا. وكان يلازم المأمون في الكتاب غلام لمعلمه فكان إذا احتاج المأمون إلى محو لوحه بادر إليه، فأخذ اللوح من يده وغلب على غلمان المأمون فمسحه وجاء به فوضعه على المنديل في حجره[1].

ولا يخفى ما في هذا من تقدير العلم وتعظيم شأنه.

---

(1) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تأليف آدم متز، ج1، ص347 نقلا عن كتاب العيون والحدائق، مخطوط برلين، ص79.

وأمثلة التكريم في عصور الحضارة الإسلامية كثيرة لا تحصى، وهدفنا أن نقدم عينات تعكس اهتمام العرب بالعلم والعلماء.

وإذا كانت طرق التكريم وأساليبها ونظمها تختلف من عصر إلى عصر، ومن قطر إلى قطر، فإن الهدف واحد هو تقدير أهل العلم والأدب والاعتراف بفضلهم وخدماتهم!

التكريم في العصر الحديث

- تمهيد
- التكريم في المشرق العربي
  - تكريم سليمان البستاني
  - تكريم حافظ إبراهيم
  - تكريم خليل مطران
  - تكريم أحمد فتحي زغلول
  - تكريم واصف غالي
  - تكريم الشيخ طاهر الجزائري
  - تكريم أحمد شوقي
  - تكريم الفضيل الورتلاني
  - تكريم جمع من أهل العلم والأدب بمصر

التكريم في العصر الحديث

تمهيد:

تنوع أسلوب التكريم في العصر الحاضر، وشاع وذاع وأصبح عادة تتنافس فيها الجمعيات والمنظمات المختلفة بالخصوص، فهناك التكريم بإقامة حفل يحضره غالبا العلماء والأدباء والأعيان وعامة الناس، إذا كان المحتفل به عالما أو أديبا، ويحضره رؤساء الأحزاب والمنظمات ورجال السياسة إذا كان المحتفل به سياسيا أو رجل حرب!

وهناك التكريم بإقامة التماثيل، أو بمنح الجوائز الأدبية، وهناك وسائل أخرى كثيرة يعبّر بها عن التقدير والتكريم.

وسنتحدث في هذا الموضوع عن التكريم في المشرق العربي والمغرب العربي، أي في مصر وسوريا وتونس، والجزائر والمغرب، أولهما: لوجود المراجع، وإن كانت قليلة، ثانيهما: لأن غرضنا أن نقدم للقارئ الكريم عينات من هنا وهناك، ولأن توسيع النطاق يخرج بهذا العمل عن التخطيط له، والتسهيل في طبعه، لأن دور النشر - مع الأسف - تزهد في الكتب المطولة!

التكريم في المشرق العربي

▪ تكريم سليمان البستاني

من حفلات التكريم الشهيرة حفلة سليمان البستاني عند ظهور ترجمته الشعرية لإلياذة هوميروس عقدت في فندق شبرد سنة 1904م حضرها جمهور غفير من أهل العلم والأدب، وألقيت خطب وقصائد في التنويه بالمحتفل به .

• لمحات من حياته:

إنه كاتب، وشاعر، وسياسي، ولد في "بكشتين" بلبنان سنة 1856، ودرس ببيروت، ورحل إلى العراق ومصر والأستانة. تولى مناصب كبيرة في الدولة العثمانية وأقام في سويسرا في أثناء الحرب العالمية الأولى ، وبعد انتهائها قدم إلى مصر، ثم سافر إلى أمريكا فمات بها سنة 1925 ونقل جثمانه إلى بيروت، وكان يجيد عدة لغات!

▪ تكريم حافظ إبراهيم

اشترك جمع من فضلاء السوريين وعلمائهم وأدبائهم في تكريم شاعر النيل حافظ إبراهيم اعترافا بما في شعره ونثره من حسن الظن بالسوريين، فأقاموا له حفلا كبيرا بهيجا بفندق «شبرد» مساء يوم 24 مارس سنة 1908 وكان الذي اقترح فكرة التكريم الأديب سركيس، وأراد بذلك التقريب بين المصريين والسوريين، وقد صرح بهذا في دعوته حيث قال:

«إن الغرض الأصلي من هذا الاحتفال إكرام الأمة المصرية جميعها في شخص شاعرها وأحد أبنائها وإزالة ما علو مض الأذهان من سوء التفاهم».

وكان الحفل شائقا بهيجا حضره علماء وأدباء وطلبة، والأعيان والوجهاء، وألقيت خطب وقصائد كلها ترمي إلى توطيد عرى المودة بين مصر وسوريا، وكان من الخطباء والشعراء: سليمان البستاني، ونقولا رزق الله، وسليم بك باخوس، والأمير شكيب أرسلان، وإسماعيل عاصم، واميل أفندي البستاني، ورفيق العظم، والدكتور شدودى، وغيرهم كثيرا

وفي أثناء ذلك قدموا لحافظ قلما ريشته من ذهب ودواة من فضة جميلة الصنع، وأخيرا انبرى حافظ وأنشد قصيدة نظمها لهذا الاحتفال نثبت منها بعضها:

• لقطات من قصيدة المحتفى به:

يقول رحمه الله:

لمصــر أم لــربــوع الشـــام تنتســب
هنا العلى وهناك المجد والحسب
ركنــان للشــرق لازالت ربـوعـهـمـا
قلب الهلال عليها خافــق يجــب
خدران (للضاد) لم تهتك ستورهما
ولا تحول عـن مغنــاهمــا الأدب
أم اللغــات غــداة الفخـــر امُهمـــا
وإن سألت عـن الأبــاء فالعــرب

ومنها:

إذا ألمَّت بـواد النيـل نـازلـة
باتت لها راسيات الشام تضطـرب
وإن دعى في ثرى الأهرام ذو ألـم
أجـابـه فـي ذرى لبنـان منتحـب
لو أخلص النيـل والأردنّ ودَّهمـا
تصافحت منهما الأمـواء والعشـب
بالواديين يمشي الفخر مشيتـه
يحـف نـاحيتيـه الجـود والـدأب

إلى أن يقول:

ما عابهم أنهم في الأرض قد نثروا
فالشهب منثورة مذ كانت الشهب
ولم يضـرهم سـراء فـي منـاكبهـا
فكل حي له في الكون مضطرب
رادوا المناهل في الدنيا ولو وجـدوا
إلى المجرة ركبا صاعـدا ركبـوا
أو قيل في الشمس للراجيـن منتجع
مدوا لها سببا في الجو وانتدبوا

وختم القصيدة بقوله:

إن يكتبـوا لـي ذنبا فـي مـودتهـم
فإنما الفخر في الذنب الذي كتبوا

• لمحات من حياته:

شاعر عربي مصري يعد من أبرز شعراء النهضة الحديثة، ولد سنة 1871 وتوفي سنة 1932.

تميز شعره بجزالة اللفظ، وإشراق الديباجة، وبتجويد العبارة وتهذيبها، وقد برع في الرثاء، وشكوى الزمان، وكان في كثير من قصائده ضمير الشعب، وصوته المعبر عن أمانيه وتطلعاته. اتصل بكثير من الزعماء في ميادين السياسة والفكر والاجتماع، وخاصة الإمام محمد عبده!

طبع ديوانه في حياته في ثلاثة أجزاء صغيرة (1901 – 1922) ثم طبع بعد وفاته شاملا لكثير من شعره الذي لم ينشر في الطبعة الأولى!

■ تكريم خليل مطران

في أبريل سنة 1913 أقيمت حفلة تكريمية في الجامعة المصرية لتكريم الشاعر خليل مطران بمناسبة الإنعام عليه بالوسام المجيدي الثالث، وحضر الحفل علماء وأدباء وشعراء، وكان شعره ومواهبه وأخلاقه مثار التنويه والإشادة.

• لمحات من حياته:

ولد بمدينة «بعلبك» بلبنان سنة 1872، وتلقى علومه في ربوعه، ثم هاجر منه إلى وادي النيل واتخذه وطنه الدائم، واشتغل فيه بالصحافة والأدب، ثم تفرغ للفن الشعري، فأظهر فيه براعة وتجديدا، وأطلق عليه الأدباء لقب شاعر القطرين (المصري واللبناني)، وله ديوان يعد طبعه حينما طبع حادثا يذكر في عالم الأدب، قال في مقدمته:

«وغاية ما أتمناه لدى القراء... أن يشاركوني في وجداني أثناء مطالعتهم لهذا الكتاب، فيرضوا عن الفضيلة كما رضيت، ويأسوا من الرذيلة كما أسيت، وأن يستفيدوا من مناصحاتي ويتخذوا أدوية لجراحاتهم من جراحاتي!».

ووافته المنية ليلة اليوم الأول من يوليو سنة 1949 وعمره نحو ستة وسبعين عاما.

■ تكريم أحمد فتحي زغلول

وفي يوم 27 يونيو 1913 أقيم حفل كبير في دار الجامعة المصرية لتكريم العالم العامل، رجل القضاء الشهير بمصر الأستاذ فتحي زغلول باشا، اشترك نخبة من العلماء والأدباء ورجال القضاء وألقيت خطبٌ وقصائدٌ في الإشادة بمواهب الرجل ومميزاته الشخصية وعلمه الواسع، وعمله الجاد المثمر، وكان من الخطباء الأستاذ أحمد لطفي السيد، ولما توفي فتحي بعد سنة من تكريمه كتب عنه السيد يقول:

«لقد كنت في الربيع الماضي على المنابر والصحف نكرم ذاتك ونتوج مؤلفاتك ونعلن فضلك فما دار الحول حتى جئنا ننعي وفاءك وأنت في الحالين كبير، إن مظاهر الاعتراف بفضلك التي شهدتها بنظرك ليست بأكبر مظاهر الجلال التي قام بها من يبكونك لمقامك العلمي والعملي»[1].

---

(1) الجريدة 28 مارس سنة 1914 العدد 2143.

• لمحات من حياته:

أحمد فتحي زغلول هو شقيق الزعيم المصري المعروف سعد باشا زغلول، وُلد في 4 ربيع الأول سنة 1279 هـ، تعلم في كتَّاب البلد ثم في مدرسة رشيد ثم في المدرسة التجهيزية، ثم في مدرسة الألسن، وفي سنة 1884م أرسلته نظارة المعارف إلى فرنسا لدرس الحقوق فحصل على شهادة الليسانس ورجع سنة 1887، وظف بقلم قضايا الحكومة ثم رئيسا لنيابة أسيوط، ثم رئيسا لنيابة الإسكندرية، ثم مفتشا بلجنة المراقبة، فرئيسا لمحكمة الزقازيق، ثم رئيسا لمحكمة مصر، ثم وكيلا لنظارة الحقانية، واشتهر بحسن الإخلاص، والتفاني في العمل، وقوة الذكاء، وعمق الإيمان، قال عنه السيد لطفي السيد في حفل تأبينه:

«إن صورة فتحي التي اشترك في رسمها جميع خطباء هذه الحفلة الممثلين للمعاني والطبقات المتباينة صورة ندخرها عند الزمان على أنها طليعة النهضة العلمية وأثر من آثارالمجد المصري العظيم»[1].

■ تكريم واصف غالي:

وفي سنة 1914 أقيمت حفلة تكريمية في فندق (شبرد) لتكريم واصف بك غالي لمحاضرات قيّمة ألقاها في باريس عن العرب كانت مثار التقدير والإعجاب من مختلف الطبقات العلمية، ولكتاب ثمين ألَّفه عن شعرهم ورقيّهم وحضارتهم باللغة الفرنسية سماه (حديقة الأزهار)، فكانت الحفلة شيقة زاهرة تبارى فيها كبار الشعراء، ومشاهير الخطباء، بروائع الشعر ونفائس الخطب، فمما قاله الشاعر الكبير إسماعيل باشا صبري:

---

(1) تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع، ص123.

«أيّ صـــوت حيتـــه بالأمـــــ ـــس باريس مقرّ العلوم والعلماء

يا سجل الخلود أفسح مجالا لاسمــه فــي صحيفــة الفضــلاء

إن من طيب الثنـــاء لزهـــرا تجتنيـــه مســـامـــع الأكـــفـــاء

أما أمير الشعراء، أحمد شوقي فإنه هزَّ الحاضرين، هو الآخر بمعانيه الكريمة، ومما جاء في قصيدته قوله:

غالٍ في قيمة ابن بطرس غالي

علم اللَّه ليس في الحق غـالـــي

نحتفي بالأديب والحق يقضي

وجـــلال الأخـــلاق والأعمـــال

يظهر المدح رونق الرجل الما

جـد كالسيف يزدهي بالصقال

رُبَّ مدح أذاع في الناس فضلا

وأتـــاهــــم بقـــــدوة ومثـــــال

إنمـــا يقـــدر الكـــرامَ كريـــــم

ويقيم الرجال وزن الرجال

وإذا أعـــظـــم البـــلادَ بنـــوهـــا

أنزلتْهم منـــازل الإجـــلال

• **لمحات من حياته:**

قبطيّ، ولد سنة 1878م تولَّى وزارة الخارجية المصرية، وسافر مع الوفد إلى لندن لمفاوضة الحكومة الأنجليزية للمرة الأولى في سبيل الاستقلال سنة 1920، وهو من مشاهير شعراء مصر في العصر الحديث، نال بشعره جاها عريضا، وسمعةً ذائعةً، وخدم به قضايا وطنه وقضايا الأمة العربية، والشعر إذا لم يكن حفزًا للهمم، وفتحًا للقلوب، وإضاءةً للطريق، وإيقاظًا للعقول، ودعوةً إلى بناء الحياة العزيزة الكريمة، وإطفاءً للفتن، وتبصيرا بدسائس الاستعمار ومكائده، فليس بشعر.

ومما يحضرنا من مواقفه أنه عندما قتل رئيس وزراء مصر (بطرس باشا غالي) في يوم 20 فبراير سنة 1910م بيد شاب مسلم اسمه إبراهيم ناصف الورداني أطلق عليه أربع رصاصات من مسدسه في باحة نظارة الخارجية[1] ثارت ثائرة القبط، وعقدت الاجتماعات من الأقباط في أسيوط، ومن المسلمين في مصر الجديدة، وكادت الفتنة تَعم البلاد، كتب الشاعر واصف غالي رسالة إلى الشاعر الكبير إسماعيل صبري يرجوه فيها أن يسهم في إطفاء الفتنة، وجاء في رسالته مايلي:

(قيل إن الشعراء أنبياء، إذ هم ساسة الأفكار، وقادة الشعوب، فعسى أن يتبعك شعب مصر فيسلك مسلك الحق والشرف)[2] فاستجاب إسماعيل صبري لهذه الرغبة وأنشأ قصيدة من واحد وعشرين بيتا ومطلعها:

---

(1) الهلال ج6 س 18 – 1 مارس 1910م.

(2) أصداء الدين للأستاذ سعد الدين محمد الجيزاري ج1 ص266.

■ تكريم العلامة الشيخ طاهر الجزائري[1]

• تمهيد:

أما علامة الجزائر والأمة العربية قاطبة الشيخ طاهر الجزائري فإنه كرم بإقامة حفلة تذكارية سنة 1923 في دمشق عقدها المجمع العلمي، وحضرها أعلام الفكر، وأبناء المنابر ورجال الصحافة، وأعيان البلد، وألقيت خطب وقصائد شعرية، في التنويه بعلم الرجل وأفقه الواسع في مختلف العلوم والمعارف العقلية والنقلية.

• بعض ما قيل فيه:

وفيما يلي قصيدة الشاعر الكبير حليم دموس، نثبتها برمتها لأهميتها التاريخية :

مشى وكان «صغيرا» لاعبا مـرحـــا
ما بين شيب وشبـان وأطفـــال
وإذ تدرج في عهد «الشباب» مضى
إلى معــاهــد إرشـــاد وتســـآل
وبات في القوم «كهلا» زاخرا أدبا
يُحيي المكاتب تنويرا لجهال
وعاش ما عاش «شيخا» حجة علما
مؤلفــا بيـــن أسحار وآصـــال

* * *

(1) أوردناه مع المشارقة، وإن كان جزائريا لأنه وُلد في المشرق، وعاش وكُرِّم فيه.

رايته في ربوع «الشام» منصرفـا
إلى مذاكـرة الأصحـاب والآل
رايته في ضفاف «النيل»مبتـدرا
إلـى مجـالس آداب وإقبـال
رأيته في بلاد «الغرب» مكتشفا
سر ارتقاء شعوب ذات أفعـال
رأيته في بلاد «الشرق» محترما
«مقاصد الشرع» في تفسير أمثال[1]
حـرا جريئا أبيا زاهـدا ورعـا
وعالمـا غيـر قـوال ومختـال
مشجعا كل بحاث أخـي أدب
مُواصلَ الدرس في حل وترحال
يطوي الحياة بعيدا عن زخارفها
كأنها في يديـه بعـض أسمـال
ويستثير كنوزا مـن دفائنهـا
من معدن العلم لا من معدن المال
فقلت للنفس: حيّ الشيخ خاشعة
فإنـه بطـل بـل شيـخ أبطـال

(1) مقاصد الشرع، والتفسير، والأمثال: إشارة إلى ثلاثة كتب مشهورة من مؤلفات الشيخ طاهر رحمه الله.

وقفت في سفح «قيسون»[1] فنبهني

في «الصالحية» ليلا هاتف عال

كأنما «طاهر» وافى يذكرنا

من الضريح بعهد غابر حال

وهذه روحه تدعو بني وطني

إلى مناهج تحسين وإكمال

شبيبةَ العصر، هلا يقظةً فانا

عن ذكركم لست بالساهي ولا السالي

دعوا المظاهر حينا إنها عرض

والسر في النفس لا في الهيكل البالي

وكرموا العلم إجلالا لدولته

إن رمتم اليوم تكريمي وإجلالي

وصارعوا الجهل، إن الجهل مدرجة

لموت شعب يناجي مجده الخالي

فتلك آثار أجداد لكم درجوا

أدالها الدهر من حال إلى حال

وذي مدارسكم فاسقوا حدائقها

بمنهل من صحيح العلم سلسال

(1) دفن الشيخ بحسب وصيته في الصالحية في سفح جبل قيسون المجاور لدمشق، ولهذا الجبل ذكر مشهور في التاريخ وهو مأوى الأنبياء والعلماء والصالحين.

وذي مكاتبكم في الشام فاحتفظوا
بها ولا تتركوها رهــن إهمـــال
صونوا بها اللغة الفصحى فإن لها
ذكرا جرى بين أعصار وأجيال
توحدوا في هوى الأوطان واتحدوا
يا رب تجزئة جاءت بزلـــزال
أعيذكم من جمود في الحياة ومن
إضاعة الوقت في قيل وفي قال
قد عشت في وطني ما بينكم ردحا
فحققوا بعض أحلامي وآمالي
تململ الشرق.. والأحفاد ترمقكم
وأنتم بيـن حســاد وعـــذال
والناس تجري إلى العلياء طائـرة
وأنتم قد رضيتم راحة البـال
والدهر يرقب والأوقات مسرعـة
وكل حي لميت لاحق تـال..»

• لمحات من حياته:

أصله من سمعون إحدى القرى القبائلية بوادي الساحل بالقرب من القصر، وودي أميزور على بعد 60كلم من بجاية، هاجر والده السيد محمد الصالح إلى دمشق سنة (1263هـ / 1846م) وهناك ولد الشيخ طاهر ليلة الأربعاء في 20 من ربيع الأول عام (1268هـ/ 1852م).

شب محبا للعلم والمعرفة، ولوعا بالمطالعة، فتضلع فيهما وصار موسوعة يتندر بها. وألف عشرات الكتب في مختلف المجالات، كما أشرف على طبع عديد من الكتب القيمة، واشتهر بثلاثة مؤلفات هي «مقاصد الشرع»، و «التفسير الكبير»، و «الأمثال»، ومن أخلاقه وعاداته المميزة، أنه يحب العمل، ويستغل الوقت، وله عزيمة ماضية لا يبالي بالعوائق والعقبات، وشعاره قول الرسول ﷺ: «**من أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه**».

وفي سنة 1905 هاجر إلى مصر، وفي سنة 1914 ذهب إلى بيروت ودمشق، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى،مصر وظل بالقاهرة إلى سنة 1919، ثم عاد إلى دمشق ومرض الربو يضايقه، ولم تمض إلا أشهر حتى عين مديرا للمكتبة الظاهرية، ثم عين عضوا في المجمع العلمي، ولم يلبث أن اشتد به المرض فالتحق بالرفيق الأعلى في 5 يناير سنة 1920م، رحمه الله!

تكريم أحمد شوقي

يكاد النقاد يُجمعون على أن شوقي كان تعويضا عادلا عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب بعد المتنبي، لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر، ويُجدِّد ما اندرس من نهج الأدب[1]

كان شوقي أشعرَ شعراء العصر الحديث، يُحسن التحدث في مختلف المجالات، ويُعبِّر عن مآسي القلوب، وخلجات النفوس، وجمال الطبيعة، وعَبث الزمان، وتقلُّب الأيام، وأطياف الماضي، وصحائف الآثار، تعبيرًا

(1) تاريخ الأدب العربي للأستاذ أحمد حسن الزيات، ص 580.

يهزك من الأعماق، ويأسر مشاعرك وأحاسيسك، ويُريك رأي العين أنك أمام الملموس المشاهد!

إن شوقي شاعرٌ متفوق في كلّ شعر أبدعه، وإن كان هذا القول على إطلاقه هذا لا يُرضي أعداءه ومعارضيه، بل يثير غضبَهم وسخطَهم لو كانوا على قيد الحياة، ولكنها الحقيقة التي تفرِض نفسها، والتي جعلت أدباء من مصر والشام، يفكرون في السعي إلى ترشيحه لجائزة نوبل، ولكنه لم يُعِرْ لذلك أيَّ اهتمام، وكأني به يَرى نفسَه فوق ذلك، أو رأى ما يحيط بهذه الجائزة أحيانا من غيوم فتجاهَلها![1].

إن شوقي تقرأ له فتحِس بشعور الانفصال من حُدود هذه الأرض الضيقة، والانطلاقِ في جوٍّ فسيح طلْق، فإذا القلب خافق صريع بسحر الجمال الشِعريّ، وإذا الروحُ في الأفق الرحيب تستجلي آيات الجمال والجلال!

إن شوقي قد احتلَّ مكانة فذةً بين شعراء العصر، بل بين شعراء القرون العشرة الماضية، ولم يكن شاعرَ مصر وحدَها، بل هو شاعر العرب جميعًا، وبهذا أجمع على تقديمه وتفضيله غالبيةُ أهل الأدب والرأي في البلاد العربية، وأثمر إجماعُهم هذا أشهى ثمراتِه لشوقي، حينَ تألَّفت بمصر لجنة من أهل العلم والأدب تحت رئاسة أحمد شفيق باشا الوزير سابقا، لإقامة حفلة لتكريم شوقي في يوم 23 شعبان عام 1345هـ الموافق لـ 25 فيفري سنة 1927م، ونشرت نداءً عاما على العالم العربي، تستنهض فيه همم الشعراء والأدباء، للاشتراك بإبداعاتهم في هذا الحفل التكريمي، وما إن حلَّ هذا التاريخ حتى توافد على القاهرة أدباء وشعراء من العراق، وفلسطين، ولبنان، وسوريا، والبحرين، وكان

---

(1) هو أول شاعر عربي فكّر الأدباء في ترشيحه لهذه الجائزة.

اليوم مشهودًا تبارَى فيه الخطباء والشعراء، كلٌّ يريد أن يكون الفارسَ المجلّى في الحلبة، وأن يستقطب القلوب والمشاعر والأحاسيس نحو المبتكر من معانيه، فكان ما جادت به قرائحهم، أنماطًا من القول البديع، والمعنى الرائع، يَظَل عبر التاريخ شهادة ناطقة، ووثيقة صادقة على أن شوقي (كان تعويضا عادلا عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب بعد المتنبي لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر) كما قال منصفوه[1].

• بعض ما قيل في حفل التكريم:

وإذا كان عرض كلِّ ما قيل في حفل تكريم شوقي متعذرا، لكثرته، فلا أقلَّ من عرض القليل منه جريًا على منهاجنا في هذا الكتاب، رغبة في الإيجاز والاختصار ما أمكن!!

قال شاعر النيل حافظ إبراهيم:

بلابِلَ وَادي النيل بالمشرق اسْجَعي
بشعر أميــر (الدولتين) ورَجِّعي[2]
أَعيدي على الأسْماعِ ما غَرَّدَتْ بـه
يَراعَـةُ شَوْقِي في ابتـداءٍ ومَقْطَعٍ[3]

---

(1) كان لشوقي مناوئون يكتبون عنه ما هو قريب من النكير، وأدنى إلى الجرح، وكان ممن أنصفوه صاحب (الرسالة) الأستا أحمد حسن الزيات، ومقاله في مجلة (السياسة الأسبوعية) بعنوان (ما لشوقي وما عليه) شاهد على ذلك!

(2) يريد بالدولتين، النظم والنثر، والترجيع: ترديد الصوت بالغناء.

(3) في ابتداء ومقطع: أي في أول القصيدة وآخرها.

بَـراها لـه البـاري فَلـمْ يَنْـبُ سنُّهـــا
إِذا ما نَبـا العَسَّـالُ في كَـــفٍّ أرْوَعِ[1]

مَواقعُها في الشَّرق والشرقُ مُجْـــدبٌ
مَواقِعُ صَيْبِ الغَيْثِ في كلِّ بَلْقَـــعِ[2]

لَدَيْها وُفُودُ اللَّفظ تَنْسـاقُ خَلْفَهـــا
وُفُودُ المَعانِي خُشَّعًا عِنْدَ خُشَّـــعِ[3]

إذا رَضَيت جاءتْ بأَنفاس رَوْضَـــةٍ
وإِنْ غَضبَتْ جاءتْ بِنَكْباءَ زَعْـــزَعِ[4]

أحَنُّ على المَكْدُودِ منْ ظِلِّ دَوْحَـــةٍ
وأَحْنَى على المَوْلُودِ منْ ثَدْيِ مُرْضِـــعِ[5]

على سنِّها رِفْقٌ يَسيـــلُ ورَحْمَـــةٌ
ورَوْحٌ لمَنْ يَأْسَى وذِكْرَى لِمنْ يَعـــي[6]

---

(1) نبا ينبو: كل وارتد. والعسال: الرمح يهتز لينا. والأروع: الشجاع الشهم.

(2) صيب (بتسكين الياء) أصلها صيب (بتشديدها)، وهو المطر المنهمر المنصب. والبلقع: الأرض القفر لا نبات بها. يقول: إن آثار قلمه تفعل في نفوس الشرقيين الظامئة ما تفعل السحب في الأرض المجدبة.

(3) يقول: إن براعة هذا الشاعر قد ملكت ناصيتي الألفاظ والمعاني لا يستعصى عليها منهما شيء.

(4) النكباء: الريح تنحرف عن مهب الرياح، وتقع بين ريحين. والزعزع: الشديد العصف.

(5) المكدود: من أضناه الكد والمشقة. والدوحة: الشجرة العظيمة المتسعة الظل.

(6) الروح: الراحة والرحمة. ويأسى: يحزن. ويعي: يحفظ.

تَسابَـقُ فوقَ الطِّـــرس أفكـــارُ رَبِّهـــا

سبــاقَ جيــادٍ في مَجــالٍ مُربَّـــعِ(1)

تَطيــرُ بُرُوقُ الفِكــرِ خَلْفَ بُرُوقِهـــا

تُنَاشِدُهـــا باللّه لا تَتَسَــــــــرَّعي(2)

تُحاولُ فَوْتَ الفِكْرِ لَوْ لَمْ تَكُفَّهـــا

أنَامِلُه كَفَّ الجَمُوحِ المُـــــرَوَّعِ(3)

أَلَم تعْلَمُوا أنّا بِذُخْرَيْ نَباغَـــــة

نُفاخِرُ أهْلَ الشَّرْقِ في أيِّ مَجْمَعِ(4)

نُفَاخِرُ مِنْ (شَوْقِيِّنا) بيراعَــــــةً

ونَزْدادُ فَخراً مِنْ (عَلِيٍّ) بِمِبْضَعِ(5)

فَذَاكَ شِفاءُ الجِسْمِ تَدْمَى جِراحـه

وتلكَ شِفاءُ الوالِـــهِ المُتَوجِّـــعِ(6)

نَمَتْك ظِلالٌ وارِفاتٌ وأَنْعُـــــم

ولِيِّنُ عَيْشٍ في مَصيفٍ وَمَرْبَـــعِ(7)

---

(1) تسابق: أي تتسابق. والطرس: الصحيفة يكتب فيها. والمجال: حيث تجول الجياد، أي تجري.

(2) بروق الفكر: أي بروق فكر الشاعر. والضمير في "بروقها" يعود على "اليراعة" المتقدمة. شبه فكر الشاعر ويراعته في سرعتيهما بالبروق، وجعل برق يراعته أسرع من برق فكره.

(3) الجموح: الفرس الذي يركب رأسه لا يثنيه شيء. والمروع: المفزع. يقول: إن يراعته تسبق أفكاره لولا أن أنامله تردها وتكبحها.

(4) بذخرى: متعلق، بقوله: "نفاخر". والنباغة: النبوغ، فعلها من باب كرم.

(5) يريد "بعلى": على إبراهيم باشا الجراح المعروف. والمبضع: المشرط.

(6) ذاك: أي المبضع. وتلك: أي اليراعة.

(7) نمتك: أي تعهدتك بالتربية والنماء. والوارفات: المتسعة الممتدة. والمربع: المكان يقام به في فصل الربيع.

وَمَنْ كان في بَيْتِ المُلُوك ثَواؤهُ
يُنشَّأُ على النُّعْمَى وَيَمْرَحْ وَيَرْتَعِ[1]

لئن عَجِبوا أنْ شَابَ (شَوْقِي) ولمْ يَزَلْ
فَتَى الهَوَى وَالقَلْبِ جَمَّ التَّمَتُّعِ[2]

لقد شَابَ من هَوْلِ القَوافي ووَقْعِها
وإتْيانه بالمُعْجِز المُتَمَنِّعِ

كما شَيَّبَتْ هُودٌ ذُؤابةَ أحْمَد
وشَيَّبَتِ الهَيجاءُ رَأْسَ المُدَرَّعِ[3]

وما شاب رأسي من سنين تتابعت
وما ذَاكَ عَنْ عِيٍّ بـه أو تَرَفُّعِ[4]

وما كانَ عابًا أَن يَجيءَ بمُنشِد
لآياته أَوَ أنْ يَجيءَ بمُسْمِعِ[5]

فهذا (كَليمُ اللَّهِ) قد جاءَ قَبْلَه
(بهارُونَ) ما يَأْمُرْه بِالوَحْيِ يَصْدَعِ[6]

---

(1) الثواء: الإقامة.
(2) فتى الهوى: جديده. يريد أن عواطف قلبه لم يطفئها المشيب.
(3) يشير بالشطر الأول إلى قوله صلى الله وسلم: «شيبتني هود وأخواتها» أي سورة هود، لما فيها من آيات الوعيد. والذؤابة من الشعر: الضفيرة. والهيجاء: الحرب. ويشير بالشطر الثاني إلى قول الشاعر:
يعيبون (شَوْقِي) أن يُرَى غَيْرَ مُنْشِد   عليّ ولكن شيبتني الوقائع
(4) العي: عدم القدرة على الكلام. والترفع: الكِبْر. ويشير إلى أن شوقيا كان في الحفلات لا ينشد قصائده بنفسه كما يفعل غيره من الشعراء، بل كان ينيب عنه في كل مجتمع من ينشد قصائده.
(5) العاب والعيب: كلاهما بمعنى واحد.
(6) كليم اللّه: نبيُّه موسى. وصدع بالأمر: جاهر به مصرحا. ويشير إلى ما ورد في القرآن حكاية عن موسى عليه السلام: «واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي اشدد به أزري» الآيات.

بَلَغْتَ بوَصْفِ النِّيل منْ وَصْفكَ المَدَى
وأيامَ (فِرْعَـــونٍ) ومَعْبـودِهِ (رَعِ)[1]
وما سُقْتَ منْ عَـــادِ البِـلادِ وأهْلِهـا
وما قُلْتَ في أهْرامِ (خُوفُو) و(خَفْرَعِ)[2]
فأَطْلَعْتَهِـا شَوْقِيّــةً لو تَنَسَّقَـــتْ
مَعَ النَّيِّراتِ الزُّهْرِ خُصَّتْ بِمَطْلَــعِ[3]
أ(منْ أيٍّ عَهْدٍ في القُرَى) قد تَفَجَّرتْ
يَنابِيعِ هذا الفِكْرِ أمْ (أخْتُ يُوشَعِ) ؟[4]

ويشير إلى قصيدة لشوقي في توت عنخ آمون، أوّلها:

قفـي يـا أخـــت يوشـــع خبرينـــا
أحــاديث القـــــرون الغــابرينـــا
وفي (تُوتَ) ما أعْيَا ابتكارَ مُوَفَّـــقِ
وفي (ناشئٌ في الوَرْدِ) إلهامُ مُبْـدعِ[5]

---

(1) المدى: الغاية. ويشير بهذا البيت إلى قصيدة لشوقي في النيل وتاريخ من ملكه من الفراعنة بعث بها إلى مرجليوث المستشرق المعروف في سنة 1914م. وأولها:

من أي عهد في القرى تتدفق ۔۔۔ وبأي كف في البرية تغدق

و"رع": اسم للشمس عند قدماء المصريين، وهو من معبوداتهم.

(2) العاد: جمع عادة؛ يريد عادات قدماء المصريين. وخوفو وخفرع: ملكان معروفان من ملوك مصر الفراعنة.

(3) تنسقت: انتظمت. والنيرات الزهر: النجوم.

(4) "من أي عهد في القرى": مطلع القصيدة السابق ذكرها في الحاشية رقم 4 من هذه الصفحة. وأخت يوشع: الشمس؛ وأطلق عليها ذلك لما روى من أنها تأخرت عن المغيب لأجل يوشع.

(5) يشير بقوله: «وفي توت» إلى قصيدة لشوقي في توت عنخ أمون، أولها:

درجت على الكنز القرون ۔۔۔ وأتت على الدن السنون

وبقوله: «ناشئ في الورد» إلى قصيدة له في المنتحرين لرسوبهم في الامتحانات، أولها:

ناشئ في الورد من أيامه ۔۔۔ حسبه الله أبالورد عثر

أَسَالَت (سَلاَ قَلْبِي) شُؤُونِي تَذَكُّــــرا
كما نَثَرَتْ (رِيمٌ على القاعِ) أدْمُعِي[1]
وَ(سَــلْ يَلْــدِزًا) إنِّي رَأيتُ جَمالَهَــا
على الدَّهْرِ قد أَنْسَى جَمالَ (المُقَنَّعِ)[2]
أطَلَّــتْ علينــا (أخــتُ أنْـدلُسٍ) بمـا
أطَلَّتْ فَكَانَتْ للنُّهَى خيرَ مَشْــرَعِ[3]
وفي نَسْجِ (صَــــدّاحٍ) أَتَيْــتَ بآيَــة
من السَّهْلِ لا تَنْقَادُ (لآبنِ المُقَفَّعِ)[4]

---

(1) يشير بقوله: «سلا قلبي» إلى قصيدة لشوقي قالها في استقباله لمصر عند عودته من منفاه بالأندلس، أولها:

سلا قلبي غداة سلا وتابا   لعل على الجمال له عتابا

وبقوله: «ريم القاع» إلى قصيدة له في مدح النبي صلى الله عليه وسلم سماها: نهج البردة، وأولها:

ريم على القاع بين البان والعلم   أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

والشؤون: الدموع.

(2) يشير إلى قصيدة للممدوح في خلع السلطان عبد الحميد سماها: (عبرة الدهر)، أولها:

سل بلدزا ذات القصور   هل جاءها نبأ البدور

ويريد بالمقنع: المقنع الكندي، وهو لقب غلب عليه، لأنه كان أحسن الناس وجها، وأمدّهم قامة، وأكملهم خلقة، فيرون أنه كان إذا سفر اللثام أصابته أعين الناس فيمرض ويلحقه عنت، فكان لا يمشي إلا مقنعا؛ واسمه محمد بن ظفر ابن عمير، وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية، وكان ذا منزلة وشرف بين قومه.

(3) أطلت علينا: أي ظهرت لنا من أعلى. ويشير إلى قصيدة لشوقي في رثاء مدينة أدرنة، وهي من أمهات مدن الدولة العثمانية، وكانت قد سقطت في يد البلغار في الحرب البلقانية، وأول القصيدة:

يا أخت أندلس عليك سلام   هوت الخلافة عنك والإسلام

والمشرع: المورد الذي يستقى منه.

(4) يشير إلى قصيدة لشوقي في تفضيل حجاب المرأة على سفورها، يخاطب بها المرحومة باحثة البادية، أولها:

صداح يا ملك الكنا   رويا أمير البلبل

وابن المقفع: هو عبد اللّه بن المقفّع الكاتب المعروف.

ورائِـع وصْفٍ في (أبي الهَول) سُقْتَـه
كبُستـــان نَوْرٍ قَبْلَ رَعيِــكَ ما رُعِـي[1]
خَرَجْتَ به عن طَـوْقِ كـلِّ مُصَــوِّرٍ
يُجيدُ دَقيقَ الفَنِّ في جَـوْفِ مَصْنَــعِ[2]
وفي (انظُرْ إلى الأقمارِ) زَفرةُ واجِــدٍ
وأَنَّــةُ مَقْــروحِ الفُــؤادِ مُــــوَزَّعِ[3]
بَكَيْتَ على ســرِّ السَّمـــاء وطُهــرِها
وما ابتَذَلُوا مِنْ خِـــدْرِها المُتَــرَفِّعِ
شَياطينُ إنْسٍ تَسْرِقُ السَّمْعَ خُلْسَـــةً
ولا تَحـــذَرُ المَخبـوءَ للمُتَسَمِّــعِ[4]
وسِينِيَّــــةٍ (للبُحْتُــرِيِّ) نَسَخْتَهـا
بسِينيَّةٍ قد أخْرَسَـــت كـــلَّ مُدّعي[5]

---

(1) الرائع: ما أعجب الناس بحسنه. ويشير إلى قصيدة لشوقي في وصف أبي الهول، أولها:
أبا الهول طال عليك العصر وبلغت في الأرض أقصى العمر
والنور (بفتح النون): زهر النبات.
(2) الطوق: الجهد والطاقة.
(3) يشير إلى قصيدة لشوقي في رثاء فتحي ونوري الطيارين العثمانيين، وكانا قد سقطت بهما طائرتهما في أثناء رحلتهما إلى مصر قبل نشوب الحرب العظمى، وأولها:
انظر إلى الأقمار كيف تزول وإلى الوجوه السعد كيف تحول
والواجد: ذو الوجد. والفؤاد الموزع: المفرق مما اختلف عليه من الشجون.
(4) يريد بشياطين الإنس: الطيارين. ويريد «بالمخبوء للمتسمع»: الشهب التي يرجم بها من الشياطين من يسترق السمع من السماء.
(5) يشير بهذا البيت إلى قصيدة لأبي عبادة البحتري على قافية السين في وصف إيوان كسرى، أولها:
صنت نفسي عمّا يدنّس نفسي وترفّعت عن جدا كل جبس
وقصيدة لشوقي يعارضه بها، يذكر فيها بعده عن بلاده في منفاه، ويرثي فيها الأندلس، وأولها:
اختلاف النهار والليل ينسي اذكرا لي الصبا وأيام أنسي

أتَى لك فيها طَائعًــا كـلُّ ما عَـصَى
على كُلِّ جَبَّــار القَريحَـــة أَلْمَعِـي[1]

شَجَا (البُحتُرِي) إيوانُ (كسْرى) وهاجَه
وَهَاجتْ بكَ (الحَمْراءُ) أشْجانَ مُوجَعِ[2]

وَقَفْـــتَ بهـا تَبْكِي الرُّبـوعَ كمـا بَكَى
فيـــا لَكُمَـــا منْ وَاقفَيْـــنِ بأربُـــعِ

فَنَسْجُـــكَ كالدِّيبــاجِ حَــلاّه وَشْيُــه
وفي النَّسيـجِ ما يَأتِي بِثَـوبٍ مُرَقَّـعِ[3]

وشِعْرُكَ ماءُ النَّهـرِ يَجْــرِي مُجَـدَّدا
وشِعْرُ سَوادِ النَّـاسِ مــاءٌ بمَنْقَــعِ [4]

أ(أفْضَى إِلى خَتْمِ الزَّمــانِ ففَضَّــه)
من الوَحيِ والإلْهامِ أمْ قَوْلُ لَوْذَعِي ؟[5]

و(قَلْبي ادَّكرْتَ اليومَ غَيْرَ مُوَفَّــقٍ)
رُقَى السِّحْرِ أمْ أنَّاتُ أسْوانَ مُولَـعِ ؟[6]

---

(1) الألمعى (بتشديد الياء وخففت للشعر): الذكي المتوقد.

(2) البحتري: هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الله الطائي، الشاعر المعروف. والحمراء: قصر بغرناطة بالأندلس، بنى في عهد دولة بني الأحمر، ولا تزال آثاره ماثلة حتى اليوم.

(3) الوشي: النقش. وشبه في الشطر الثاني الشعر الذي لا تستوفى أجزاؤه في الحسن وضده بالثوب المرقع.

(4) سواد الناس: عامتهم. والمنقع: الموضع يستنقع فيه الماء.

(5) يشير إلى قول شوقي في رثاء (اللورد) كارنارفون الذي كشف عن قبر توت عنخ أمون:
أفضى إلى ختم الزمان ففضه وحبا إلى التاريخ في محرابه.
واللوذعي: الذكي الذهن.

(6) الأسوان: الحزين. والرقى: جمع رقية، وهي العوذة يتعوّذ بها من العلل والآفات.

تَمَلَّكت منْ مُلْك القَريضِ فَسيحَــه

فَلَمْ تُبقِ يا (شَوْقِي) لَنَا قَيدَ إِصبَــعِ

فباللّهِ دَعْ للنّاثِــرين وَسيلــــــــةً

تُفيءُ عليهــمْ واتّــق اللَّهَ واقْنَــعِ[1]

عَملْتَ على نَيْــلِ الخُلــود فَنلْتَــه

فقُلْ في مَقامِ الشُّكــرِ يا رَبِّ أوْزِعِ[2]

جَلاَ شِعْرُه للنّاسِ مِـــرآةَ عَصْــره

ومرآةَ عَهْدِ الشِّعرِ منْ عَهْدِ (تُبَّع)[3]

يَجــيءُ لنـا آنًا (بأحْمَــد) ماثــلاً

وآونَةً (بالبُحْتُــرِيّ) المُرَصِّـــعِ[4]

ويَشْئوا رُقَى (هُوجُو) ويَأتِي نَسيبُه

لَنا منْ ليالي (أَلْفَريدَ) بأَرْبَـعِ[5]

---

(1) تفيء عليهم: أي تعود عليهم بالخير والرزق.

(2) أوزعه اللّه الشكر: ألهمه إياه. ويشير إلى قوله تعالى في حكاية سليمان بن داود عليهما السلام في سورة النمل: «فتبسّم ضاحكًا من قولها وقال ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك» الآية.

(3) تبع: لقب لملوك حمير. ويريد بهذا البيت أن شعر الممدوح قد صوّر القديم والجديد.

(4) يريد «بأحمد» أبا الطيب أحمد بن الحسين المتنبي الكوفي الكندي الشاعر المعروف.

(5) يشئوا، يسبق. رقى هوجو، أي أشعاره التي تشبه رقى السحر. وفكتور هوجو، هو شاعر فرنسا المعروف. والنسيب: التشبيب بالنساء وذكر محاسنهن في الشعر. وألفريد: هو ألفريد ديموسيه من كبار شعراء فرنسا، ولد بباريس سنة 1810م، وتوفي بها سنة 1857م ، وكان ممتازا في شعره بالرقة ولطف الصياغة، وهو صاحب الليالي الأربع المشار إليها في هذا البيت في الحب والشك والسلوان، وهي ليلة من (آيار) وليلة من (كانون أول)، وليلة من (آب) وليلة من (تشرين أول). وفي كل ليلة من هذه الليالي الأربع يشرح حالا من أحواله المتعلقة بالحب؛ وهذه الليالي هي التي رفعته إلى الطبقة الأولى بين شعراء فرنسا.

وإِن خَطَرتْ ذكْـرَى الفُحُــول بفــارِسٍ
وما خَلَّفُوا في القَوْلِ منْ كلِّ مُشْبِــعِ[1]
أتانـا بِــرَوْضٍ مُزْدَهِــرٍ من رِياضِهِــمْ
و(حافظُهُــمْ) فيـه يُغَنِّــي ويَرْتَعِــي[2]
فقُــلْ للّذي يَبْــغِي مَــداهُ مُنافسًــا
طَمعْتَ لَعَمْرُ اللّه في غَيْـرِ مَطْمَــعِ[3]
فَذَلَك سَيْــفٌ سَلَّــهُ اللَّهُ قَاطِــعٌ
فَأَيَّــانَ يَضْــرِبْ يَفْـرِ دِرْعًا وَيَقطَـعِ[4]
و هَلْ تَدْفَــعُ الدِّرْعُ المَنيعَــةُ صَارِمًــا
به يَضْرِبُ المقدارُ في كَـفِّ سَلْفَعِ[5]
نُفيتَ فَلَمْ تَجْزَعْ وَلَــمْ تَــكُ ضَارِعًــا
وَمَنْ تَرْمِه الأيّــامُ يَجْــزَعْ وَيَضْــرَعِ[6]
وأخْصَبتَ في المَنْفَى وما كُنْتَ مُجْدبًا
وفي النَّفْيِ خِصْبُ العَبْقَرِيِّ السَّمَيْذَعِ[7]

---

(1) بفارس: يريد أمة الفرس، وقد عرف شعراؤها بالإبداع في المعاني، وفي هذا يقول حافظ من قصيدة له في مدح البارودي: ومر كل معنى فارسي بطاعتي وكل نفور منه أن يتودّدا

(2) يريد «بحافظ»: شمس الدين محمد الشيرازي الشاعر الغنائي المعروف، ولد بشيراز في مستهل القرن الهجري، وتوفي سنة 793هـ. يقول في هذا البيت والذي قبله: إنه إذا ذكر الفحول من شعراء الفرس وما أبدعوا فيه من المعاني وأجادوا، نمق شوقي من رياض أشعاره ما يحكي رياض أشعارهم حتى إن شاعرهم الكبير حافظا الشيرازي ليتغنى ويرتعي في رياض ذلك الشاعر العربي (شوقي).

(3) المدى: الغاية.

(4) يفري: يشق.

(5) المقدار: القدر. والسلفع: الجريء الشجاع.

(6) يضرع: يذل.

(7) يريد بقوله: «أخصبت في المنفى»: أن شعره جاد وحسن في النفي، وما كان مجدبا من قبل. والسميذع: السيد الكريم.

لقد زادَ (هُوجُو) فيـه خِصْبَ قَريحـةٍ
وآبَ إلى أوطانـه جِـدَّ مُمْـرِعِ[1]

وأدْرَكَ (سامـي) بالجزيـرة غايـةً
إليها مُلـوكُ القَـول لَـم تَتطلَّـعِ[2]

تذكَّرتَ عَذْبَ النيلِ والنَّفـسُ صَبَّـةٌ
إلى نَهْلةٍ من كُوب مـاءٍ مُشَعْشَـعِ[3]

وأرْسَلَت تَستَسْقي بَني مِصْرَ شَـربَةً
فَقَطَّعْتَ أحْشَائي وأضْرَمْتَ أضْلُعي[4]

أنَروَى ولا تَـرْوَى وأنْـتَ أحقُّنـا
بِرَيٍّ فيا قَلْـبَ النُّبُـوغِ تَقطَّـعِ

وإن شِئْـتِ عنّا يـا سَمـاءُ فَأَقْلِـعي
ويَا ماءَها فاكفُفْ ويا أرضُ فابلَعي[5]

حَـرامٌ علينـا أنْ نَلَـذَّ بنهلـةٍ
وأنتَ تُنادينا ونَحـنُ بمَسمَـعِ

---

(1) «فيه» أي في المنفى. والممرع: المخصب، شبه شوقيا (بهوجو) كلاهما زاده النفي خصبا في قريحته ونضجا في شاعريته.

(2) ملوك القول: فحول الشعراء. ويشير إلى نفي المرحوم محمود باشا سامي البارودي إلى جزيرة سيلان عقب الثورة العرابية، وما قاله في أثناء النفي من الشعر.

(3) النهلة: السقية. والمشعشع: الممزوج. يشير بهذا البيت وما بعده إلى الأبيات التي بعث بها شوقي وهو في منفاه إلى حافظ، وهي:

يا ساكني مصر إنا لا نزال على   عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا (الأبيات)

(4) أضرمت: ألهبت.

(5) أقلعت السماء: كفت عن المطر. ويشير إلى قوله تعالى في سورة هود: «وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي».

أبَــى اللَّهُ إلاّ أنْ يَــــرُدَّكَ سالمًــا
وَمَنْ يَرْعَهُ يَسْلَمْ وَيَغْنَــمْ وَيَرْجِــعِ
وعُدْتَ فَقَرَّتْ عَيْنُ مصرٍ وأصبَحَتْ
رياضُ القَوافي في رَبيعٍ مُوَشَّـــعِ(1)
وأدْرَكْتَ ما تَبْغِــي وَشَيَّــدْتَ آيــةً
على الشَّاطئ الغَربِيِّ في خير مَوْقِعِ(2)
يَحُــفُّ بهــا رَوْضٌ يُحَيي بُدُورَهـا
بُكورًا بِرَيًّا عَرْفُــه المُتَضَــوِّعِ(3)
حَمًى يَتهادَى النِّيلُ تَحتَ ظلالـه
تَهادَى خَــوْدٍ في رداءٍ مُجَــزَّعِ(4)
لقد كنتَ تَرْجُو منه بالأمسِ قَطْرةً
فدُونَكَهُ فابْرُدْ غَليلَكَ وانْقَــعِ(5)
أميرَ القَوافي قد أتَيْتُ مُبَايِعًــــا
وَهذي وُفُودُ الشَّرقِ قد بَايَعتْ مَعِي
فَغَنِّ رُبوعَ النِّيلِ وَاعْطِفْ بِنَظْـــرَةٍ
على سَاكني النَّهرينِ واصْدَحْ وَأبْدِعِ(6)

---

(1) الربيع الموضع الموشى بألوان الزهر والنبات
(2) يشير إلى قصر شوقي الذي بناه على الشاطئ الغربي للنيل بالجيزة.
(3) الريا والعرف: الرائحة الطيّبة. وبكورا: أي في بكرة الصباح. والمتضوع: المنتشر الرائحة.
(4) يتهادى: يمشي في لين وخفة. والخود: الشابة الحسنة. والمجزع: المختلف الألوان.
(5) نقع ظمأه بالماء: أرواه.
(6) يريد بساكني النهرين: أهل العراق. والنهران: دجلة والفرات. وأصدح: أي غن بالشعر.

ولا تَنْسَ (نَجداً) إنّها مَنْبتُ الهَـــوَى
وَمرعَى المَهَا من سَارحاتٍ ورُتَّـــعِ[1]

وحَيِّ ذُرَا (لُبْنانَ) واجعــلِ (لِتُونُــسٍ)
نَصيبًـــا من السَّلوَى وَقِسْـــمْ وَوَزِّعِ

ففي الشِّعرِ حَثٌّ الطامحينَ إلى العُلاَ
وفي الشِّعرِ زُهْدُ النَّاسـك المُـــوَرِّعِ

وفي الشِّعرِ مَا يُغْني عن السَّيفِ وَقْعُه
كما رَوَّعَ الأعداءَ بَيْتٌ (لأَشْجَـعِ) [2]

وفي الشِّعرِ إحْيَـاءُ النُّفـوسِ وريُّـها
وأنتَ لريِّ النَّفسِ أعْـذَبُ مَنْبَـــعِ

فَنَبِّهْ عُقُــولاً طَــال عَهْـدُ رُقَـادهـا
وأفئـدةً شُـدّتْ إليهـا بأنْسُـــــعِ[3]

فقــد غَمَــرَتْها محْنَةٌ فوقَ محْنَـــة
وأنتَ لها يا شاعرَ الشَّــرقِ فادْفَـعِ

وأنــتَ بحمْـدِ اللّه مازِلْـتَ قَـــادرًا
على النَّفعِ فاستَنْهضْ بَيانَكَ وانْفَـعِ

(1) المها: بقر الوحش، الواحدة مهاة؛ يريد النساء اللاتي يشبهنها في سعة العيون وجمالها: ويطلب إلى الشاعر أن يغني نجدا بشعره، كما يغني أهل مصر.

(2) يشير إلى بيت لأشجع بن عمرو السلمي الشاعر العباسي المعروف من قصيدة يمدح بها الرشيد:

وعلى عدوك يا بن عم محمد ... وصدان ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبه رعتــه وإذا غفـــا ... سلت عليـه سيوفك الأحـلام

والمقصود هنا البيت الثاني.

(3) الأنسع: جمع نسع (بكسر النون) وهو سير من جلد تشد به الرحال. يريد وصف الأفئدة بالتقيد والأمر في أغلال العادات القديمة.

خُذْ بِزِمــامِ القَــوم وانــزِعْ بأهْلِــــه
إلى المَجدِ والعَليــاءِ أكــرَمَ مَنْــزَعِ[1]
وقفْنَا على النَّهــجِ القَويــم فإنّنــا
سَلَكْنَا طَريقًا للهُــدَى غيــرَ مَهْيَــعِ[2]
مَلأنَا طبــاقَ الأرض وَجْــداً ولَوْعــةً
بِهنْــدٍ ودَعْــدٍ والرَّبــاب وَبَـــوْزَعِ
وَملَّـــتْ بَنــاتُ الشِّعــر منّــا مَواقفًــا
بِقسطِ اللَّوى (وَالرَّقْمَتَيْنِ) (ولَعْلَعِ)[3]
وأقْوامُنــا في الشَّرقِ قَد طَال نَوْمُهُــم
وما كانَ نَــوْمُ الشِّعــرِ بالمُتَوقَّـــعِ
تَغَيَّــرَت الدُّنْيــا وقــد كــانَ أهْلُهــا
يَرَوْنَ مُتُونَ العيــس ألْيَــن مَضْجَــعِ[4]
وكان بَريـــدُ العلْــمِ عيــراً وأيْنُقًــا
مَتَى يُعيها الإيجافُ في البِيد تَظْلَعِ[5]

(1) وانزع بأهله: أي قد أهل الشرق وسر بهم.
(2) قفا على النهج القويم: أي أرشدنا إلى الطريق المستقيم في أغراض الشعر. والمهيع: الطريق الواضح البيّن.
(3) بنات الشعر: أي معانيه وأغراضه. و«سقط اللوى» إلخ: أسماء مواضع في بلاد العرب وردت في شعر القدماء.
(4) متون العيس: ظهور الإبل.
(5) العير: القافلة. والإيجاف: الإسراع. والبيد: جمع بيداء. وتظلع: تعرج في مشيتها. يقول: كانت وسائل العلم فيما مضى السفر على ظهور الإبل التي تسعف راكبها.

فأصْبَــحَ لا يَرْضَى البُخـــارَ مَطيَّـــةً

ولا السِّلْكَ في تَيّـــاره المُتَــــدفِّـعِ

وقد كانَ كـلَّ الأمْــرِ تَصويــبُ نَبْلَـةٍ

فأصبَحَ بَعْضَ الأمْرِ تَصْويـبُ مَدْفَـــعِ

ونحنُ كما غَنَّـــى الأوائِـلُ لم نَــزَلْ

نُغَنِّــي بأرْمـــاحِ وبيــــضٍ وأدْرُعِ[1]

عَرَفنا مَدَى الشيء القَديم فَهَلْ مَدًى

لشيء جَديدٍ حاضرِ النَّفعِ مُمْتِـعِ

لَدَى كلِّ شَعْبٍ في الحَوادث عُــدَّةٌ

وعُدَّتُنا نَدْبُ التُّراث المُضَيَّـــعِ[2]

فيا ضَيْعَةَ الأقْــلامِ إنْ لم نُقـمْ بهـا

دعامةَ رُكْنِ المَشرِقِ المُتَزَعْـزِعِ[3]

أتَمْشي به شُـــمَّ الأُنــوف عُداتُـــه

ورَبُّ الحمَى يَمْشي بأنفٍ مُجَدَّعِ[4]

---

(1) يريد بالبيض: السيوف.

(2) ندب التراث المضيع: أي البكاء على ما خلفته العرب والأقدمون من مآثر ومفاخر.

(3) الدعامة: عماد البيت. والمتزعزع: المضطرب.

(4) شم الأنوف: وصف يقال للسادة الأعزاء. والمجدّع: المقطوع. ويقال ذلك للذليل. يقول: أعداء الشرق والطامعون فيه قد عزوا به وسادوا، وأهله ذلوا به واستكانوا. ويشير بذلك إلى ما جنته الامتيازات على الشرق.

عَزيزٌ عليه يا بَنِي الشَّرْق أنْ تُرَى
كَواكِبُــه في أفْقِــه غيــرَ طُلَّــعِ
وأعْلامُـــه مـنْ فَوْقِــه غيـرَ خُفَّــقٍ
وأقلامُـه مـنْ تَحتهـا غيـر شُــرعِ [1]
وكيف يُوَقَّى الشَّرّ أو يَبْلُغُ المُنَــى
على ما نَرَى منْ شَمْلِه المُتَصـدِّعِ؟
فإنْ كنــتَ قَوّالاً كَريمًـــا مَقالُـــه
فقُلْ في سَبيلِ النِّيلِ والشَّرْق أوْدَعِ[2]

وقال الشاعر المسيحي اللبناني شبلي بك ملاط:

من للزمان بمثل فضل محمــــدٍ	وعــدالةٍ كعــدالة الخطـــــــاب
رفع الرسولُ عمادَ أمةِ يعــــرُبٍ	وأعــزّها بالآل والأصحــــــاب
غشت الفتوحُ وصفّقت راياتهــا	في الشرْق فَوق أباطح وهضاب
وتغلغلت في الغرب طائرةً على	أكتاف صقر جـــارح وعقـــاب
لولا تجلد (شارل مارتل) خيمت	في قلبه بســرادق وقبـــاب[3]
ولكان حارب الغرب أندلسًا بـه	شوقي يقــول سواحـر وسوابي

*　　*　　*

(1) الشرع: المسدّدة المصوبة إلى الغرض.
(2) عن ديوان حافظ إبراهيم.
(3) يُشير إلى الملحمة الكبرى بين العرب والإفرنج في معركة (بوْاتي) بفرنسا، وقد أراد الله أن يقطع (شارل مارتل) على العرب خط تبسّطهم بالفتح الإسلامي في أوروبا، بما أبداه من تجلد وصبر، ويعد بعض المنصفين من الإفرنج انكسار العرب يومئذ نكبة على الحضارة، ولو انتصروا لجاءت الحضارة الحالية بمائتي سنة قبل أوانها وكانت بأسلوب أفضل وأسعد!

حي الجزيرة في مسارحها وما | في الريف من ربّى ومن إخصاب
واسمع فديتك قصةً مصريـــةً | عربيـــةً في منطـــق خَـــلاّب
واستنجد القرآن قوما جـــوّدوا | منـه بآيٍ في النفــوس عـذاب
واقرأْ به فصحى اللغات مُدِلـــة | في المشرقيـن بجوهر الأحساب
أخذت قريش بحزْلها وبكت بها | غرناطـــة في رقـــةٍ وعِتـــاب
لولا يدُ الإسلام لم تَسلم بمـــا | فيهـــا من الأخـــلاق والآداب
ولو ارعوى من صدَّ عنها زاهدا | متغلغلا بعناكـب الأسْبــــاب
لأريتَه عند العليـــاء خطـــاءه | وأريتَـــه عنـد البيـان حَوابـي
من لم يصن لغةَ الجدود فليس من | قومـــه تنمية في الأنســـاب

- **قصيدة المحتفل به:**

وبعد أن بويع شوقي من مختلف الأدباء والشعراء بالإمارة، ألقى قصيدة رائعة -كعادته- استهلها بقوله:

مرحبًا بالرّبيـــع في رَيْعانــــه | وبِأَنْوَارِه وطِيـــب زمانـــــه
رفَّت الأرض في مواكـــب آذَا | رَ وشـــبّ الزّمـــان في مهرجانـه

وبعد أن أبدع في وصف الربيع وجماله، وحلّق بخياله الواسع في فضاءات الطبيعة الساحرة وما حباها الله به من روائع الحسن وآيات الجمال قال:

ظللتني عنايـة مـن (فـــؤاد) | ظلَّـل اللّه عرشَـه بأَمانـــــه[1]
ورعاني رعَى الإلهُ له الفـــارو | قَ طفـلا ويـــوم مَرْجوّ شأنـــه

---

(1) أقيم المهرجان التكريمي برعاية الملك فؤاد الأول.

ملك النيـل من مصبّيْه بالشّـــط إلى مَنْبَعيـــهِ من سـودانـــه
هو في المُلك بـدرُه المُتَجلّى حُفّ بالهالتيـن من (بَرْلمانـه)
زاده الله بالنيابـــة عِـــــزّا فـوق عِزّ الجـلال من سُلطانـه

* * *

منبـرُ الحق في أمانة (سعـد) وقـــوام الأمـــور في ميزانـــه
لم يرَ الشرقُ داعيا مثلَ سعد رجَّه من بطـاحه ورعانـــــه[1]
ذكرته عقيـدة النـــاس فيـــه كيف كان الدخول في أديانـه[2]
نهضةٌ من فتى الشيوخِ وروح سَرَيَا كالشبـــاب في عنفوانـه
حرّكـا الشرقَ من سكـــونٍ إلى القيـــد وثـــارا به على أرســانـه
وإذا النَّفسُ أنهضتْ من مريض درجَ البـــرءُ في قـوى جُثمانـه

ثم تخلّص إلى مهرجان التكريم، وعكاظ المبايعة بالإمارة الشعرية وقال:

يا عُكاظًا تألّف الشـرقُ فيـه من فِلسطينـهِ إلى بغْـــدانـه
افتقدْنـا الحجـــازَ فيـــه فلـم نعثُـــرْ على قسِّهِ ولا سَحبانِـه
حملتْ مصرُ دونه هيكلَ الد يـنِ وروحَ البيـان من فرقانـه
وُطِّدت فيـك من دعائمهـا الفُصْحَى وشُـدَّ البيانِ من أركانِـه
إنما أنت حَلبةٌ لم يُسخَّـــرْ مثلُـها للكـلامِ يوم رِهانِـــه
تتبـارى أصائلُ الشـام فيهـا والمـذاكي العتـاقُ من لُبنانـه
قلدتني الملوك من لؤلؤ البحريـ ـن آلاءها ومـن مَرجانـــه

(1) الرعان: رؤوس الجبال.
(2) الضمير في قوله (ذكرته) يعود على الشرق.

نخلة لا تزال في الشرق معنى   من بداواتــه ومــن عمرانـــه
حــنَّ للشــام حِقبــةً وإليْهـــا   فاتــحُ الغـرب من بني مروانـه
وحبتْني بُمْباي فيها يراعًــا   أفــرغَ الوُدُّ فيه من عقيانـه
ليس تلقى يراعَها الهنـد إلا   في ذَرَا الخُلْقِ أو وراءَ ضمانـه
أنتضيه انتضاءَ موسى عصاه   يفرَقُ المستبـدُّ من ثعبانـه
يلتقي الوحيَ من عقيدةِ حُـرٍّ   كالحـواريِّ في مدَى إيمانـه
غيرَ بــاغٍ إذا تطلَّبَ حقـا   أو لئيـمِ اللَّجـاجِ في عُدوانِـه
موكبُ الشعر حرّكَ المتنبي   في ثَــراهُ وهــزَّ من حسَّانـه
شُرِّفَتْ مصر بالشموسِ من الشرق   نُجــوم البيـانِ من أعيانـه
قد عَرَفنـا بنجمهِ كلَّ أُفْـقٍ   واستبنَّا الكتـابَ من عنوانـه
لست أنسى يدًا لإخوان صدقٍ   منحـوني جزاءَ ما لم أُعانِـه
رُبَّ سامي البيانِ نبَّهَ شأنـي   أنا أسمـو إلى نباهة شأنـه
كان بالسبقِ والميادينِ أولى   لو جرى الحظُّ في سَواء عنانه
إنما أظهـروا يدَ اللّه عنـدي   وأذاعـوا الجميـلَ من إحسانه
ما الرحيق الذي يذوقون من كرْ   مِي وإن عشت طائفًا بدنانـه
وهَبوني الحَمَـامَ لذَّة سجـعٍ   أينَ فضلُ الحَمام في تحنانه؟
وتـرٌ في اللَّهـاة[1] ما للمغنِّـي   من يـدٍ في صفائـه ولِيانـه

* * *

(1) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى الفم.

رُبَّ جار تَلَفَّتت مصرُ توليـــ   ـه سؤالَ الكريـم عن جيرانه
بَعَثْتَنـي معـزِّيًا بمآقـــي   وطنـي أو [illegible]ـا بلسانـــه
كان شعري الغناءَ في فرح الشر   قِ وكـان العَـزاءَ في أحْزانـه
قد قضى اللّه أن يؤلِّفنا الجـر   حُ وأن نلتَقيَ على أشجانـه
كلما أنّ بالعـراقِ جريـحٌ   لمس الشرقُ جَنْبه في عمانـه
وعلينا كما عليكـم حديـدٌ   تتنَزّى الليـوث في قضبانـه
نحن في الفقه بالديار سَـواءٌ   كلُّنا مشفِـقٌ على أوطانـه

- **لمحات من حياته:**

ولد أحمد شوقي بن أحمد شوقي سنة 1868م بالقاهرة ونشأ بها، وهو من أسرة ذات جاهٍ امتزجت فيها الدماء العربية والتركية، والكردية واليونانية[1].

تحدث عن نفسه في مقدمة الطبعة الأولى لديوانه (الشوقيات) قال: «سمعت أبي يردّ أصلنا إلى الأكراد فالعرب، ويقول إن والده قدم هذه الديار يافعًا يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إليّ وإلى مصر محمد علي باشا... فأدخله الوالي في معيته، ثم تداولت الأيام، وتعاقب الولاة الفخام، وهو يتقلد المراتب العالية ويتقلب في المناصب السامية إلى أن أقامه سعيد باشا أمينا للجمارك المصرية[2]. ثم ذكر طرفا عن سيرة جده لوالدته إلى أن قال عن نفسه: «أنا إذن عربي، تركي، يوناني، جركسي».

---

(1) تاريخ الأدب العربي للزيات.

(2) المفصل في تاريخ الأدب العربي لأحمد أمين وعلي الجارمي وغيرهما ج2 ص 280.

ولما بلغ الرابعة من عمره أُدخِل مكتب الشيخ صالح، وتفوق في التعليمين: الابتدائي والثانوي بعد ذلك، ثم دخل مدرسة الحقوق، وأرسله الخديوي توفيق في بعثة علمية إلى فرنسا، فدرس الأدب الفرنسي مع الحقوق، وعمل بعد عودته في (القلم الإفرنجي) بالديوان الخديوي، وتوثقت صلته بالقصر في عهد الخديوي عباس الثاني، فصار (شاعر الأمير) المعبر عن سياسته فأفقده لك ثقة الوطنيين، وحين خلع الإنجليز عباس الثاني، وولوا السلطان حسين كامل مكانه، قابل شوقي هذه الخطوة بالسخط والألم وعبر عن ذلك في شعره، فأبعد إلى برشلونة في إسبانيا، فظلّ هناك طوال الحرب العالمية الأولى، وكان بعد عودته إلى مصر أقربَ إلى الشعور بقضايا الشعب ومشكلاته حتى أصبح يعد نفسه شاعر الشعب والعروبة والإسلام بعد أن كان شاعر الأمير والخليفة[1]

ولم يزل شوقي مهبط الوحي والإلهام، وموضع الإكبار والإكرام، حتى انتقل إلى جوار الله سنة 1932 فأقامت له وزارة المعارف وطائفة من أعيان الفضل والأدب حفلة تأبين بدار الأوبرا الملكية حضرها أقطاب العلم والأدب في الأقطار العربية، رحمه الله.

---

(1) الموسوعة العربية الميسرة ص 1101.

■ تكريم الأستاذ الفضيل الورتلاني

• تمهيد

قلتُ في مقدمتي للطبعة الثانية لكتاب الأستاذ المفكر الشيخ الفضيل الورتلاني:

(إن هذا العبقريّ المصلح لم ينل من أهل الفكر والعلم حظَّه من العناية والتقدير وتَوارَى عنا منذ أكثر من ثلاثين سنة، فلم نَر عنه إلا كلمات قليلة من الأوفياء نُشرت أو أُلقيت بمناسبات لا تعدو أن تكون لُمَعا تسطع في جَهَامِ النسيان، تنبه وتذكّر، وتوحي وترسُم، وتنعش عواثِر المُنى، وكان من حق الأستاذ الفضيل على رجال الفكر والقلم في الجزائر وفي غيرها من البلاد العربية والإسلامية، أن يُوفوا له، ويقفوا على حياته وِقْفةَ الذاكر بالجميل، المَدين بالفضل، المفتون بالعبقرية، المُعجب بالوفاء والتضحية، فيُفرِغوا في سمْع الزمان آياتِ الإعجاب والتقدير، وأناشيدَ الحب والوفاء، وذلك قليل فيمن فهِم الحياة فكرًا وجهادًا، وحيويةً ونشاطًا، وإيقاظًا للنائمين، وتحريكًا للخامدين، ومنافسةً في ميدان الخير والإصلاح).

إن إيمانَنا بغبْن هذا الرجل -مع ما كُتِب عنه أو قِيل- ووجوبِ إنصافه، هو الذي جعلنا نُدرجه ضمن هؤلاء الأعلام المكرَّمين، بالرغم من أنّنا لا نملك عن تكريمه بالقاهرة إلاّ معلومات قليلةً لا تَفي بالحاجة، ولا تضعُه في مستواه رغم إلحافنا في البحث عنه، واستقصائنا لمظان ذلك، في الجزائر وخارجها، ولكننا رأينا أن إدراجه ضمن هؤلاء الأعلام -مع قلّة المعلومات- خير من إهماله، وصدور هذا الكتاب خاليا من اسمه العريض البارز، لا سيما وهو من الذين أعدَّهم القدر ليفجروا الحياة في

أممهم، ويدفعوها إلى الأمام، ويرفعوها إلى الفوق، ومن أجل هذا كله، نقدمه حسب الجُهد المفروض، والعهدةُ في ذلك على الظروف القاهرة (وبعضِ الناس الذين يعِدُون ولا يُوفون، ويبرقون ولا يمطرون).

• لجنة الاحتفال

أصدرت لجنة تكريم الأستاذ الفضيل الورتلاني نشرة بمناسبة تكريمه، أهدتها إليه، جاء فيها:

وأخيرا، وبعد خمس سنين قضاها الأستاذ المجاهد الإسلامي السيد الفضيل الورتلاني مشرّدًا مطاردا من حكومات الاستبداد نراهُ يعود إلى مصر، كما يعود الحق إلى نصابه، والسيف إلى قِرابه، وقد تألفت في القاهرة لجنة من المجاهدين الإسلاميين والعرب، للاحتفال بتكريمه، والحفاوة به، وكانت هيئة الاحتفال مؤلفة من حضرات السادة:

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء بالجزائر.

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز وكيل الجامع الأزهر

الأستاذ محمد بدرة وزير الشؤون الاجتماعية بتونس

الأستاذ محمد محمود الزبيري وزير معارف اليمن سابقا

الأستاذ محمد الحسن الوزاني رئيس حزب الشورى بمراكش

الأستاذ إبراهيم شكري عضو مجلس النواب السابق

الأستاذ محمد العربي أبو جَمَالَيْن ممثل حزب البيان الجزائري

الأستاذ عبد المجيد بن جلون مندوب حزب الاستقلال المراكشي

الأستاذ صالح عشماوي، مجلة الدعوة

الأستاذ علي البهلوان مندوب الحزب الدستوري التونسي

الأستاذ محمد خيضر مندوب حزب الشعب الجزائري.

وكان يشرف على الاحتفال الأستاذ محمد علي الطاهر، رئيس اللجنة الفلسطينية بالقاهرة.

- **الدعوة إلى الاحتفال:**

وجهت لجنة الاحتفال الدعوة إلى عدد كبير من فضلاء وعظماء مصر والشرق، ونزلاء القاهرة من أبناء العروبة والعالم الإسلامي، وهي هذه:

(بمناسبة عودة المجاهد العربي السيّد الفضيل الورتلاني إلى الديار المصرية من المنفى، ومن رحلاته وجهاده السياسي في البلاد الإسلامية، تتشرف لجنة الاحتفال بتكريمه، بدعوة حضرتكم إلى تناول الشاي بفندق "سميراميس" في الساعة الخامسة بعد ظهر الجمعة 28 نوفمبر سنة 1952م.

- **حفل التكريم:**

وما كاد موعد الاحتفال يحل حتى امتلأت القاعة الكبرى لفندق "سميراميس" بالشخصيات المتميزة من وزراء وسفراء، وساسة، وعلماء، وأدباء، وشعراء، ورجال الصحافة والعلم من مختلف الطبقات، وكان عدد الذين تبوَّأوا مقاعدهم على موائد الشاي ثلاثمائة غير الذين وقفوا على أقدامهم لكثرة الزحام.

- **في ميدان الخطابة::**

ثم أخذ الخطباء ينثرون دررهم، ويتنافسون في البيان العربي، ويتفننون في تصوير الشخصية المكرّمة. وتجسيم معالمها التاريخية والإصلاحية والجهادية، فتوالى على المنصة العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فألقى خطابًا بديعًا استعرض فيه سيرة صديقه وتلميذه، وتعمّق في تصوير جهادِه

وتضحياته وشخصيته، ثم الزعيم التونسي الأستاذ محيي الدين القليبي فألقى خطابًا ضافيا عن جهاد المحتفى به، ثم الأستاذ إبراهيم شكري العضو في مجلس النواب السابق فقدَّم كلمة قيّمة باسمه وباسم الحزب الاشتراكي، ثم الشاعر الكبير الأستاذ علي أحمد باكثير، وألقى قصيدة عصماء يصف فيها جهاد صديقه الورثلاني، ومتاعبه المضنية مع المستعمرين، ثم شاعر آل البيت الأستاذ محمود جبر، وألقى قصيدة بليغة في جهاد الفضيل وشخصيته الوطنية القوية، ثم الأستاذ عشماوي صاحب مجلة الدعوة ومن أركان جمعية الإخوان المسلمين، وألقى خطابا فياضا استعرض فيه صورًا من جهاد الورتلاني وطائفة من مواهبه وخصائصه المميزة، وهكذا تعاقب الخطباء والشعراء على المنصة، شدُّوا العقول والمشاعر إليهم ساعات، كل يحاول أن يكون الفارسَ المجلَّى في الميدان، ونمطًا خاصًا، ونسقًا متميزًا في أسلوبه وبَلاَغته وفصاحته، وفي استجلاء جوانب الأستاذ المحتفى به، وفي الختام قام الأستاذ الفضيل، وألقى خطابا تاريخيا فياضا، جامعا لكل ما يناسب المقام من شكرٍ وتقديرٍ للمحتفلين والحاضرين، وأساتذةٍ بهذا التقليد الجميل الذي يعترف للعاملين بالجميل، وبحفز الهمم إلى ترسُّم خطاهم!

• لمحات من حياته:

ولد الأستاذ الفضيل الورثلاني بقرية (أنو) بلدية بني ورتلان ولاية سطيف في 18 يناير سنة 1900م ونشأ وترعرع في مسقط رأسه، وفيه حفظ القرآن الكريم وزاولَ دراسته الابتدائية، وأخذ مبادئ العلوم على شيوخ القرية أمثال الفقيه الشيخ السعيد البهلولي.

وفي سنة 1928 انتقل إلى مدينة قسنطينة للدراسة على الإمام المصلح الشيخ عبد الحميد بن باديس، وما إن تخرج حتى تولى التدريس بالجمعية الخيرية التي كانت نواة التربية والتعليم، وقد أفاد بعلمه وتربيته عددًا هائلاً من طلبة العلم مما كان له وقعه الحسن في نفس أستاذه، وجعله مثار إعجابه رضاه!

وفي سنة 1936م انتدبته جمعية العلماء للقيام بنشر مبادئها بفرنسا قصد توعية العمال الجزائريين بأروبا، وهكذا ظلَّ في باريس قلْبًا نبّاضا بالحيوية والنشاط، وسِراجًا منيرًا يضيء الدرب وجوانب الحياة!

وفي أواخر سنة 1940م أقلقته السلطات الاستعمارية الفرنسية وتبيّن أن بقاءه بباريس لن ينتهي إلا بالسجن أو النفي على الأقل، فغادر باريس إلى مصر والتحق بالأزهر الشريف، لإتمام دراسته العالية، فكان فيه مثار الإعجاب والتقدير بجده ووطنيته وسلوكه، حتى نال شهادة العالمية في كلية أصول الدين والشريعة الإسلامية!

وفي سنة 1949م أسَّس مكتبا بالقاهرة يحمل اسم (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) وكان يمثله أحسن تمثيل، وبه ومنه كان يتَّصل بمختلف الدول العربية الشقيقة قصد التعاون في شؤون الطلبة الجزائريين الذين يتجهون إلى الكليات والمعاهد العلمية بمصر!

وزار الأستاذ الفضيل كثيرا من الأقطار العربية والإسلامية، كالكويت، وإيران، والمملكة العربية السعودية، والبحرين، والباكستان، واليمن، كما زار بلدانا مختلفة في أروبا، كاليونان، وإيطاليا، وسويسرا، وإسبانيا، والبرتغال، وكان له في كل بلد يزوره أو يقيم به نشاط مكثف واسع، وصِلات بمختلف الجمعيات والهيآت، والمنظمات، ورجالِ العلم، والفكر، والقلم، والدعوة!

وشاء القدر بعد عمر حافلٍ بجلائل الأعمال أن تكون نهايته في أنقرة يوم 12 مارس سنة 1959 -رحمه الله-

وفي سنة 1987 نقل رفاته من أنقرة إلى مسقط رأسه ببني ورتلان بالجزائر، وكان يوما مشهودًا وقف الناس حول نعشه وجوهُهم إلى الأرض وأفكارهم إلى الماضي يستعيدون تاريخ هذا الرجل من يوم أن كان طفلا صغيرا يتعلم القرآن الكريم في كتّاب القرية، إلى يوم أن احتضنته قسنطينة طالبا في حلقات الإمام ابن باديس أو مساعدًا له، أو معلمًا في التربية والتعليم، إلى أن كان بباريس يعمل لإنقاذ الآلاف من أبناء الجزائر من التفرنس والتفسخ، إلى رحلاته في مختلف الأقطار العربية والإسلامية والبلدان الأروبية، إلى يوم وفاته بأنقرة[2].

إن الفضيل الورثلاني فصلٌ قيّمٌ في تاريخ الجزائر، وصفحةٌ مشرقة في حياة الأمة العربية، الإسلامية، ومثال للاقتداء، في قوة الإيمان، ورسوخ العقيدة، وتأجُّج العزيمة، وصدق الوطنية، وكان -كما قال المرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات في المرحوم إسماعيل صدقي-: قلّما نجد له أشباها فيما غبَر من الدهر الطويل، لا يحبُّ الوقوف على الهامش، ولا الدروج على الشاطئ، إنما كان يسير قُدُمًا في الصُلّبِ، ويسبَح في وقذة[2] الداء، وعبقرية لا تخبو حتى في عشية الموت!

لكلِّ هذا استحقَّ هذا التكريم من أهل العلم والأدب والدعوة في مصر، واستحق أن يُدْرَج في هذا الكتاب بهذه الكلمة القصيرة المقتضبة. وإنه ليشفعُ في قِصَرها أنها صورةٌ معبّرة، جمالها من صدق الضمير، وإخلاص القلب، وشرف المهنة، وحرمة البيان!.

---

(1) كتبنا حياته بإسهاب في مقدمتنا لكتابه القيم (الجزائر الثائرة) وفي كتابنا (أعلام من المغرب العربي ج2.

(2) وقذة المرض: شدته المفضية إلى الموت.

■ تكريم جمع من أهل العلم والأدب بمصر:

وفي عيد العلم بالقاهرة سنة 1962 كرم الرئيس جمال عبد الناصر، طائفة من العلماء والأدباء بجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية، فكان من المكرمين الكاتب الشهير الأستاذ حسن الزيات، وألقى كلمة في الحفلة نيابة عن المكرمين، ومما جاء فيها قوله يخاطب الرئيس:

«عصرك يا سيدي الرئيس قد انفرد من بين العصور بأنه عصر الإنسان الحر، والمواطن الحر، والعامل الكادح، والعامل المجتهد، والأديب المستقل، فكل منهم يشعر اليوم بأن له حقا يناله، وواجبا يؤديه، ورزقا يكفيه، ووطنا يعتز به.

عصرك عصر السلام والوئام والوحدة، فأنت تسعى دائما للسلام الدائم بين الدول، وللوئام الكامل بين الشعوب، وللوحدة الشاملة بين العرب، لا تبتغي من وراء أولئك كله إلا ما ابتغاه ذوو الرسالات من قبلك».

وقوله: «سيدي الرئيس:

إن الأدب الذي تكرمه الليلة في أهله قد بشر بك، ومهد لك، ودعا إليك!».

ثم نقل كلاما عن مجلته «الرسالة»تنبأت به عن مستقبل مصر، وعن الرجل المنتظر الذي يحقق آمال مصر والأمة العربية، وذلك سنة 1935 وسنة 1940.

وختم الزيات خطابه البليغ بقوله:

«سيدي الرئيس:

إذا تفضلت الليلة على رجال العلم والفن والأدب بالتقدير والتشجيع فإنك تقدر سلاحا من أمضى أسلحتك، وتشجع جنودا من أخلص جنودك!

وإني أتقدم بأسمائهم جميعا، وباسمي إلى سيادتك بأصدق الشكر وأعمقه، ونسأل الله أن يديم عصرك، ويعز نصرك، ويتم عليك وعلى أصحابك نعمة التوفيق!

• لمحات من حياة أحد المكرمين وهو أحمد حسن الزيات:

ولد أحمد حسن الزيات بإحدى قرى المنصورة شمال القاهرة سنة 1886، وتعلم بالكتاب، ثم انتظم في سلك الطلبة بالأزهر في القاهرة فكان هو والدكتور طه حسين زميلين، ومن رسوخ هذه الزمالة بينهما أنه لما فصل طه حسين من الأزهر فصل معه الزيات، ولما عاد عادا معا.. وانتسبا إلى الجامعة المصرية معا أيضا، ولكن ظروف الزيات لم تساعده على إكمال تعليمه فاشتغل بالتدريس.

وأهم أعماله أنه أصدر «الرسالة» التي كان لها دورها الكبير في النهضة الأدبية الحديثة، وكانت لأمد طويل ميدانا تتبارى فيه أقلام أعلام الأدب.

وله مؤلفات عديدة منها «تاريخ الأدب العربي»، «في أصول الأدب»، «دفاع عن البلاغة»، ويمتاز أسلوبه بالعناية الشديدة بالأسلوب، والاهتمام بحسن الوقع وجمال الجرس!

وتوفي - رحمه الله - سنة 1968.

التكريم في المغرب العربي

- تكريم مؤرخ الجزائر الشيخ مبارك الميلي
- تكريم الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس
- تكريم العلامة الشيخ الطاهر بن عاشور
- تكريم الأستاذ أحمد توفيق المدني
- تكريم العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي
- تكريم العلامة الشيخ بيوض
- تكريم العلامة الشيخ المكي الناصري

■ تكريم مؤرخ الجزائر الشيخ مبارك الميلي

أقيم حفل فاخر بهيج سنة 1932 ببناية الجمعية الخيرية بقسنطينة حضره جم غفير من علماء الجزائر وأدبائها لتكريم مؤرخ الجزائر الأستاذ مبارك الميلي بمناسبة صدور الجزء الثاني من كتابه «تاريخ الجزائر في القديم والحديث»، وقد ألقيت في هذا الحفل خطب وقصائد شعرية كان لها وقعها في نفوس الحاضرين، وفيما يلي كلمة إمام النهضة الإصلاحية بالجزائر الشيخ عبد الحميد بن باديس التي كتبها عن هذا التكريم: «إنما تقاس درجة الأمم بما تنجبه من الرجال، وإنما تكون منجبة للرجال يوم تصير تعرف أقدار العاملين من أبنائها، وهذه الجزائر المحبوبة قد صارت تعرف أقدار العاملين من أبنائها وتوليهم ما يستحقونه من تعظيم وتكريم، وهذه قسنطينة عروس القطر الشرقية تسبق أخواتها إلى ذلك، فقد أقام أدباؤها وفضلاؤها حفلة تكريم في ليلة باهرة ببناية الجمعية الخيرية للإستاذ مبارك الميلي بمناسبة إصداره للجزء الثاني من تاريخه العظيم، فنهنئ الجزائر بابنها البار، ونهنئ قسنطينة بسبقها للفضل، ونهنئ صديقنا العزيز بتقدير أمته لعلمه المشكور[1].

• لمحات من حياته:

الشيخ مبارك من دعاة الإصلاح، ومن أقطابه البارزين في الجزائر، ولد بمدينة ميلة سنة 1316هـ/1898م ودرس على الإمام عبد الحميد

(1) الشهاب، ج8، م8، غرة ربيع الثاني 1351هـ/ أوت 1932م.

بن باديس، وبالزيتونة بتونس، وتخرج منها سنة 1922، واشتغل بالتدريس والكتابة في الصحف، ولما تأسست جمعية العلماء في سنة 1931م انتخب أمينا لماليتها، وعاش عمره القصير الذي أطاله بالعمل الجاد المثمر مخلصا لدينه ولغته ووطنه!

وتوفي يوم الجمعة 52 صفر 1364هـ/1945م في حدود الساعة الحادية عشرة صباحا بداره بميلة، ودفن عشية يوم السبت في مشهد عظيم حضرته وفود الأمة من مختلف أنحاء القطر الجزائري، وصلى عليه المرحوم الشيخ العربي التبسي، وأبنه بخطاب بليغ مؤثر، عدد فيه أعماله الصالحة، ومآثره الخالدة، ومن آثاره رحمه الله:

«تاريخ الجزائر في القديم والحديث»

«رسالة الشرك ومظاهره».

▪ تكريم الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس

وأروع احتفال سجله التاريخ في صفحاته المشرقة احتفال الجزائر بختم الإمام عبد الحميد بن باديس لتفسير القرآن بالجامع الأخضر بقسنطينة بعد خمس وعشرين سنة من الدرس والإلقاء على الطريقة السلفية، يقول العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في تمهيده للعدد الخاص من (الشهاب) بهذا الاحتفال:

«أتمَّ الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسا على الطريقة السلفية وكان إكماله إياه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات، مفخرة مدخرة لهذا القطر، وبشرى عامة لدعاة الإصلاح الديني في العالم الإسلامي

كله، تمسح عن نفوسهم الأسى والحزن لما عاق أمام المصلحين محمد عبده عن إتمامه كتابه».

أدركتِ الأمة الجزائرية أهمية القرآن في حياتها، وأدركت قيمة هذه النعمة الكبرى التي حققها الله على يد إمام نهضتها فاحتفلت بهذا الختم التاريخي وكرمت هذا الإمام المصلح، وكان الاحتفال عظيما في مظهره ومخبره، عميقا في مغزاه ودلالاته، وسيظل عبرَ العصور المتعاقبة على ساحل الحياة وسام شرف على صدر الجزائر، ومفخرة يتغنى بها التاريخ مدى الحياة.

ففي صبيحة يوم الأحد 13 من ربيع الثاني عام 1357 هـ الموافق لـ 12 جوان سنة 1938 عند شروق الشمس، هُرِعت الوفود التي أقبلت من مختلف أرجاء الجزائر إلى الجامع الأخضر بقسنطينة لحضور ختم الأستاذ الإمام لتفسير القرآن الكريم، وكان الدرس الختامي تفسير المعوذتين.

وقد استحوذ الإمام ببلاغته وفصاحته على القلوب والمشاعر طوال ساعة ونصف وغاص بالعقول في أعماق السورتين، وحلق بها في فضاءاتهما البعيدة الفسيحة!

وفي صباح يوم الإثنين الموالي ليوم الختم تلاحقت الوفود المختلفة إلى كلية الشعب، وما إن دقت الساعة التاسعة حتى تصدرت هيئة جمعية العلماء سدة القاعة، وكانت الرئاسة لأمير البيان الشيخ البشير الإبراهيمي، وابتدأ الحفل بتقديم مقرئ تلا آيات من كتاب الله، ثم شرع الرئيس في تقديم الخطباء والشعراء، وها هي أسماؤهم على ترتيبهم في الإلقاء:

- الشيخ ناصر الدين ناصر
- الشيخ الجيلاني بن محمد الأصنامي
- الشيخ باعزيز بن عمر
- الشيخ عيسى الدراجي
- الشيخ البشير الريغي
- الشيخ محمد حسن الورثلاني
- الشيخ أحمد بن عبد الحفيظ السالمي
- الشيخ محمد الهادي عادل اليعلاوي
- الشيخ محمد المنصوري
- الشيخ أبو بكر الأغواطي
- الشيخ محمد بن العابد الجيلالي
- الشيخ أخمد البوعوني
- الشيخ مبارك جلواح
- الشيخ عمر بن البسكري العقبي
- الشيخ سعيد صالحي
- الشيخ محمد العيد
- الشيخ عبد الحفيظ الجنان
- الشيخ محمد البشير الإبراهيمي
- الشيخ عبد الحميد بن باديس

- **لقطات من خطب الخطباء وقصائد الشعراء:**

ونرى من المفيد، ومن السداد أيضا أن نقدم من كل خطبة أو قصيدة فقرة أو أبياتا ليقف القارئ الكريم على مكانة الإمام المحتفل به في القلوب، وأثر نهضته في الجزائر، ومدى احتفاء النفوس بختم كتاب الله تعالى.

قال الشيخ ناصر في ختام خطابه:

وختاما إليك أوجه خطابي أيها الروح الذي بعث الحياة في أعصاب هذه الأمة وصاغ لها من نفسه قلبا يطفح إحساسا وشعورا بالواجب!

إن خطابي المتواضع ليتضاءل أمام عظمتك، وما الذي أقول وأنت تاريخ على حدة، وما مثلي ومثلك إلا مثل ذلك الأعرابي الذي فقد راحلته وضل سواء السبيل في حندس من ظلام الليل واهتدى على ضوء القمر إليها، ورفع إلى القمر رأسه فقال:

ماذا عسى أن أقول فيك أيها القمر؟ إن قلت زاد الله رفعة، فمسكنك السماء، أو ضوءا ففيك كل الضياء، أو محبة فقد ملكت كل فؤاد، أو منفعة فأنت النفع للعباد والبلاد!

وقال الشيخ الجيلاني الأصنامي في خطابه:

هذه الخدمات الجلى -أيها السادة- التي قدمت للإسلام والمسلمين، وهذه الجهود المتضاعفة لتطهير العقائد وتهذيب النفوس، وتثقيف العقول، والارتقاء بالأفكار إلى أسمى معارج التفكير، وهذه الأصداء العلمية المتجاوبة في أرجاء الجزائر كلها كانت بفضل ما قام به الأستاذ الحكيم في هذه الديار من تفسير كتاب الله على الوجه الذي يحقق إعجازه وخلوده، وبين للمفكرين والمرتابين أجلى بيان أن هذا الكتاب الذي هو أعز علينا من أرواحنا كافل للسعادة، واف بالمصالح، صالح لكل عصر، مساير لكل رقي، غير مناف للعلم، بل هو منبعه، ولا مناف للمدنية، بل هو مشرعها!

وقال الشيخ باعزيز بن عمر في خطابه:

إن عظمتنا التاريخية إسلامية مستمدة من القرآن، فلا يمكن أن ننهض بغير الإسلام وكتاب الإسلام ولغات الإسلام، وعلى هذا فإننا نعد ختم تفسير الذكر الحكيم على طريقة أستاذنا عبد الحميد بن باديس عرضا جميلا لعناصر تلك العظمة وتثبيتا لها في أذهان الناشئة وبناء متينا في صرح نهضتنا العلمية الدينية المباركة، وهذا لا يتيسر إلا لمثل ابن باديس في علمه الغزير، وما حباه من مواهب فياضة، ومقدرة خارقة، في الغوص على المعاني البعيدة والكشف عن أسرار التنزيل في أسلوب من بلاغته وإعجازه!

وقال الشيخ عيسى الدراجي:

إن التأسي شرط من شروط ديننا، وإني أدعوكم أن تتأسوا في خدمة العربية والإسلام بأستاذ الجزائر وفخرها على الأقطار، الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس وتتبعوا خطواته الثابتة، في بناء هذه النهضة المباركة وغرس هذا النشاط الطاهر!

وأضاف:

وإن ختم التفسير بالأمس سيسجله التاريخ معجزة لوطنكم ومأثرة لجيلكم، فلنحرص على أن يكون يومنا خيرا من أمسنا وغدنا مربيا في الصالحات على يومنا.

وقال الأستاذ البشير الريغي السطيفي:

إذا كان من مقتضى الحكمة أن توضع الأشياء في مواضعها مقدرة بمقاديرها، وتعطى الأسماء لمسمياتها منزلة في منازلها، فإن الذي يجب أن تخلع عليه هذه الحلل الضافية من الأوصاف والألقاب على سبيل

الاستحقاق والأصالة والأولوية هو هذا الرجل القرآني، خلقا وأدبا وروحا ودينا وعقيدة: شيخنا -وما أشرفها من إضافة- عبد الحميد بن باديس أستاذ الشمال الإفريقي، وروح النهضة الجزائرية، وقائد الحركة العلمية وباعثها من مرقدها.

وقال الشيخ محمد الحسن الورتلاني يخاطب الإمام:

سلام عليك -أيها الجليل- بما جاهدت في سبيل العلم والدين والعربية، سلام عليك بما غالبت في سبيل الثلاثة من الصعاب، وما قاسيت من الأتعاب، سلام عليك بما جلدت وصابرت، وبما سال به قلمك في تجلية حقائق الدين، وبما نفثه لسانك من كلِم كانت نجوما للمهتدين، ورجوما على المعتدين، سلام عليك بما خدمت الأمة الجزائرية في أبنائها الذين هم ذخيرة مستقبلنا، وفي دينها الذي هو مناط فخرها، وفي لغتها التي هي ترجمان مجدها، فشكرًا لك منها يعبر عنه هذا الاحتفال، وهنيئًا لك ما بنيت من الأعمال، وربيت من الرجال وجزاك الله أحسن ما يجزي به عباده الصالحين!

وقال أحمد بن عبد الحفيظ السالمي:

يا أبناء العروبة والإسلام في الجزائر، إن الجزائر تستغيث بكم لتردوا عليها مجدها، وتحيوا لها تالد عزها، وتحتج عليكم بهذا الابن البار الذي قام وحده بإحياء ما قتله الجبن واليأس والجهل والجمود والخرافات من الأخلاق الشريفة في نفوس الجزائريين، وتناديكم أن من البر بها أن تعاضدوه، وتكونوا سواعده القوية، فتبرروا عمله، وتحققوا أمله، وما عمله إلا إحياء الإسلام والعربية بإحياء كتاب الله وسنة رسوله، وما أمله إلا قتل الجهل وازدهار هذا الوطن، بالعلم في دائرة الإسلام والعربية.

وقال الشيخ اليعلاوي:

بعد أن تحدث عن الأمة العربية في جاهليتها، تحدث عنها وهي في ضوء القرآن والإسلام، سيدة العالم متبوعة لا تابعة، مضاف إليها لا مضافة، آمرة لا مأمورة، قائدة لا مقودة، ثم قال:

على هذا الأساس -القرآن والسنة والعربية- بنى أستاذنا الجليل عبد الحميد بن باديس حين نظر من ربع القرن مضى إلى حال الأمة الجزائرية المسلمة ووازن بين ماضيها وحاضرها وحدثته نفسه الكريمة بأن يقف عمره المبارك على خدمتها وفكر في الوسائل لذلك العمل فرأى -حفظه الله- أن دواء هذه الأمة في القرآن، فشرع في تفسيره بالجامع الأخضر على طريقة السلف الصالح، ودأب على ذلك لا يثني عزمه شغب مشاغب، ولا تعصب متعصب، وقد فعل ذلك التفسير فعله في النفوس المستعدة له ووجدت فيه العلاج النافع، وتبدلت حال الأمة في عقائدها وأخلاقها من سيء إلى حسن إلى أحسن، وها هو ذلك العمل العظيم يتم في ربع قرن، وها هي الأمة الجزائرية تعرف قدر العامل وقيمة العمل فترفع مكانة العامل بهذا الاحتفال التاريخي العظيم، وتفد عليه من أقاصي القطر رافعة صوتها بتمجيد الأستاذ معترفة له بجلائل أعماله مقلدة إياه زعامتها الدينية والعلمية هاتفة بحياته، شاكرة له على تمام نعمة ختم التفسير...

وقال الشيخ محمد المنصوري:

إن مستقبلنا لجليل ولكنه متوقف على عزائم قوية، وهمم بعيدة في طلب المعالي، ونفوس شابة تتربى على هذه الروح القرآنية الكاملة وعقائد راسخة في الحق، وبصائر نيّرة فيه وكل هذا ميسور لمن حكم القرآن في نفسه:

يا قوم قد وَعُر الطريق أمامكم　　فإذا عزمتم تسهل الأوعار

وقال الأستاذ أبو بكر الأغواطي:

إن في فضاء التاريخ أعلاما من الحق والنور لم يدركها الفناء بطمس، ولم يغيرها الصفاء في رمس، وما هي إلا أعمال رجال ملهمين مخلصين، وضعوها لهداية الضالّين، وإشاد الحائرين!

والمحتفي به اليوم أستاذنا وأستاذ أساتذتنا عبد الحميد بن باديس هو من هؤلاء الرجال الذين يعملون الأعمال، ويبنون الرجال، ويحيون الأجيال، فلا يقوى الدهر على إطفاء ما أشعلوا وإخفاء ما عملوا بحال!

وأضاف:

إن الاحتفاء الحقيقي الذي تقر به عين الأستاذ هو أن نعمل على تمهيد السُبُل لغايته، وتيسير الوسائل لتلامذته الذين يحملون المشاعل للدلالة على معالمه، وأن نهيّئ الأسباب لإتمام ما بدأ به، من نشر العربية، والهداية الإسلامية القرآنية في جميع الأوساط الجزائرية حتى تتغلغل إلى أعماق صحاري وهران، وتصعد إلى شماريخ جبال جرجرة، وأن نثبتها في نفوس الجزائريين، كما ثبتها أسلافنا في نفوس الأفارقة الذين اعتز بهم الإسلام والعربية.

وقال الشيخ محمد بن العابد الجلالي:

بعد أن تحدث عن القرآن الكريم وعن بعض أسراره المثيرة المعجزة قال: هذا هو القرآن الذي نحتفل به الآن في شخص من أنفق حياته وراحته في خدمته!

ومن كعبد الحميد يستحق التكريم، وفي كل صدر من صدور الحاضرين شعاعة من هدي القرآن انبعثت من ذلك القلب الذي بين جنبي

عبد الحميد، لقد كانت وجهتنا بالعبادة هياكل الشياطين، ومنذ صاح بها عبد الحميد فنسفَتها صيحاته لم نجد أمامنا إلا القرآن وجنده الباسل، ومجلَّى أسراره عبد الحميد!

فهل يكفي في تكريم رجل، هذه آثاره، كلمة متواضعة يقولها عاجز مثلي يقضي منها جزءا طفيفا من واجب الأبوة الروحية؟

إن واجب عبد الحميد يقضي برفع تمثال له في كل مدينة من مدن القطر، وإذا كان هذا متعذرا لظروف قاهرة فلا أقل من أن يتخذ رسمه من أنفس وأجمل ما تحلى به صدور البيوت!

من قصيدة الشيخ أحمد البوعوني:

ولما انتهى دور الخطباء جاء دور الشعراء، فكان أول من افتُتِح به شاعر مسن بلغ عمره قرنا، هو الشيخ أحمد البوعوني، ألقى قصيدته أحد الحاضرين لعجزه عن الوقوف والإلقاء.

ويحسن بنا أن لا نمر على هذا الشيخ دون أن نذكر عنه ما يفيد أبناء هذا العصر وخاصة منهم طلبة العلم:

فبالرغم من كبر سنه، ودراسته عن مشاهير العلماء، أمثال الشيخ عبد القادر المجاوي، والشيخ حمدان الونيسي، فإنه ما كاد الأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس ينتصب للتدريس بقسنطينة وهو في درجة أحفاده، حتى أخذ مكانه بين الطلبة، وظل ملتزما للدروس لا يتخلف، حاضرا بعقله وقلبه لا يشغله شيء، وكان في الدرس مثالا للجاد النشيط الذي يواكب الدرس مناقشا، باحثا عن الحقيقة، متلهفا إليها، وعدَّ الرئيس الأستاذ الإبراهيمي - وهو يقدمه إلى الجمهور- من لطائف الاتفاق في ربط الأحفاد بالأجداد: «أن الشيخ البوعوني -أبقاه الله- كان ينظم

القصائد في تهنئة مشائخه في المناسبات وفي أختام دروسهم المهمة، وقد بارك الله في عمره حتى شهد الاحتفال بختم التفسير من الشيخ ابن باديس، وقد حضره كله في ربع قرن فيما نعتقد، ففاضت نفسه المنصفة بهذه القصيدة، وكانت قصائده تاريخا لثلاثة أجيال كاملة».

نوَّه الأستاذ بفضيلة الإنصاف وقال: «إن الشيخ البوعوني حجة الله على علماء عصره الذين يذهب بهم الكبر والاستنكاف إلى حرمان أنفسهم من العلم استطالة واغترارًا بمكانتهم في السن أو الجاه، واحتقارا لمن هو دونهم سنا، وإن كان فوقهم علما».

وها هي أبيات من القصيدة:

أمجّد باللسان وبالضمير   إله العرش ذا الفضل الكثير
وأحمده وحمد الله ذخر   أقدمه ليوم قمطرير
واثلث بالصلاة وبالتحيات   على المختار هادينا البشير
وبالرضوان عمن تَابَعُوه   بإحسان إلى يوم النشور
بنى جاء بالقرآن يدعو   عباد الله للحق المنير
وإن الشعر ممن عاش قرنا   لكالهذيان في الطفل الصغير
ولو عاد الشباب لقمت فيها   مقامات الفرزدق أو جرير

من قصيدة الأستاذ مبارك جلواح العباسي:

حيّ بدراً بأفق (سرتا) تلالا
يكسب الأرض والسماء جمالا
حيّ عني حياله هالة قد
ألبسته مهابة وجلالا

ذاك عبد الحميد سيُدمن أحيا
الهدى بيننا واردي الضــلالا
وهي ما أوفد التقى من وفــود
ساعة الختم تحضر الاحتفالا
قد دعاها عبد الحميد فلبت
لـدعــاه ضيــاغمــا وشبـــالا
فتبارت من كل فــج إلــى دا
ر إمام الهداة تزجي الرحالا
وتلاقت بساحها كالضواري
زائــراتٍ والكدراري تــلالا
تملأ العيـن والبصائر نــورا
وحجى كل يــائس آمـــالا

من قصيدة الشيخ عمر بن البسكري العقبي:

لا ومبــــداك ما لسَيْـــرك حــد
وختــام يــا أيهــا ذا المجــــــد
إنما تلك راحة بعــدهــا تســْ
ـتَأنف السير لا يعوقك ضــد
إيه عبد الحميد من تلكم الرو
ح التي من لهيبها كان جنــــد
فابتـن اليــوم للجزائــر مجــداً
أنت من يبتنى به ذا المجــد

وانشر اليوم للجزائـر تـاريـ
ـخاً طواه الجهول والمستبـد
إنمـا أنـت آيـة اللـه تُتلـى
ما لمن يطلب الهدى منك بد
رددتهـا مصـر فشـام فهنـد
وبهـا آمنـت حجـاز فنجـد
قمتَ تدعو للَّه وحدك والخلـ
ـق جميعاً عن دعوة اللَّه صدوا
فتحملت فيه مُرَّ البـلاء حـ
ـتى كان البلاء عندك شهـد
باصطبار حتـى كأنـك أرض
وثبـات حتـى كأنـك طـود

من قصيدة الشيخ السعيد صالحي اليعلاوي:

يـا قسنطينـة يـا زيـن الدمـى
أنت خود في حبير السندس
قد سقيت الروح من راح اللمى
وسكرنـا مـن شفـاه لعـس
فتأدب يـا قـريضـا فـي خيـال
إنهـا آيـات رب العـالميـن
ولئـن شوقنـي سـر الجمـال
إن ذا المحفل للروح الأمين

فاصغ للقـرآن آيـات الحـلال

مالك الأنفس والنور المبين

هـذه الآيـات آيـات السمـــا

هذه الطهرى طهور الأنفس

دع خيـالا فلقـد زال العمـى

وتقـدم لريـاض القـــدس

إلى أن يقول:

فتبصر إذ لعل ابـن كثيـر

عـاد للتفسيـر فـي عهـد جديـد

أو لعل القرطبي المستنير

أو رشيد الدين في العصر الشديد

جدد النظرة في الجسم الصغير

أصحيح أنـه عبـد الحميـد

ابـن بـاديـس ورأس العلمـــا

طيب الأصل كريم المغرس

قد كسـاه العلـم ثوبًا معلمـا

ولباس العلـم أغلـى ملبــس

والموشح طويل تجاوزت أبياته المائة كلها على هذا اللون الجميل، والصياغة المحكمة، والمعاني اللطيفة الرقيقة، وحسبنا ما قدمنا منه ليلا يتسع المقام.

من قصيدة الشيخ محمد العيد آل خليفة:

بمثلك تعتز البلاد وتفخر
وتزهر بالعلم المنير وتزخر
طبعت على العلْم النفوس نواشئا
بمخبر صدق لا يدانيه مخبر
نهجتَ لها في العلم نهج بلاغة
ونهج مضادات كأنك حيدر
حبتك عمالات الجزائر حرمةً
مشرِفة عظمى بها أنت أجدر
ففي كلِ وفدٍ راشد لك دعوة
وفي كل حفل حاشد لك منبر
يراعك في التحرير أمضى من الظبى
وأفضى من الأحكام أيان يشهَر
ودرسك في التفسير أشهى من الجنى
وأبهى من الروض النضير وأبهر
ختمت كتاب الله ختمة دارس
بصير له حل العويص ميسر
فكم لك في القرآن فهم موفق
وكم لك في القرآن قول محرر

وبينــتَ بالقـــرآن فضـــل حضـــارة
أقر لها كســرى وأذعن قيصـــر
حكيت (جمال الدين) في نظراتـه
كأن (جمال الدين) فيك مصوَّر
وأشبهت في فقه الشريعة (عبــده)
فهل كنته أم (عبده) فيك ينشر
أعد يا بن بـاديس الحديث وأبــده
بأنعمك اللاتي بهـا أنت تؤثــر

ويقول:

وصحفٌ من الله الكريم كريمة
مطــهـرة فيهـا كـلام مطهــــر
أقام لنا (عبـد الحميـد) أدلـة
على علمها الجم الذي ليس يُحصر
أبان الهدى فيها لمن يبتغي الهدى
وساق بها الذكرى لمــن يتذكـــر
لقد ناهز الخمسين في العمر دائبا
على الجد لا يشكــو ولا يتضجـر
قضى ربع قرن ينشر العلم صابــرا
على عقبــات مــا عليهــن يُصبَـــر
وربى فــي ظـل السعـادة مقبـــلا
على العلم يُرعــى شخصــه ويقــدر

بدوحــة عــز (للمعــز) رفيعــة
على الدوح صلب فرعها ليس يُكسر

ويقول:

فيا جامعا مثل المنــارة لامعــا
تنــور فيــه الحــق مــن يتنــــور
ويا مسجدا للعلم أسس والتقى
وبالوعـظ والإرشــاد مــازال يُعمــر
وبيتًا يُعــز الله مــن بفنائــه
يذل ويخــزي اللــه مــن يتكبــر
ابْنِ عن جمان فيك يُنظم خالصا
ودرٍّ كريــم فــي رحــابـك يُنـثــر
همَى بك غيث لابن باديس هاطل
فأنت به ريــان كاسْمِـك أخضــر
أرى (الأزهر) المعمور فيك مجددا
كما كان يحميه (المعــزّ) و(جوهر)
كأنك يوم الختــم فــي الأرض جنــة
مفتــحــة أنـــهـــارهـــا تتفجَّـــر
سلاح على العلم الذي فيك يبتغي
سلام على المجد الذي فيك يذكـر

سلام على الدرس الذي فيك يغتدى

إليــه مــن الفــج العميــق ويحضـــر

سلام على الناس الذين بــه اهتــدوا

إلى آية (الناس) التـي فيــه تظهـــر

سلام علــى ثانــي الربيعيــن إنـــه

كأولــه فــي أشهــر العـــام أنـــور

سلام على (كليــة الشعب) إنهــا

تحــف بأنصـــار الســلام وتخفـــر

سلام على شيب على الخير تلتقي

بهـــا وشبـــاب للمبـــرة يسهـــر

فيا محفلاً ما مثله اليــوم محفــل

حوى معشرا ما مثله اليــوم معشــر

بـــه حلل بيــض وســود كثيـــرة

وفيـــه رؤوس كاسيـــات وحسّـــر

نظيرك يرقــى بالبــلاد ويعتلــى

ومثلك يحظى بالمراد ويظفـــر

ويقول:

فيا شعب لا يحزنك أنك تبتلــي

وأنك تُقصى عن علاك وتُقصَـــر

فنحن الأساطين التي بك تعتَلــي
ونحن الأساطيل التي بك تمخــر
ونحن الرجال الثابتون عقيـــدةً
على المبدإ الأسمى إلى حين تُقبَــر
نقودك مأمــون المسالك سالما
إلى حيث لا تشقى ولا تتضـــرر
ونطلب بالقول الصريح حقوقنا
ولكننــا فــي القــول لا نتهـــور
ونرضى بحكم الله في كل موقف
فلا نكثر الشكوى ولا نتطيــر
فثابر على الحق الذي أنت طالب
فإنك في تضييعه لستَ تُعــذَر
ولا تؤذِ من أذاك فالحكم مورد
هَنيء مَريء لم يسؤ منه مصـدر
وكن مستميتا في جهادك ثابتا
وإن كنت بالجلى الرصيدة تُنذر
وإن تكن الجلَى عليك كبيــرة
به، فالحسيب الله، والله أكبــر

هذا وأبيات القصيدة كلها جواهر، فأية جوهرة اخترتها، نازعتك نفسك إلى جوهرة أخرى، ولكن فيما أوردناه منها كفاية.

وقال الشيخ عبد الحفيظ الجنان:

إنني باسم أعضاء لجنة الاحتفال بختم تفسير القرآن -والخطيب أحد أعضائها- أرحب بكم وبجمعكم الطاهر، وأشكر عواطفكم النبيلة، وإحساسكم الشريف، وتقديركم للرجل الفذ أستاذنا الأكرم الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي وضع حجر الأساس لهذه النهضة العلمية المباركة، على عموم الأمة المحمدية.

خطاب العلامة الإبراهيمي:

وبعد أن انتهى دور الخطباء والشعراء، ارتجل أمير البيان العربي في الشمال الإفريقي، الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي خطابا تهافتت عليه أقلام الكاتبين، ولكنها لم تقيد منه إلا القليل، وها هي فقرات قليلة منه لا تروي الضمآن ولكنها قد تبرد غليله.

أيها الملأ الكريم:

ما أشرقت شمس في الجزائر الحديثة على مثل يومكم بالأمس، وقد مضى بجلاله وروعته، ولم ينطق في وصفه لسان بكلمة، ولا اختلجت في نعته شفتان بحرف، لا زهدا فيه ولا عدم عرفان لحقه، ولا غبنا لحقيقته كيوم شوقي الذي قال فيه:

غبنت حقيقته ومات جمالها

باع الخيال العبقري الملهم

وإنما هو كلام الله، وبيت الله عقدا الألسنة بجلالهما، وحبسا النفوس على جمالهما، فجاء اليوم وجاءت كلية الشعب يقضيان من ذلك حقا غير مغفل!

إن يوم أمس من أيام الأمم، ولأيام الأمم غرر لوامع في تاريخ ويدٌ صناع في بناء مجدها، وصلة لا تنضب بتكوين أسباب بقائها وعظمتها، كما أنها شهود ناطقة بما في الأمة من معاني العز والعظمة!

وواصل الإبراهيمي نثر هذه الجواهر الثمينة، وهذه الدرر الغالية، ثم قال:

إن يومكم الذي نتحدث عنه هو اليوم الأغر المحـ ' في تاريخ الجزائر الحديث، ولا أبعد إذا قلت إنه اليوم الأغر في قرون من تاريخ الإسلام. هذا هو اليوم الذي يجب أن نؤرخ له في الطور الجديد من أطوار نهضتنا العلمية الدينية، ونؤرخ به لمبدإ ازدهارها وإثمارها ونموها وإبدارها.

ثم قال:

أيها الإخوان:

تكلم الخطباء والشعراء في المعنى الذي أقيمت لأجله الحفلة، وهو تكريم أخينا الأستاذ عبد الحميد بن باديس وتمجيد أعماله في خدمة الدين والعربية والعلم، وشغلتهم حقوق هذه الحفلة عن حقوق يوم أمس المشهود، وأوشكنا أن نضيع واجبه، وأن يمر فلا يتغنى بأوصافه لسان، ولعل الأقلام تجفوه تبعا لذلك فلا يجري في وصفه قلم!

وقد توزعتني الخواطر حين قمت: أأسلك ما سلكه الخطباء والشعراء من تمجيد أخينا بما هو أهله؟ ولو أني جريت في هذا المضمار وأسلس لي الكلام قيادة - كان في ذلك الوفاء لأخينا المبجل، والجفاء ليومنا الأغر المحجل، وإن أنا قمت بما يوجبه الوفاء ليوم القرآن قصرت في حق أخ أعتقد أن ما قاله الشعراء والخطباء في حقه قليل، وكيف تفي حفلة مثل هذه محدودة الساعات بتمجيد رجل طوقت هذا الوطن مننه!

فإن قمت ببعض ما يجب للقرآن، وليوم القرآن فحسبي في التنويه بأعمال أخي الأستاذ أن هذا اليوم بعض حسناته[1]!

---

(1) خطبة الإبراهيمي سجل بجلائل القرآن وجماله، وصورةٌ معبرة عن روعة الحفل ومغزاه، فلا تُغني القارئَ فقرات منه ولكن ابتغاءَ الإيجاز والاختصار جعلنا نكتفي بما قدمنا!

• خطاب المحتفل به

تمهيد

ثم قام المحتفل به الأستاذ الجليل الشيخ عبد الحميد بن باديس فألقى خطابا قيما رائعا ختم به هذا الحفل التكريمي الخالد، الذي سيظل عبر العصور من أبرز عناوين الأمة الجزائرية أمة الإسلام، والقرآن، والعربية!

وللأمم من أعمالها الماجدة، وبطولاتها الخالدة، ومواقفها الكريمة المشرّفة، عناوين عريضة متألقة تشع نورا، وتلخص حياتها وتاريخها في هذا الوجود. والأمة التي لا عنوان لها كتاب غُفل، ودينار مسيح، وطريق دارس، وباطن بلا ظاهر.

وأبرز ما ميز هذا الخطاب ما اشتهر به الأستاذ الإمام من خفض الجانب، ورحابة الكنف، وسعة الصدر، وفيض الحلم، وجم التواضع، وحسن المعاشرة، والاعتراف بالجميل لمستحقه، فهو صورة صادقة لمن هذبه الإسلام، وصقله القرآن، وأدبته السنة فكان بحق مثالا للعالم الذي جمع الله فيه العلم النافع، والخلق النبيل، والسلوك القويم!

وما أكثر العلماء في الأمة العربية الإسلامية، ولكن أكثرهم بعدا بُعَداء عن الأخلاق الإسلامية، لا يمثلون الإسلام في نقاوته وطهره، في عزه وسُموه، في قوته واستعلائه، في سماحته ويسره.

وها هي الكلمة نقدمها كاملةً، لأن الاكتفاء ببعض فقراتها لا يُغني في تصور موضوعها، قال رحمه الله:

أيها الإخوان:

أنتم ضيوف القرآن، وهذا اليوم يوم القرآن، وما أنا إلا خادم القرآن فاجتماعكم على تنائي الديار، وتباعد الأقطار، هو في نفسه تنويه بفضل القرآن، ودعوة جهيرة إلى القرآن في وقت نحن أحوج ما نكون إلى دعوة المسلمين إلى قرآنهم، فهل علمتم أنكم باحتفالكم هذا قمتم بواجبات أهونها ما سميتموه احتفالا بشخصي.

• كلمة المحتفل به الإمام عبد الحميد بن باديس:

ختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس حفلة تكريمه بكلمة بليغة شكر بها الوفود الحاضرة، وعاد بهم إلى الماضي فوزع معاني التمجيد والتكريم التي تجلت عنها الحفلة - على الأصول التي كونته. فكانت كلمته درسا في التواضع وعرفان الجميل عرف منه الحاضرون ناحية نفسية من أخلاق الأستاذ المحتفل به. وقد حافظنا ما استطعنا على معاني تلك الكلمة إذ فاتنا أن ننقل ألفاظها[1]، قال حفظه الله:

أيها الإخوان:

أنتم ضيوف القرآن. وهذا اليوم يوم القرآن. وما أنا إلا خادم القرآن.

فاجتماعكم على تنائي الديار وتباعد الأقطار هو في نفسه تنويه بفضل القرآن ودعوة جهيرة إلى القرآن في وقت نحن أحوج ما نكون إلى دعوة المسلمين إلى قرآنهم. فهل علمتم أنكم باحتفالكم هذا قمتم بواجبات أهونها ما سميتموه احتفالا بشخصي.

إن أقوال خطبائكم وشعرائكم كلها في الحقيقة إشادة بيوم القرآن، ووفود القرآن وكل ما لي من فضل في هذا فهو أنني كنت السبب فيه.

---

(1) الشهاب ج4 م 14 ربيع الثاني- جمادى الأولى 1357 هـ جوان - جويلية 1938م.

أيها الإخوان:

أنا رجل أشعر بكل ما له أثر في حياتي. وبكل من له يد في تكويني. إن الإنصاف الذي هو خير ما ربى عليه امرؤ نفسه - ليدعوني أن أذكر في هذا الموقف التاريخي العظيم بالتمجيد والتكريم كل العناصر التي كان لها الأثر في تكويني حتى تأخذ حظها مستوفى من كل ما أفرغتم على شخصي الضعيف من ثناء ومدح بالقول والفعل. فإني أشهد الله أنكم بالغتم في التحفي بي والتنويه بأعمالي، وأشهد أن هذا التحفي عسير عليّ جزاؤه ثقيل عليّ حمله، فلعلي إذا ذكرت هذه العناصر ووفيتها حقها من الاعتراف لها بالفضل توزعت حصصها من التنويه وتقاضت حقوقها من الثناء الذي أثقلتم به كاهلي. فأكون بذلك قد أرضيت ضميري وخففت عن نفسي.

إن الفضل يرجع أولا إلى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة. ورضي لي العلم طريقة أتبعها، ومشربا أرده، وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني وحماني من المكاره صغيرا وكبيرا. وكفاني كلف الحياة، فلأشكرنه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر، ولأكِل ما عجزت عنه من ذلك لله الذي لا يضيع جزاء العاملين.

ثم لمشائخي الذين علموني العلم وخطوا لي مناهج العمل في الحياة ولم يبخسوا استعدادي حقه، وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العملية، وهما من بين مشائخي اللذان تجاوزا بي حد التعليم المعهود من أمثالهما لأمثالي - إلى التربية والتثقيف والأخذ باليد إلى الغايات المثلى في الحياة.

أحد الرجلين الشيخ حمدان الونيسي القسنطيني نزيل المدينة المنورة ودفينها، وثانيهما الشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة المعمور رحمهما الله.

وإني لأذكر للأول وصية أوصاني بها وعهدا عهد به إليّ، وأذكر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجدني مدينا لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر، فقد أوصاني وشدد علي أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت، ولا أتخذ علمي مطية لها كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت.

وأذكر للثاني كلمة لا يقل أثرها في ناحيتي العلمية عن أثر تلك الوصية في ناحيتي العملية، وذلك أنني كنت متبرما بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله، ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن، وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله. فذاكرت يوما الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق. فقال لي: اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح.

فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقا واسعة لا عهد له بها.

ثم لإخواني العلماء الأفاضل الذين زاروني في العمل من فجر النهضة إلى الآن، فمن حظ الجزائر السعيد ومن مفاخرها التي تتيه بها على الأقطار أنه لم يجتمع في بلد من بلدان الإسلام فيما رأينا وسمعنا وقرأنا مجموعة من العلماء وافرة الحظ من العلم مؤتلفة القصد والاتجاه مخلصة النية، متينة العزائم، متحابة في الحق مجتمعة القلوب على الإسلام والعربية قد ألف بينها العلم والعمل - مثل ما اجتمع للجزائر في علمائها الأبرار فهؤلاء هم الذين ورى بهم زنادي، وتأثل بطارفهم تلادي، أطال الله أعمارهم ورفع أقدارهم.

ثم الفضل أولا وأخيرا لله ولكتابه الذي هدانا لفهمه والتفقه في أسراره والتأدب بآدابه. وأن القرآن الذي كوّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يكوّن رجالا في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على مناهجه.

ثم لهذه الأمة الكريمة المعوانة على الخير، المنطوية على أصول الكمال، ذات النسب العريق في الفضائل، والحسب الطويل العريض في المحامد.

هذه الأمة التي ما عملت يوما - علم الله- لإرضائها لذاتها، وإنما عملت وما أزال أعمل لإرضاء الله بخدمة دينها ولغتها، ولكن الله سددها في الفهم وأرشدها إلى صواب الرأي فتبينت قصدي على وجهه وأعمالي على حقيقتها فأعانت ونشطت بأقوالها وأموالها وبفلذات أكبادها. فكان لها بذلك كله من الفضل في تكويني العملي أضعاف ما كان لتلك العناصر في تكويني العلمي.

أيها الإخوان:

إذا لم يكن لي في حياتي العلمية من لافت للقرآن إلا تلك الكلمة التي سمعتها من الشيخ النخلي، وقد فعلت فعلها في نفسي وأوصلتني في فهمي إلى الدرجة التي تحمدونها اليوم، فإننا -والحمد لله- نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا، وجهودها، وإن أعز ما وصلنا إليه هو تبين الغاية وتلافي الجهود، وفقنا الله وإياكم للأعمال الصالحة، ورزقنا الإخلاص فيها، والثبات عليها إنه سميع مجيب[1]

(1) الشهاب: عدد جوان، – جويلية 1938م.

• لمحات من حياته:

هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي ابن باديس، ولد بمدينة قسنطينة عام 1308 هـ الموافق سنة 1889 م وجهه والده إلى المكتب القرآني ليقرأ القرآن على الطريقة التقليدية، ولم يوجهه إلى المدرسة الفرنسية كما هو الشأن بالنسبة إلى معظم الآباء بقسنطينة.

ورحل إلى تونس سنة 1908م للدراسة بجامع الزيتونة وتخرج منه بشهادة التطويع سنة 1912م.

وقبل أن يعود إلى الجزائر تولى التدريس بجامع الزيتونة عاما واحدا جريا على عادة المتخرجين فيه يومئذ.

من شيوخه بالزيتونة الذين لهم الفضل الكبير في تكوينه العالمان الجليلان: الشيخ محمد النخلي والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.

وقام برحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وعند عودته مرَّ بالقاهرة واتصل بالإمام الشيخ محمد بخيت المطيعي ومنحه إجازة علمية؛

وفي سنة 1913م انتصب للتدريس بالجامع الكبير بقسنطينة.

وفي سنة 1925 أسس المطبعة وأنشأ جريدة (المنتقد).

وفي يوم الثلاثاء 17 من ذي الحجة عام 1349 هـ الموافق لـ 5 من شهر ماي 1931 أسس هو وإخوانه العلماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛

وفي سنة 1927م حاول اغتياله أحد المحرضين من قبل زاوية طرقية ضالة بالغرب الجزائري؛

وفي سنة 1928 ختم تفسير القرآن الكريم الذي ظل يوالي تدريسه مدة ربع قرن؛

وأسس عدة مدارس ونوادي ومساجد، فالمدارس للناشئة من الجنسين، تتلقى فيها دروس الدين والأخلاق وقواعد اللغة العربية والتاريخ الوطني والإسلامي، والأندية للشباب تجمع شتاته، وتقيه شر الفساد والضياع وتعيد إليه ثقته بنفسه وبدينه، ووطنه، وقومه، بما يسمعه من محاضرات وندوات في التربية والتوجيه الديني والوطني، أما المساجد فهي لجمهور المصلين المتعطشين لسماع دروس الفقه، ودروس اليقظة والحياة المستوحاة من روح الإسلام.

عاش عمره عزوفا عن الوظائف والنياشين والعمل لمصلحة نفسه وعائلته حتى توفي يوم 8 ربيع الأول سنة 1359هـ الموافق لـ 16 أبريل سنة 1940 وعمره - كما ترى - قصير ولكنه بعمله الدائب النافع كان من أطول الأعمار، بل لعمره بداية وليس له نهاية، فهو بعد موته أشهر منه خلال حياته، وصدق الشاعر في قوله:

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكـر للإنسـان عمـر ثـان

• من وحي تكريم الإمام[1]

والذي نستوحيه من جهاد الإمام ابن باديس العلمي والإصلاحي، ومن حياته مع إخوانه العلماء الذين ناصروه وشدوا أزره، ومما قيل في حفل الختم من صور التمجيد، أمور كثيرة، بعضها جوهري، وبعضها الآخر عرضي أو هامشي، ولكن له وزنه في الدلالة والإبانة، والتحديد والتقويم، وإذا كان تتبع ذلك وتقصيه يوسع المجال، ويمدد الحبل فلا أقل من عرض بعضها فيما يلي:

---

(1) هذا العنوان خصصنا به بعض المكرمين رغبة في إفادة القارئ بما أوحت به من معاني وأسرار.

أولا : كلمة الإمام ابن باديس التي ختم بها الحفل كانت درسا في التواضع والاعتراف بالجميل لكل من ساهم في تكوينه أو أعانه على أداء رسالته في التعليم والإصلاح من والديه وشيوخه وأمته الأصيلة التي طبعت على حب الخير، والتطلع إلى الكمال، والنزوع إلى حياة يتقدم فيها العلم، ويزدهر الأدب، وترتقي الحضارة.

والتواضع والاعتراف بالفضل لأهله من شيم النفوس الكبيرة، والهمم العالية، وقد ندر في هذا العصر إلى حد يثير الأسى والحزن، فقد حدثني غير واحد من الأساتذة الجامعيين وغيرهم أنهم يتلاقون مع طلبتهم بعد انتهاء دراستهم فيعرض عنهم هؤلاء ويزورّون عنهم ويتجاهلونهم كأنهم لم يعرفوهم.

ويحضرنا في هذا المقام ما حدثنا به المرحوم الشيخ محمد كتو من صور التواضع والاعتراف بالجميل، وخلاصته أن العلامة الشيخ الفاضل ابن عاشور وهو ما انتهى إليه فخر التونسيين في العلم والمعرفة، رآه ذات يوم ينزل من عربة الجياد ويسير بخطى سريعة وراء شيخ طاعن في السن، وحينما التحق به قبّل يده ثم رجع إلى عربته والناس في دهشة مما شاهدوه! عالم كالفاضل الذي يلقّب بالبحر ينزل من العربة ليقبل يد شيخ، لا يدل مظهره إلا على البساطة : عمامة مكورة على رأسه الحليق، وجبة جرداء على جسمه البدين، ولحية كثيفة بيضاء، كادت تغطي وجهه، وعصا طويلة تسبقه في الطريق، هذا يقبل يده من طبقت شهرته الآفاق؟

ولما التحق به أحد المشاهدين وسأله، قال له: كنت علمته سورا من القرآن في طفولته، ومن هنا كان لا يراني إلا وقبل يدي!

إن العلماء كثيرون في الجزائر وفي مختلف الأقطار العربية الإسلامية، ولكن العلماء الذين حباهم الله بالأخلاق الكريمة قليلون، وهذا ما يؤكده الواقع المعيش مع الأسف الشديد!

وإذا كان المرحوم الدكتور مصطفى السباعي قد أوجز القول في أخلاق العالم : «بأنها خشية من الله، وإشفاق على الناس، ونصح لأولي الأمر، ووقوف في وجوه الطغاة، وتجرد عن حظوظ النفس وشهواتها، ويقظة في مداخل الأمور ومخارجها، واستهانة بالأخطار في سبيل الله عز وجل»[1] فإن ابن باديس كان مثالا لهذه الأخلاق، بأوسع معانيها وأعمق دلالاتها، ومن ثم كان كل من درس عليه، أخذ نصيبه من هذه الأخلاق.

ثانيا : كان الشيخ عبد الحميد يعتز بكونه معلما ويرى أن تأليف الرجال قبل تأليف الكتب، وقد أجاب من سأله ذات يوم في شأن التأليف:

«إن الشعب يا بني ليس اليوم بحاجة إلى تأليف الكتب بقدر ما هو في حاجة إلى تأليف الرجال.. هب أني انصرفت إلى التأليف، وانقطعت عما أنا اليوم بصدده من نشر العلم، وإعداد نشئ الأمةفمن يقرأ كتبي، وتآليفي؟ مادام الشعب في ظلمات الجهل والأمية؟ إن إعداد معلم كفء يتصدى لمحاربة الجهل الفاشي في ربوعنا لخير لمجتمعنا من ألف كتاب تحفظ في خزائن إلى أن تبيد وتبلى!

إن مرحلة التأليف آتية لا ريب فيها، لأن نهضتنا لا تكمل ولا تأخذ طريقها إلى الازدهار إلا إذا شددنا أزرها بكتب علمية تحمل روح العصر من أن تقطع الصلة بالماضي، إننا مازلنا اليوم في مرحلة التعليم والتكوين

---

(1) أخلاقنا الاجتماعية، ص199.

(فلنتعلم لنعلم) والحق أنني لا أشتغل بالتعليم وحده، بل أباشر أعمالا أخرى كثيرة صحافية وغيرها، فأكتب المقالات، وألقي المحاضرات، وأخطب في مناسبات، وأقوم بإلقاء دروس عامة في التفسير، وفي نشر الدعوة الإصلاحية»[1].

وهكذا كان الإمام عبد الحميد حريصا أشد الحرص على تأليف الرجال، فألف معلمين ماهرين، ودعاة مصلحين، وخطباء مفوهين، وأبطالا وزعماء، فكل الذين مجدوه في خطبهم وقصائدهم هم من تلامذته، أو جلهم على الأقل، وطابع الصدق والإخلاص باد على كل كلمة قالوها، بل كل كلمة تتفق مع نبضات قلوبهم في النبض والحرارة لأنهم على الصدق والإخلاص والمحبة رباهم أستاذهم!

يضاف إلى ذلك مستواهم العلمي والأدبي، فقلما تجد له مثيلا في عصرنا، عصر الجامعات والمعاهد المختلفة، تراكيب متينة، أسلوب قوي مشرق، معان كريمة سامية، وعربية نظيفة لا تجد فيها ما يرضخ لنقد نحوي، أو صرفي، وخيال واسع خصب يحلق في أجواء بديعة طلقة، هذا مستواهم لأنهم كانوا يدرسون العلم للعلم لا للشهادات كما هو شأن المتعلمين اليوم أو جلهم، وكانت اللغة العربية لغة مقدسة يعد تعلمها شرفا، واللحن فيها عيبا بل جريمة ووصمة عار!

وللتاريخ نسجل في غاية من الطمأنينة أن الإمام عبد الحميد صنع بالتربية والتعليم جيلا يفخر به التاريخ، وتزهو به الجزائر عبر العصور والأجيال، ويعتبر عصره عصرا ذهبيا «أشرق إشراق الشمس، وأقبل إقبال الربيع، فيه الحرارة والنور، وفيه النضارة والخصب»، وأن تلك

---

(1) عن أوراق كتبها الأستاذ باعزيز بن عمر عن أستاذه ابن باديس وأهدانا صورة منها.

الحلقات العلمية لم تخرج أجيالا من العلماء والأدباء والخطباء فحسب، بل ألفت بين قلوب المواطنين من الحاضرة والبادية وصبتهم في بوتقة واحدة، وفي هذا يقول الشيخ:

«إن وطننا الجزائر واسع الأطراف، متعدد المناطق والبيئات، حتى كاد يستقل بعضها عن بعض، فوجب علينا أن نربط بين حاضرته وباديته، بما لدينا من وسائل الاتصال، حتى نقرب بينها تقريبا يجعل المواطنين يتعارفون ويتعاونون كأبناء وطن واحد، وإن من جملة الوسائل التي تساعد على تحقيق هذا الهدف في مطلع نهضتنا العلمية، هذه الحلقات التي استطاعت بفضل الله أن تجمعكم (يعنى طلبته) من عدة جهات لا فرق بين من قدموا من الحواضر، وبين من قدموا من البوادي، وإني لأكون فرحا مغتبطا حينما ألتفت حولي فأجد أبناء الصحراء بجنب أبناء الجبال، وأبناء الحاضرة بجنب أبناء البادية، والجميع قد جمعتهم هذه الحلقات العلمية في صعيد واحد لا فضل لأي منهم على الآخر إلا بالاجتهاد والعمل»[1].

وكانت العربية في عصره مزدهرة بفضل دروسه وتوجيهاته، وبفضل إيمانه واقتناعه بأن «الأمة الجزائرية حية طالما أنها محافظة على دينها ولغتها» و «ما ذلت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار»، يقول الأستاذ باعزيز ابن عمر في مقال له بعنوان: (سهولة العربية وصعوبتها»: «وإني لأذكر أن أستاذنا عبد الحميد بن باديس كان يحثنا - ونحن في حلقات دروسه - على التزام الفصحى في مناقشاتنا وأبحاثنا، لما في ذلك من تدريب للألسنة على التخاطب، وللأقلام على الكتابة، كما

(1) المصدر السابق.

كان يوصينا أن لا نسير على نهج بعض الشيوخ في تدريس النحو والصرف بالعامية، ومما قاله لنا ذات يوم: «إن الاستعمار حاول مرارا عندنا أن يوهم الناس بأن اللغة الفصحى لم تعد صالحة في هذا الزمن، فقرر تعليم العامية في برامج مدارسه بدلا من الفصحى.. ولكنه ما لبث أن فشل في محاولته، ولاسيما بعد أن رأى أن الفصحى قد أصبحت لغة الصحافة والخطابة والمدرسة، فعدل عن خطته وأبقى عليها في مدارسه الرسمية المزدوجة، وزاد فسمح لها بالظهور في برامج إذاعته»)[1].

ثالثا : يلاحظ أن بين الإمام ابن باديس وبين إخوانه العلماء الذين ناصروه، وتعاونوا معه في بناء صرح النهضة العلمية والإصلاحية عروةً وثقى تربط بينهم لولاها ما نجح الإمام في دعوته!

كانوا جميعا وحدة متماسكة العناصر، متكاملة، يعملون جميعا بإلهام الروح، ووحي العقيدة، ويقظة الضمير، وصدق الوطنية، وحب العلم والمعرفة، والرغبة الملحة في نشرهما وبذر بذورهما، فلم يكونوا يستلذون غير الجهاد بالفكر والقلم واللسان، ولم يكونوا يشعرون بالراحة إلا في العمل الجاد المثمر، وإذا كان غيرهم يبتهج بيوم عطلة، فهم يبتهجون بيوم عمل لأنهم فيه وبه يحققون وجودهم، ويضيفون لبنة إلى لبنات في صرح النهضة الجزائرية، إنهم كانوا يُحارَبون من الاستعمار ولكنهم لا ينهزمون، ويُستذَلون ولكنهم لا يذلون، ويُعوقون ولكنهم لا يضلون ولا يفشلون، فكانت حياة كل واحد منهم حركة دائبة وعملا متواصلا، حتى يلتحق بربه!

---

(1) عن مجلة : «لمحات»، عدد 2، ص1، عام 1968.

رابعا : كم في الجزائر من جوامع هي أوسع وأفخم من الجامع الأخضر بقسنطينة، ولكنها لم تحظ بما حظي به من الذيوع والشيوع والشهرة، لأن العبرة ليست في سعة الجوامع وشموخها، أو جمالها ورونقها، وإنما العبرة فيما يتحقق فيها من الأعمال النافعة الجليلة، ويحرر فيها من صفحات المجد!

إن فضل هذا الجامع البسيط في مظهره مستمد من فضل القرآن الكريم الذي ظل خمسا وعشرين سنة يفسر في رحابه، وفضلِ الدروس العلمية المختلفة التي كانت تلقى في أرجائه، وفضلِ هذا المصلح المجاهد الذي ارتفع حبه لوطنه ودينه ولغته إلى مقام العقيدة الدينية الصوفية، فاتحد وجوده بوجودها، وكان طوال عمره يبذل ولا ينتظر العوض، ويضحي ولا يفكر إلا في ثواب الله وأجره، و فيغد الجزائر الوضيئ المشرق!

وما قلناه في هذا الجامع، البسيط في مظهره، العظيم العملاق في جهاده ونضاله وأثره، نقوله في الإمام عبد الحميد فهو نحيف الجسم، ضعيف البنية، قليل الغذاء غالبا ما يقتصر في طعامه على حبات من التمر، وقطعة من الخبز، وكأس من الحليب، ومع ذلك كان يواجه عدة جبهات يضعف أمامها القوي العملاق. وقد ذكر لي أحد تلامذته وهو الشيخ علي مرحوم رحمه الله: أنه يلقي محاضرات، ويحرر في الصحف، ويخطب في مناسبات، ويلقي مختلف الدروس واحدا تلو الآخر إلى أن يختمها بدرس التفسير إثر صلاة العشاء، وقد يصل عدد هذه الدروس إلى 13 درسا في اليوم أحيانا.

وخلال شهر رمضان المعظم يزداد نشاطه في العمل فيضيف إلى دروسه المألوفة درسا في شرح متن صحيح البخاري قبل صلاة الظهر رغبة منه في إفادة جمهور المصلين إلى جانب الطلبة.

كما نلاحظ أن الإمام تخرج من جامع الزيتونة بشهادة التطويع، وما أكثر من درسوا معه وتخرجوا بهذه الشهادة، ولكن ما كان لواحد منهم ما كان لابن باديس من همة عالية، وطموح بناء، وأثر فعال، وحياة خصبة، وسمعة واسعة طبقت الآفاق، فالعبرة إذن ليست في قوة البدن، ولا بالشهادات العلمية العالية، وإنما العبرة في الإنسان نفسه، فيما يختصه الله به من مواهب واستعدادات، ومن الهداية والمعونة والتوفيق. فمن رزق الحجا والهدى فقد رزق خيرا كثيرا.

خامسا : بارك الله في عمر الإمام رغم قصره فحقق فيه من جلائل الأعمال ما لا يتسع لإنجازه إلا قرن كامل أو أكثر، فقد يعزو البعض هذا إلى إدراك الشيخ لقيمة الوقت وحسن استغلاله، وتنظيمه، وأنا مع هذا البعض في رأيه، ولكني لا أجد تعبيرا عنه خيرا من أنَّ الله تعالى بارك في عمره فكان خصبا ثريا متصل الأثر من يوم أن نزل الميدان، وسلاحه العلم والمعرفة، والرغبة الشديدة في خدمة الوطن، بخدمة وطنه ودينه ولغته، إلى أن رحل إلى الباقية، وقد أقام حياته الجهادية على الكتاب والسنة، ومن ثم جعل الله في وقته وتفكيره وعمله بركة وأية بركة.

سادسا : من بركة الإمام أن تفسيره للمعوذتين الذي ختم به القرآن الكريم تفسيرا استمر ساعتين كاملتين وكان صوته حينما أشرف على النهاية كصوته في البداية قوة وارتفاعا، وقد جلس قريبا من الإمام العلامة الشيخ الصالح بن الموفق - القاضي المتقاعد بالخروب، وروى أن المسجد كان غاصا بالمدعوين وكانوا جميعا يواكبون الدرس في سماع جيد والبعيد في ذلك كالقريب[1].

(1) انظر «الشهاب»، العدد الخاص باحتفال ختم التفسير الكريم.

ولِما تقدم كله - وهو بعض ما يجب أن يقال في ابن باديس - كان جديرا بهذا التكريم، وكان هذا التكريم في موضعه، لأن التكريم في شخص ابن باديس وأمثاله معناه تكريم العلم والمعرفة، وتكريم القرآن ورجاله العاملين، وتكريم اللغة العربية وحماتها والغيورين عليها، وتكريم «الثكنات المحمدية التي تدافع عن الإسلام وأسلحتها المصاحف لا القذائف، ووسيلتها الحياة لا الموت، وغايتها الخير للناس جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم».

والذي يثير الأسى في هذا العصر أن التكريم كثيرا ما يفقد معناه، ويضيع الهدف منه، عندما يكون في غير موضعه ويتحول عن مجراه فيصبح عنوانا على غير مسمى!

فعوض أن يكون التكريم وسام شرف لا يوضع إلا على صدر من هو جدير به من أهل العلم والمعرفة، الذين جاهدوا بأفكارهم وأقلامهم وألسنتهم، واحترقوا من أجل أن يستضيئ الناس، أو من أهل الشجاعة والبطولة الذين ارتفعت الوطنية في نفوسهم إلى مقام العقيدة الدينية الصوفية - كان لاعتبارات أخرى، سياسية، أو جهوية، أو لأغراض أخرى!

إن التكريم يجب أن يكون دليلا وعلامة على الكفاءة والتفوق في ميدان ما، وشهادة على نوعية الوزن الشخصي للإنسان. أما أن يكون التكريم على عكس ذلك، فشيء يثير الأسى بحق، ويدعو إلى الرثاء لمن سنوا التكريم ولمن يكرِّمون ويكرَّمون.

فلو أن التكريم يراعَى فيه من المقومات ما روعي في ابن باديس لقل التكريم، وصار غاية الأمنيات، ومنتهى فخر المفتخرين!

■ تكريم العلامة الإمام الشيخ محمد الطاهر[1] بن عاشور

● تمهيد

كان الشيخ الطاهر على رأس مشيخة الجامع الأعظم ثم غادرها ليتولى القضاء في يوم 26 رمضان عام 1331هـ، ثم منصب شيخ الإسلام المالكي، وقضى فيهما مدة طويلة كان خلال نهوضه بهما مثالا للعالم العامل الذي صقلته متانة العلم، وقوة البحث، وغزارة المادة، وانصهر في بوتقة التمحيص، وكانت له ملكة الموازنة والترجيح، فكان بذلك يمارس عمله على مقتضى ميزان الله، شرعا وتطبيقا وسلوكا!

ثم عاد إلى مشيخة الجامع وتسلم مقاليد الإدارة الزيتونية يوم غرة فبراير سنة 1945 فرأى بفكره الثاقب، أن يمهد للإصلاحات التي اعتزم إدخالها في مفتتح السنة الدراسية، فأنشأ إدارة للمدارس كلف بها المصلح الغيور على دينه ووطنه الشيخ الشاذلي بن القاضي، وأبرز مجالس التأديب إلى العمل الجدي، ولم يقتصر على تحسين حالة الزيتونيين بل رأى أن يرحل إلى الفروع التي ظلت طويلا منقطعة في أصلها. وكانت تلك المرحلة ميمونة مثمرة، حيث نتج عنها انخراط عدد كبير من الطلبة في سلك التعليم الزيتوني بالفروع، ووعد الشيخ بإنجاز مشاريع هامة تحققت كلها رغم الصعوبات التي كانت تواجهها، وتعترض سبيلهاَ.

---

(1) القاعدة أن ألف (ابن) تثبت إذا وقعت بين علمين والثاني ليس أبا للأول (كالطاهر ابن عاشور) و(عبد الحميد ابن باديس) ويسقط إذا كان أبًا له، وجل المثقفين يحذفون الألف في (عبد الحميد بن باديس) وهو خطأ!

وبفضل تلك الإنجازات الخطيرة والإصلاحات الهامة التي لا بد منها لمواكبة العصر، ومماشاة التطور من أجل حياة أفضل، انتعش الجامع الأعظم، وأخذ نوره يستفيض، وبذوره تتنوع، وسحبه تنساق إلى النفوس الظمأى فتُروى، وإلى البلاد الميتة فتُحيى، ولأول مرة تحدُث دروس في الفنون الآتية: الموسيقى- التصوير النظري- التصوير الهندسي - مبادئ الفرنسية - الاختزال الفرنسي - الاختزال العربي - التمثيل - وهذه الفنون تدرس خارج الجامع الأعظم وتقوم بها جمعية الإخوان الزيتونيين[1].

وفي غرة فبراير مساء سنة 1946 أقامت جمعية الإخوان الزيتونيين حفلا كبيرا بهيجا في قصر الجمعيات بتونس ابتهاجا بعودة الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور إلى جامع الزيتونة، وتكريما له على جهاده العلمي الواسع الذي أقام ركنه العقلي والأدبي على كتاب الله تعالى، وسنة نبيه، واللغة العربية، ذلك الجهاد الذي أثمر عهدا زاهرا لم يعرف نظيره جامع الزيتونة إلا في عهد الإمام، فكان جامع الزيتونة في عهده كما قال المرحوم حسن الزيات في الأزهر: «كلمة من الكلم النوابغ الجوامع في لفظها استيعاب ووعي، ولمعناها إشعاع ووحي، فهي زمان، ومكان، ودين، ودنيا وتاريخ».

جاء في الحديث الوصفي للاحتفال البهيج ما يلي:

«كان المسرح مكتضا بما ينيف عن الألفي نسمة من طلبة الجامع المعمور، عدا الجم الغفير من الأساتذة الزيتونيين ومن رجال الأمة وسراتها من مختلف المشارب الثقافية...

---

(1) انظر هذا بإفاضة في «المجلة الزيتونية»، ج8، م6.

افتتحت الحفلة بتلاوة آيات من الكتاب الكريم.. ثم ارتفع الستار عن طلعة المولى سيدنا محمد الطاهر ابن عاشور، متوسط العقد العلمي النضيد من المشائخ الجلة والسادة الخطباء والشعراء، وكان على يمينه العلامة الشيخ سيّدي مختار بن محمود، والأستاذ الطيب العنابي، والأستاذ المؤرخ محمد الصالح المهيدي، والأديب الشاعر جلال الدين النقاش، وعن شماله السيد التهامي عمار رئيس لجنة الدفاع عن مدرسي الفروع الزيتونية، والأستاذ التهامي الزهار، والشيخ الصادق ابسيس».

وها هي أسماء الخطباء والشعراء حسب تعاقبهم على منصة الخطابة:

- **الخطباء والشعراء:**

- الأستاذ أحمد بن محمد القروي رئيس الجمعية الزيتونية.
- العلامة الشيخ محمد المختار بن محمود.
- الشاعر الملهم الأستاذ جلال الدين النقاش.
- الأستاذ التهامي الزهار.
- الأستاذ الطيب العنابي.
- الشاعر الأستاذ محمد التهامي عمار.
- الشيخ التيجاني بوراوي.
- الشيخ الصادق بسيس
- الأديب الشاب محمد كروس.
- الشيخ محمد المازوني.
- الشاعر محمد الصالح الشتوي
- الأديب الشاب علي بن رمضان الشابي.
- الشيخ بوعلي الغربي.
- الأستاذ العلامة الشيخ الناصر الصدام.

- الأديب الشاب صالح عباس.

- المؤرخ الكبير محمد الصالح المهيدي.

- الإمام المحتفل به الشيخ الطاهر بن عاشور.

• لقطات من خطبهم وقصائدهم:

وفيما يلي فقرات من كل خطبة، وقطع من كل قصيدة ألقيت في هذا الحفل التكريمي رغبة في إفادة القارئ الكريم، وتماشيا مع منهاجية الكتاب، وتحديدا لمكانة الإمام المحتفل به في القلوب والنفوس[1]:

من خطبة الأستاذ أحمد بن محد القروي:

«يا صاحب الفضيلة... لأول مرة في تاريخ تونسنا العزيزة تقام ذكرى إحيائية، ولأول مرة يدخل جامع الزيتونة العظيم بمديره، ولأول مرة يدخل تحوير جدي على التعليم الزيتوني، ولذلك قررت جمعية الإخوان الزيتونيين القيام بالذكرى: ذكرى مرور عام على تأسيس جمعية الإخوان، ذكرى مرور عام على دخول جامع الزيتونة في عهده الجديد، ذكرى مرور عام على عودة المصلح الكبير، والشيخ العبقري، رمز النشاط والإصلاح والإقدام فضيلة الأستاذ الإمام سيدي محمد الطاهر بن عاشور..».

وجاء في الخطاب أيضا:

«تقوم جمعية الإخوان بهذا الاحتفال إكراما لفضيلتكم، واعترافا بخدماتكم للزيتونة، والصراحة تدعوني إلى القول بأننا ما كنا لنقوم باحتفال لو لم تقوموا بما قمتم به نحو كليتنا من أعمال إصلاح سيحفظها التاريخ لجنابكم مدى الدهور..».

---

(1) مصدر هذه الخطب: المجلة الزيتونية: العدد الخاص بالتكريم: الجزء الثامن، المجلد السادس ربيع الأنور، بلا تاريخ.

وقال في ختام خطابه:

«يا عميد كليتنا العزيز، إن جميع الإصلاحات التي أدخلتموها على الجامع جميلة مرضية واننا نرجو أن تتقبلوا منا هذه الملحوظات التي رائدنا بها الإصلاح وإخراج الزيتونة من عصور القرون الوسطى وجعلها تتماشى مع تيار القرن العشرين!».

ثم قدم مجموعة من الاقتراحات ختمها بهذه الرغبة:

«نرغب من فضيلتكم تبجيل إخواننا الجزائريين علينا في المسكن والملبس وجميع ما يلزم الطالب، لأنه من الواجب علينا أن نجعل الطالب الجزائري يشعر بأنه بين إخوانه وأهله!».

وختم خطابه بقوله:

«أيها الشباب النبيل فلنتحد لخدمة جامع الزيتونة واللغة العربية ولنناد بأعلى صوت: ليحيا جامع الزيتونة، لتحيى اللغة العربية وليحيى شيخ الجامع».

من خطبة الشيخ محمد المختار بن محمود:

أيا شيخ الإسلام وقدوة أمة
مقامك أعلى من مديحي وأعظم
عهدناك قبل اليوم تشكو تأخرا
فها قد أتاك الأمر والدهر باسم
وحفّت بك الألطاف من كل جانب
وحولك أنصار شداد أكارم
يسيرون في عزم وحزم إلى الذي
تراه سدادا والمهم المقدم

بهذه الأبيات الواضحة السهلة استفتح العلامة المختار بن محمود خطابه، وهي أبيات تنم عما يكنه للإمام ابن عاشور من الود والوفاء والإخلاص والتقدير، لأن العلاقة بينهما علاقة أب عطوف بابنه البار، فهو من معين الإمام استقى، وعلى دربه استقام، وفي ظله ظل يثمر أشهى الثمر وأطيبه.

ثم قال:

ما كنت أظن أن تسعدني الأقدار بمثل هاته الساعة التي بتاح لي فبها أن أتشرف بأن أكون خطيبا في الاحتفال بمرور عام على إسناد مشيخة الجامع الأعظم وفروعه إلى سيدي وأستاذي الجليل الشيخ سيدي محمد الطاهر ابن عاشور، فإن لي من شرف الانتساب إلى هذا الأستاذ الجليل فخرا أعتز به، وأعدُّه أكبر مغنم غنمته، وأثمن شيء اكتسبته، فقد انتسبت إليه زهاء ربع قرن، واغترفت أثناء ذلك من بحر علمه وفضله ما أراني منتفعا به في كل طور من أطوار حياتي، وقد لازمته في الدراسة مدة لم يتح لغيري أن يلازمه مثلها، وقرأت عليه من الكتب: المختصر والمطول، ودلائل الإعجاز، وديوان الحماسة، والموطأ، وتفسير القرآن، ورويت عنه من الحكم والآداب ما يقارب سفرا، ولازمته في الدرس عشر سنين كنت أجتمع به خلالها بمعدل ساعتين في كل يوم من أيام الدراسة.

وشاهدت فيه من مكارم الأخلاق، واللين في القول، والصدق في المعاملة، وشدة العزيمة في العمل، وانتهاج المناهج الصحيحة في الفكر، وصدق النظر إلى الأشياء والترفع عن السفاسف والسخافات التي مُلئت بها عقول كثير من الناس ما جعلني أزداد به كل يوم إعجابا وأنشد عليه قول ملحمة الجرمي:

فتى عزلت عنه الفواحش كلها ... فلم تخلط منه بلحم ولا دم

ثم إنه كان كلما ارتفع شأنه وتدعمت أركانه، يزداد تواضعا ولينا، ومن شأن النفس البشرية إذا أحسّت بشيء من السطوة والنفوذ والمكانة، أن يحيط بها الغرور، ويتحكم فيها الغرور، ولكن سيدي الأستاذ الجليل، كان بعكس ذلك، فهو يقاوم تلك النزعة البشرية التي أضرّت بكثير من الناس، بالمبالغة في الإكرام والملاطفة، وبالمحافظة على حسن العهد.

فتى زاده السلطان في الحمد رغبة إذا غيــر السلطـــان كل خليــل

وجدير بمثل هاته الشخصية النادرة أن تعلق عليها آمال، وتفرض عليها تكاليف، وتناط بها حقوق، ويعهد إليها بمستقبل أمة.

وجدير بمثل هاته الشخصية النادرة في مقابلة ذلك أن تتهيأ لمحن وابتلاءات، وأخطار وآفات، فالناس أعداء ألِدّاء لأصحاب النبوغ، ومعاول هدم وتحطيم لآمالهم وأعمالهم، وهكذا الشأن في كل عاجز مهين، أن يقاوم كل من يريد أن يعمل عملا صالحا حتى لا يترك له مجالا للتفوق عليه.

وفي مثل هذا المقام، تتجلى حكمة الله من قوله: «**ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم**»، وهنا يقع الامتحان وتتجلى الحقائق، وتظهر قيم الناس، فأما من يعبد الله على حرف، فإنه لأقل ابتلاءً تخور عزيمته وتضعف قواه، ويتأخر ثم يتقهقر ثم ينزوي ثم يموت ميتة الأحياء.

وأما قوي الإيمان، صادق العزيمة، فإن هذه الابتلاءات تكون سببا في رسوخ إيمانه، وثبات جنانه، ويكون كما قال الله تعالى: «وكأيِّن من نبي قُتِل معه ربِّيُّون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعُفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين».

وهذا ما رأيناه من حضرة الأستاذ الجليل، فقد مرّت به أحداث ويالها من أحداث فصبر لها وصابر ورابط واتقى الله فكان الفلاح حليفه وهكذا الأنبياء يغلبون ثم تكون لهم العاقبة.

وبعد أن تحدث الأستاذ الخطيب عن صدى عودة الإمام إلى الزيتونة، في مختلف الأوساط العلمية والثقافية والأدبية، داخل الوطن وخارجه، وعن همة الإمام الشامخة العلياء، التي قاد بها إلى العمل من أجل إصلاح الزيتونة وترقيتها، وعن المشاريع الهامة التي أنجزها، والتي ينوي إنجازها، ومن النقائص التي يعمل على تداركها، لاحظ -رحمه الله- أن هدف التعليم الزيتوني الأسمى هو (الارتفاع بمستوى التفكير حتى يأتي التعليم بالنتيجة المرجوة منه، إذ لا يخفى عليكم أن آخر ما استقر عليه رأي الباحثين في شؤون التعليم في العالم في تقرير الغرض من التعليم هو ما كان قاله مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه: «ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

(ومعنى ذلك أن الغرض من العلم هو تكوين الأفكار الصحيحة والتصورات السليمة والاقتدار على القيام بأعباء جميع الشؤون والاضطلاع بمهمات الدولة، إذ بدون ذلك يكون التعليم ضعيف النتيجة أو عديمها، وهذا ما نؤمل أن يكون البرنامج الجديد متكفلا بتحقيقه بحول الله، ولكن يلزم لذلك الوقت الكافي لظهور النتائج المرجوة فليس من السداد ولا من الإنصاف أن يحكم على هذا البرنامج إلا بعد مرور الزمن الذي من شأنه أن يكفي لتحقيق ذلك).

ثم تحدث الأستاذ الخطيب عن وضع الأساتذة بالجامعة الزيتونية وكيف كانوا المرجع في كل شيء، وبيدهم مقاليد السلطة والنفوذ، وعلى

كواهلهم يقام نظام الدولة، ونهضوا بالأعباء التي أنيطت بعهدتهم خير نهوض، وبيضُوا بذلك وجه التاريخ التونسي، وضرب لذلك مثلا (بالرجل الذي قاد السياسة بتونس في بداية عهد الحماية الذي هو من أشد أطوار تاريخ هذه البلاد تعقدا واضطرابا، هو العالم الفقيه الأصولي الشيخ محمد العزيز بوعتور الوزير الأكبر الذي بقي في الوزارة الكبرى ربع قرن سار فيه بالبلاد بحكمة وروية وأناة، وأمكن له بعقله الراجح وثقافته الزيتونية المحكمة أن يسير بالبلاد المضطربة المنهجة[1] إلى ساحل النجاة كلما هبّت العواصف واضطربت الأمواج).

(ولما رجع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى مصر من رحلته إلى تونس عام 1322هـ أفضى بتصريحات عن الحالة بتونس، فكان أول ما لفت نظره واسترعى اهتمامه ما عليه الزيتونيون من ارتقاء المناصب العليا وكون مقاليد الدولة بأيديهم، وحرض الأزهريين على أن يصلوا إلى ما وصل إليه الزيتونيون، ولكن ويا للأسف قد أخذ هذا الأمر يضعف شيئا فشيئا وصارت مقاليد السلطة تنزع من يد الزيتونيين وأخذت الأيدي الآثمة تستنجد بالأسكندر ذي القرنين ليقيم الزيتونيين سدا يحول بينهم وبين الوظائف العالية كذلك السد الذي أقامه في وجه يأجوج ومأجوج، فأجاب الأسكندر وأحضروا له زبر الحديد ونفخ ونفخوا وأفرغ عليه القطر وجربوه فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا.

عند ذلك تمت الحيلة وأبعد الزيتونيون وأعان على إبعادهم أفراد وطنيون تونسيون وسوّل لهم شيطانهم أن يبتكروا عاهة للزيتونيين تقضي عليهم القضاء المبرم وهي جهلهم باللغة الفرنسية).

---

(1) هكذا في الأصل، وهي غير واضحة.

وتحدث الأستاذ الخطيب عن مكانة العالم في الأمة وفي الميدان، وأن رسالته هي رسالة الأنبياء، والرسل، ومن هنا وجب أن تعرف مكانته، وتقدر رسالته، وأن يناهض كل من تسول له نفسه أن ينال منه، أو يحط من قيمته، أو يصده عن سبيله، ولو كان هذا من أبناء الوطن، بل يجب أن تكون مقاومته أشد وأعنف، واستشهد بهذه الأبيات لشاعر الحماسة أوس بن حفناء:

إذا المرءُ أولاَكَ الهوانَ فأوْلِــه   هَوانا، وإن كانت قريبا أواصِــرُهْ
فإن أنت لم تقدرْ على أن تُهينَه   فذرْه إلى اليوم الذي أنتَ قــادرُهْ
وقاربْ إذَا ما لم تكن لك حِيلةٌ   وصمِّم إذا أيقنتَ أنــك عاقِــرهْ

وختم خطابه بقوله:

(واعلموا أن الله تعالى قد منَّ عليكم بأن جعل على رأس جامعتكم الكبرى رجلا دانت له رقاب العلماء شرقا وغربا ومقالته مرجع لكبار العلماء، فقد كان خاطبني العلامة الجليل الشيخ مصطفى صبري أحد مشائخ الإسلام بتركيا بمكتوب صرح لنا فيه بأن المقالات التي ينشرها فضيلة أستاذنا الأكبر بالمجلة الزيتونية في تفسير القرآن يطالعها باهتمام ويستفيد منها كثيرا.

وأستاذنا أبقاه الله يصرف جميع أوقاته في صالحكم؛ وفي الدفاع عنكم وينزلكم من نفسه منزلة الأبناء من الأب البر الرحيم ويحن عليكم حنو المرضعات على الفطيم[1].

(1) نذكِّر القارئ الكريم بأن كل النصوص التي قيلت في تكريم الإمام الشيخ الطاهر ابن عاشور مأخوذة من المجلة الزيتونية، العدد الخاص بهذه المناسبة.

وقال الشاعر الكبير جلال الدين النقاش:

كعبة العلم عادُ عِيدُ مناها فاركب الشمسَ وافتخر يا فتاها
وتحدث بعزة بلغتها يقف النجم عن بلوغ مداها
وتمثل جلالها في حمى التا ريخ نورا يشع مجدا وجاها
وتأمل وقوفها في مجاري الد هر كالطود شامخا تياها
صمدت للزمان ما نال منها قط أوسام مجدها وعلاها
كعبة بارك الإلاه حماها سجد الفاتحون فوق ثراها
ليت شعري وللخيال عيون تتخطى القرون رغم انطواها
نبئوني أفي الرحاب عبيد اللّه يختطها ويعلي بناها
أهو «ابن الحبحاب» ذك وها ذي حجرة الأس في بدية أراها ؟
أدرى القائد المظفر ماذا خط ؟ بل أي قبلة أنشاها ؟
رضي اللّه عنه من تابعي شاد مجدا في الدهر ليس يضاهى
وبنى كعبة أفاضت من الأنوا رما لا يحد أو يتناهى
كعبة فجرت ينابيع علم وأصابت بها النفوس ارتواها
وتخطت على العصور وهزت في مجال العرفان عالي لواها
أشرق الدين ساطعا من سماها وأضاء اللسان في منتداها

ويقول:

لو تصورت غرة الأمس منها وسنا فجرها يشق دحاها
لتجلت إليك صفحة عز حلبت بالنبوغ من مبتداها
فإذا البيت وهو روض نضير والغوادي تجوده بحياها

وإذا ورد العلـــوم الصـــواري حوم بالرحاب تروي صـــداها
وإذا الخوض في موطأ "الإمام" الفذ والقـوم خاشعـــون انتباهـــا
وإذا هالــة الجلالـــة حفـــت غرة الشيخ والمشيب علاهـــا
وإذا أنت في حمى "ابن زيـــاد" طــــود إفريقيـا ونبـع هداهـا
فاخفض الطرق عند مرأى "علي" وافتح الصدر للعلوم اكتناهـــا
"ملك" اردع "الموطأ" كنـــوزا و"على" إلى العقـــول جلاهـــا
وبزيتـــونة المعاهـــــد أفضى بالخفي الجليـــل من معناهـا

ويقول:

ثم قلب صحيفة الأمس وانظـر كعبة العلم تزدهي في ضحاهـا
واشهـد النهضـــة التي بلغتهـا وانتهـت في العلى إلى منتهاهـا
من يدي سابع القرون تلقـــت صولجان المنى وحيت رجاهـا
وجرت في مجال قرطبة الغـــرا وبغـداد في ربيــع صباهــــا
فإذا قبلة الثقافة في الخضـــراء والنابغــــون هــــم أبناهــــا
ولـــواء العلـــوم يعقـد للبيـت وأهـل اللســـان تبدي اتجاهـا
مرجع الفول "لابن عرفة" لمـا خـط فيهـم حـدوده وتلاهــــا
و"ابن عبد السلام" أملى من التحقيق ما فيـه للنفـــوس شفاهــــا
و"ابن عصفور" في النحاة تسامى ولـه أخضـع النحـاة الجباهــ
ودرينـا المؤرخيـــن ولكــــن "لابن خلدون" لم نجد أشباهـــا
إن شخصية ابـن خلـدون منـا وإلينـــا وإن ســوانا ادعاهــــا
وهي إحدى جرائم الدهر لكـــن بعضهم في بلاد مصر ارتضاهـا

ورأى: مذ تمــوت نفس بـأرض ... فليها حتمــا يكـــون انتماهــا
غفـــر اللّه نزعــة لذويهـــا ... حملتهــم ضلالهـــا وخطاهـــا
وســلام على ابــن خلـــدون ... فيمن نشأوا من بلادنا في ثراها
وتغـذوا بكعبـة العلـم فيهـــا ... وحبتهــم سماؤهــا بجداهــا

إلى أن يقول:

تلك يا نشء صفحة الأمس فاقرأ ... معجزات الفخار في محتواهـــا
وصل الحاضر المبـارك بالمـــا ... ضي وخل للصروف تبدي قواها
هذه كعبــــة الزمـــان فهل فيـ ... ـك طموح يعيد ماضي علاهـا؟
هـــذه قبلـــة الشمـال فهـــيء ... بنشاط الشبــاب عهــد مناهــا
إن مـن تنتمـــي إليهـا وتمشـــي ... أيها النـشء في ظــلال هداهـــا
سرحــــة عبقريـة في الليـــالي ... بارك اللّه في الكتاب جناهـــا
قد أنيطت بها الأماني وشـــدت ... بهدى الدين واللسان عــراهـا
وأراد العـــلى بهــا اللّه لمـــا ... بإمـــام في المصلحيـن حباهــا
"طاهر" الذكر، خير من هـــب ... يرعاها ويحمي من الصروف حماها
وإذا عُدَّ في الورى مصلحوهـــا ... فابن عاشـــور من بــه تتبـاهى
طرق الابتكــار في السيـــر والإ ... صــلاح من رأيـــه يفيض سناها
فنرســم خطـاه يا نشء تحفـــظ ... في الليـــالي عهودهـــا وولاهـا
فهو عنوان فخرها في المعـــالي ... ومناهـــا وذخرهـــا وفتاهـــا
وتضافـــر عزائمهـــا ونوايـــا ... واتحــد حولـه لأجــل ارتقاهـــا
وافتخـــر بيننـا بعهـــد جديـــد ... كعبـة الديـن فيه حبـت رجاهـا

سجلت في سجلها خير سطـــر ذهبي ينـــم عــن مبتغاهــــا
إن ذكرى ولاية الشيــخ عيــدي فمحـــال عليَّ أن أنساهـــــا
وهبتنــي العلــى لــواء عليـــا واسمـه قد نقشتـه في لواهـــا

وقال الأستاذ الشيخ التهامي الزهار:

إن المسلم يرتاح جدا عندما يعلم ما سارت إليه المكتبة الزيتونية العامرة في فجر عام من تسلم الأستاذ الأكبر الشيخ الطاهر ابن عاشور شيخ الجامع الأعظم وفروعه، أبقاه الله لإدارة هذا المعهد المبارك.

في مثل هذا اليوم من الشهر من العام المنصرم سار سريان البرق نبأ تسلم الأستاذ الإمام لمقاليد إدارة كليتنا، واستبشر الناس خيرا، وعلقوا الآمال، وانبعث في نفوس الزيتونيين ومن يمت إليهم بصلة روح الجد والنشاط:

ثم تحدث الخطيب عن أهم الأعمال التي حققها الأستاذ الإمام في ظرف عام واحد من عودته إلى مشيخة الجامعة، وقسمها إلى قسمين:

1- كتب الدراسة وأساليب التدريس، وذكر أن الإمام قد كون لجنة من مدرسي الزيتونة وكلفهم باختيار الكتب النافعة، والبحث في طرق التدريس الكفيلة بتحقيق الغرض المطلوب على أحسن وجه، وأخصر طريق، كما أوصى بتشجيع المؤلفين على التأليف من طرف الهيآت المسؤولة، والاعتناء بالعلوم العصرية التي لابد منها في بناء الحياة ومواكبة التطور الحضاري، كالعلوم الطبيعية وخصائص الأشياء وعلوم الحساب وغيرها، وبسط القول في البرامج المحددة لمختلف مراحل التعليم الزيتوني.

2– معاهد التعليم التي فتحتها مشيخة الزيتونة لضيق الجامع الأعظم رغم رحابته، عن إيواء جميع الطلبة الذين يتوافدون من مختلف أرجاء تونس والأقطار العربية الإسلامية الأخرى!

وختم خطابه بقوله: «وفي الختام لا يسعني إلا الإشادة بالمشروع الجليل الذي تم في عهد الإمام، ألا وهو مشروع الحي الزيتوني ذلك المشروع الذي يرمي إلى تأسيس بناية عظمى تأوي أكبر عدد ممكن من الطلبة تتوفر فيها وسائل الراحة وتعينهم على مواصلة مراحل التعلم».

وقال الأستاذ الطيب العنابي:

اليوم وقد عاد للزيتونة الكريمة إمامها. اليوم وقد أخذ القوس باريها. اليوم وقد سكن الدار بانيها. اليوم اليوم فقط يمكن لنا القول بأن العلوم الطبيعية وجدت بالزيتونة. نعم إن هاته العلوم وجدت ولكن لا فقط فوق النسخ المطبوعة من البرنامج العام للدراسة الذي أعدته مشيخة الجامع بل أنها وجدت ببرامجها وبأقسامها وبتلامذتها وبمدرسيها أيضا، حيث توفقت المشيخة إلى تكليف الزيتونيين الأكفاء من المحرزين على ديبلوم الخلدونية أو على بعض الشهادات الفرنسية بتدريس هاته العلوم وحيث ضمت لهم بالإعارة[1] رجلين فنيين من متخرجي الكليات الفرنسية.

وهذا يا سادتي كثير وكثير جدا وهذا كثير لأن الخطوة الأولى الخطوة الصعبة الحرجة المحرجة قد وقع القيام بها بكل جرأة وبكل ثبات وبكل حزم أيضا على الوجه الأتم الأكمل وهذا ما نحمد اللّه عليه».

ثم قال : وسيشرق العلم من جديد بحول اللّه، وسيشرق علينا من جديد وتلك سنة اللّه في خلقه، وسيعود العلم لنا لأننا نريد أن نعيش ونريد أن نسعد.

(1) في الأصل الإخارة، والظاهر: الإعارة.

ولعلنا قد قطعنا اليوم مرحلة التأمل في الماضي للوثوق به. ولعله يجب علينا أن تتجه أبصارنا دائما إلى الأمام وأن تتطلع نفوسنا دائما إلى المستقبل. وأن نحاول بالعمل بعدما حاولنا بالقول مجاراة العصر والتغلب -إن شاء اللّه- في حلبة السباق به. فالإنسان ابن يومه لا ابن أمسه. والرجل الكامل هو ذلك الذي يتلاءم مع عصره، ورحم اللّه ابن عمنا العربي النبيل حيث يقول:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن يومه على ما تجلى يومه لا ابن أمسه
وما الفخر بالعظم الرميم وإنما فخار الذي يبغي الفخار لنفسه

ففي قوله هذا حكمة بالغة خالدة نستنير بها إن شئنا ونهتدي واللّه ولي التوفيق.

وقال الأديب الشاعر الأستاذ محمد التهامي عمار:

يا شباب اليوم أشياخ غد أفلا تصبون فيمن قد صبا؟
إن فيكم صبوة "محمودة" تنعش الروح كما هب الصبا
صبوة للمجد في عليائه يا بناة الصرح مدوا السببا
وارتقوا نحو السموات العلى سوف نرقى للسما مرقى الربا
ربما سخرها اللّه لنا وأراضيه جميعا واجتبى
علم الأسما أبانا وله أسجد الأملاك إلا من أبى
أو لسنا خلفاء اللّه في أرضه استخلفنا واحتجبا
ها هو القرآن في أيديكمو فارفعوا عن دفتيه الحجبا
إننا لسنا كأهل الكهف أن ضرب النوم علينا طنبا
نومة الجهل أصابت مقتلا من نفوس وتعاطت عطبا

يا لك الله عدوا مخطرا ... أورث الذل وأخزى وسبى
ادفعوا الجهل بعلم نافع ... يبعث المو[illegible]حيي حقبا
علموا الأسما علوما كلها ... كي تفوزوا وتنالوا الرتبا
كل علم نافع إلا الذي ... يزرع البغضاء بين القربا
ودعوا التفريق ظهريا فما ... بِسِوى التوحيد نقضي أَربا
واجعلوا رمزكم زيتونة ... بوركت والنور منها ما خبا
واقتدوا بالشيخ في سيرته ... سير حزم رغَبا أو رهَبا
فهو شيخ شب في مشروعه ... كان خير ابن وللأبنا أبا
شيخنا الطاهر في مقصده ... يا ابن عاشور وقيتم حربا
جامع الزيتونة استبشر واهـ ... ـتز منها كل فرع طربا
إذا وليتم أمرها في حكمة ... جامعا ما فرقت أبدي سبا
أنت عنوان اتحاد في هوى ... لفروع عشرة ضم القبا
تبتغي الإصلاح للأصل وللـ ... ـفرع والجمعُ لشمْلٍ وجبا
يا ابن خلدون ويا أستاذنا ... يا إماما لا يبالي النصبا
ادع بالحكمة والحسنى فمن ... خطب العليا أدام الطلبا
قسما بالصحب عشرا ووصا ... يا الليالي العشر في خبر نبا
وبيوم ذي نجاة من ردى ... يوم عاشوراء موقور الحبا
ما نجت من أمة إلا إذا ... وحدت صفا وقلبا قلبا
إنما ديننا توحيد قلـ ... ـوب ورب ومحيد عن غبا
هذه شرعة طه فاقتفوا ... كل من لم يقْفُ طه كذبا

فلـــه أزكى صـــلاة إنـــه أكمـل الديــن أتـــم الأدبـــا
وله منـــا ســـلام فهـــو مـــن قد هدى سبل الســـلام النجبـــا
ما أقامـــت حفلـــة إخوانـنـــا وتتـالي الخطبـــا والأدبـــا

وقال الأستاذ الشيخ التيجاني بوراوي:

(في مثل هذا اليوم لسنة خلت زف للأمة التونسية نبأ عظيم كانت الألسن تنقل بشائره بين الأفراد، والبرق يرسم حديثه للعيون. والمذايع تذيع خبره في الأصقاع، والهواتف تسر أمره إلى الأسماع، فإذا القلوب تفعم حبورا، والنفوس تفيض سرورا، والوجوه تنبسط استبشارا. ذلك هو نبأ رجوع الأستاذ الإمام علامة القطر مولانا الشيخ سيدي محمد الطاهر ابن عاشور إلى الكلية الزيتونية يدير شؤونها ويدبر أمورها. وبمجرد ما ذاع هذا النبأ، اشرأبت لكليتنا الأعناق، وتطلعت إليها الرؤوس، وتوجهت نحوها القلوب، ثم هرعت إلى الحاضرة كتائب الوافدين من طلاب العلم كسيول تنحدر دفاقة بعد أن تحطمت عنها السدود).

وأضاف يقول: (يزعم الناس -وحقا ما زعموا- أن شيخنا عصري الرأي. ميال للتجديد ولوع بمسايرة الزمن. شغوف بمستحدثات العلم. حريص على السير بكليته في قافلة التطور.

أجل...! وإنه مع ذلك لأليف المصحف، وسمير القرآن، وجار الله في هذا الزمان، بل إن هذا هو الغالب عليه والمتحكم فيه، حتى أن العارف بشخصه لا يكاد يذكره إلا مقرونا بحل لمغلق من معجز القرآن أو لكشف عن مستور من أسرار التنزيل، وإذا فلا غرو إن رأيناه يجعل للقرآن النصيب الأوفر والحظ الأكبر من مواد الدراسة التي يتلقاها الطالب الزيتوني فور اندراجه في التعليم).

وختم التيجاني خطابه بقوله:

(قد مضى علينا حين من الدهر ونحن لا نزال في طور التشهي والتمني فهل آن لنا أن نعمل لرفع مكانتنا بين الناس وشرفنا في التاريخ؟... هل آن لنا أن نخلع ثياب الخمول وأن نغير ما نحن عليه من جمود؟ أليس القرآن يقول: «**إن اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم...**»؟ ألم تنصتوا إلى تلك الروح الزيتونية وهي تهيب بكم من عالم الخلد بلسان المرحوم أبي القاسم الشابّي

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بدّ أن يستجيب القدر).

وقال الأستاذ الصادق البسيس:

(إننا نجتمع في هذه الآونة الطيبة محتفلين بشيخ الزيتونة المصلح، وقائدها الأمين، وزعيمها الجريء، وأبيها الحنون، والذي نفسي بيده ما احتفلنا بك إلا لما رأينا من فضلك على أبناء الزيتونة وما بذلت وما جاهدت وما أصلحت وما أبدعت من مناهج متينة صالحة لبث الروح العلمية في كليتنا العامرة وجامعتنا المقدسة، خارسة الإسلام، وحامية العربية، ومفخرة الخضراء ماضيا وحاضرا، لقد مضى عام على ولايتك العزيزة عام مخصب ربان، عام عامر بالمشاريع القوية، فياض بالإصلاحات الحيّة، عام قطعت فيه الزيتونة مراحل مجدة ستصل بموالاة السير في هذا الميدان إلى ما يرجى لها من سعادة راضية وتطور أصيل الدعائم واضح المعالم).

وأضاف قائلا:

(لقد تتبعنا عن كثب أعمالك فرأيناك مصلحا حازما نافذا لا تعيقك العقابيل ولا تثنيك العقبات.

غيرت منهاج التعليم وقلبته رأسا على عقب، وأبدلت الكتب وفتحت آفاقا جديدة من الثقافة الحديثة في وجه أبنائك فولجوها بعزائم صلاب وقرائح متشوقة إلى الجديد، طموح إلى الصالح من كل ما أحدثه العقل البشري من طرائق مستجدة في البحث وأساليب حية في العلم).

وختم خطابه بقوله:

ألا سقيا ورعيا لعهود كانت فيها علماء الإسلام لا تأخذهم في الحق لومة لائم، ولولا جرأتهم ما خلدوا في التاريخ ورددت الأيام والليالي أصداء حياتهم الصائلة الجائلة تلك حسنتك الحسنى وتلك فضيلتك الجميلة بها تصلح وبها تعالج، وعليها بعد الله تعتمد وعلى جندك الزيتوني العتيد لنقبل على مناهل الإصلاح إقبالا ولنسرع الخطى في هذا المراد الجليل فقد تأخرنا كثيرا على حين تقدم الناس.

لتكن الزيتونة قبلة الجميع في العمل ولنضع في سيرنا السريع قاعدة لا نتخطاها هي أن نتزود من قديمنا بما فيه من ذخائر مليئة بالقوة والمتانة والصلوحية للزمان، فبالقديم نستطيع أن نأخذ من الجديد وأن نقتبس من الحديث، لأن قديم هذه الأمة العربية المسلمة هو جديد على الزمان بما فيه من مواد نفيسة ومواريث فياضة بالحياة).

وقال الشاب الأديب محمد كدوس:

(لقد أبى عميد كليتنا الزيتونية العامرة ومديرها الحالي الجديد إلا أن تتماشى كليته مع القرن العشرين، فترك من النظم القديمة ما وجب تركه وأدخل من التحسينات العصرية ما وجب إدخاله ولازال مستمرا بحمد الله في أداء ما رآه واجبا عليه مسدلا أياديه البيضاء نحو محط ثقة الشعب والزيتونيين الهاتفين به).

وتحدث طويلا عن الأنظمة القديمة في الزيتونة وما تحولت إليه بفضل عميد الكلية الذي همه النهوض بالتلميذ الزيتوني إلى مستوى أرقى تفكيرا وعلما وحياةً، ثم ختم خطابه بقوله: (وأخيرا لا يسعنا أيها الإخوان إلا الاعتراف بالجميل للمصلح المجاهد - الإمام الجليل، مدير الجامعة الزيتونية الجديدة.

كما أننا نحيي من صميم أفئدتنا نائبه للمدارس النزيه الذي لا زلنا ندين له بالشكر، ولا إخال روح ابن الحبحاب المقدسة إلا ترفرف مشاركة لنا في هذا الحفل المبارك، إلى الأمام أيها الجامع المعمور، إلى الأمام بقائد يقظ ويحسن القيادة، فليحيى الجامع المعمور وليحيى مديره الحالي[1].

وقال الشيخ محمد المازوني:

ندعو الله أن يمهد الطريق ويذل العقبات لمديرنا الفذ حتى يحقق لنا هذا الأمل الذي طالما خالج ضمائرنا وانفتح بجانب الإصلاحات العظيمة التي اجتمعنا الآن للتنويه بشأنها، والله يحقق الآمال.

والأمل الذي ركز الخطيب حديثه عليه -بصفته نائبا عن الرابطة الرياضية الزيتونية- هو إعطاء الرياضة من الجهد والعناية ما تؤدي به مهمتها جسما وفكرا وروحا، وجعلها في الجامع إجبارية، وإيجاد ميزانية خاصة بها حتى لا تكون عالة على غيرها في توفير ما يلزمها من الأثاث والآلات لتعاطي جميع فنون الرياضة.

---

(1) كل هذه اللقطات من الخطب والقصائد عن الإمام ابن عاشور نُقلت من المجلة الزيتونية: العدد الخاص بالمناسبة.

وقال الأديب الشاب محمد الصالح الشتوي:

أحييـك من يـوم يسجلـه الدهــر
ويبقى على مــر الزمــان له ذكــر
به هتفت في الكون ألسن يعــرُب
وردد في ساحاتها النثر والشعــــر
به عمـــت البشـرى فـرددت النهى
ثناء وكان الزهــــر يعبــق والعطـر
به أمست الخضـــــراء آمــال أمــة
وقيل قديما طابــق الخبــر الخيــر
أجل حلّ من تهواه في الناس أنفــس
وألقى عصى موسى فقد بطل السحـر
إمـــام على كـل العقــول مقــدم
له الرتبة العليا له الشــأن والأمــر
تربع في عـــرش المهابـــة والعـــلا
ومن فيضه قد أمرع العقل والفكـــر
وهل يستطيع الشعر حصر فضائـــل
وهل يمسكن السد إن زخر البحـــر
وما غايتي بالشعـــر أبغي مثوبــــة
ولكنــــه ديـــن يوفي بهِ الحـــر
لتهنــــأ أقـــوام ويأمــن معشـــر
وتخـرس في أفواههـــم ألسُنٌ غـــدر

وإني امـــرؤ حبي الفضيلـــة إنمـــا
حياتي لهـــا وقـــف وإلا فلي قبـــر
وليس سواهـــا في الأمـــور يهـــزني
ويلتـــذه سمعي ويعشقـــــه الفكـــر
خصوصا إذا كانت لقومي ومعشـــري
فتلك التي حقـا لهـــا مني الشكـــر
ليشهـد كل النـــاس أننـــا معشــــر
نحب العلا معبودنـــا الفخـــر والذكـــر
نطالـــب بالإصـــلاح قد بـــح صوتنـــا
فهـل من فتى يمـشي يعـــززه النصـــر
لنا أمــــل في قائــــد النـشء والألى
غدوا حوله يحدوهم الصدق والظفـــــر
فسر بسفين[1] القوم أنت زمامهـــــــا
تصرفهـــا لا يلـــوك المـــد والجــــزر
وهذا الشباب الحي يهتـــف باسمكـم
فلا ينثني دومـا وإن عـــزب الأمــــر
فكونـــوا له في النائبـــات يكن لكـم
وفي تنتـض[2] منه المهنـدة السمـــــر
لنحيـــا إلى الخضـــرا فأنـــت إمامهـــا
ويحيـا بكم ما أنجب المعهـد الحـــر.

(1) جمع سفينة.

(2) كذا في الأصل ومعنى الكلمة غير واضح.

وقال الشاعر علي بن رمضان الشابي:

يا طاهراً طهّرت كل قديمنـــــا ... وبعزمك أضحيت خير مديرنـا
سر للأمام فإنـك الرجـل الذي ... لم يعهد التاريخ طيلـة نشئنـا
أيقظت من رقدت جفونه بالكرى ... حتى يكـون معـــززا لنشاطنـا
ها نحن نحتفل بدورة فلكـــك ... مثل النجوم نعتــز فيـها ببدرنـا
من هو ذا البدر المضيء المرتضى ... قلت العشور لواحد مع شهرنـا
للّه دُرُّك من فضيلـة سائـــــد ... بالمعهد الزيتوني كعبة قطرنـا
صوب الثقافة والمفاخر والعلى ... والعز والإيمان بشرى لشعبنـا
أما النظــام إذا إليـك قـلادة ... ألبسته للشيـخ مـع تلميذنـا
ذللت كل عويصـة في سيـــرك ... ونجحت في العام الوحيد لجمعنا
فسل المدارس إذ تجبك بدورها ... من مطبخ أضحى وخافر نومنـا
وزد رياضة قـد أتاهـا شبابنـا ... مثل الأسود تؤموا نحو عوبرنـا
أبقاك رب الدنيا شيخا فاضـلا ... ترنو إلينـا منظمـا لصفوفنـا

وقال الشيخ بوعلي الغربي:

(لقد سنحت فرصة دعوة الإخوان الزيتونيين لإقامة هذا الحفل البهيج إحياءً لذكرى مرور سنة على عودة فضيلة مولانا الأستاذ الإمام لمشيخة إدارة جامع الزيتونة المعمور وفروعه، ومكنتني تلك الفرصة لإلقاء هاته الكلمة الموجزة في التقدير والإعجاب والتأييد لما أبرزته مقدرة مولانا الأستاذ السامية من الإصلاحات والتحسينات التي طالما طالب بها الزيتونيون ومن يمتُّ إليهم بأدنى سبب ولم ينالوا منها شيئا حتى نيطت من جديد إدارة مشيخة الجامع لأستاذنا فضيلة الشيخ المحتفل به فنالوا البعض منها وسينالونها كاملة غير منقوصة بحول الله ومعونته.

ثم تحدث الخطيب عن الإصلاحات الهامة التي أدخلها الإمام عميد الزيتونة على التعليم والتي يراد إدخالها مستقبلا سواء منها المادية أو المعنوية، وسواء منها التي تتعلق بالجامع الأعظم أو بفروعه المختلفة!

وختم خطابه بقوله:

(والأمل وطيد في تأييد طلبنا المحق وإبداء النظر السريع في شأنه حتى تتحقق رغائبنا وننال حقوقنا لا سيما وفضيلة مولانا شيخ الجامع المعمور من قصر نفسه على تحقيق الطلبات والرغبات المحقة، أنالكم الله ما تتمنون «**والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون**».

وقال العلامة الشيخ الناصر الصدام:

(إن يوما اجتلت فيه العيون ملؤها محامد لا تُحصى وفضائل لا تستقصى لجدير بأن يتخذه المعهد العلمي وأهله عيدا لأولهم وآخرهم استدرارا للرحمة وشكرًا للنعمة، والشكر كفيل بالمزيد، هو ذلكم اليوم الخالد فخره المردد في الخافقين، ذكره يوم أسبغ اللّه تعالى فيه النعمة على ذوي العلم وأضفاها وأتمها ووالاها إذ ألقى مقاليدها إلى من اختصه فيهم بالإمامة ونفله ما نفله من معالم الرياسة والزعامة فوسع أبقاه اللّه معاهد العرفان أصولا وفروعا، ورجالها أفرادا وجموعا، واتحد نظامهم ورجحت أحلامهم وتقدم بهم إلى الأمام إمامهم بما آتاه اللّه من مكارم أخلاق وحكمة وأصالة رأي وبصيرة، بتمهيد مناهج التعليم واختيار الكتب الرئيسية في كل فن (سدده اللّه تعالى بتأييده) إلى ما هو أعلق بالأفكار وأوفق بالأمزجة وأخص بالقرائح المستترة).

وختم العلامة الصدام خطابه بقوله: (فإلى اللّه تعالى الضراعة في إطالة حياة أستاذنا الإمام الأكبر الشيخ سيدي محمد الطاهر ابن عاشور وإمداده بعونه من لدنه إلى أن يشهد الجميع لأمثال هذا الموسم الميمون أعيادا وبلغ كل محب للصالح العام مرادا، والسلام عليكم ورحمة اللّه).

وقال الأديب الشاب صالح عباس:

شيخ الشيوخ اليوم يكمل عزه ونراه مصباحا يضيء المعهدا
يا شيخنا أنتم رجاء نفوسنا فاشفوا شبابا ناشطا متوحدا
فأتَيتنا كالغيث تحيي مواتنا وتبث فينا عزمك المتجددا
فلقينا فيك كل فضيلة وشعورنا الفياض أضحى زائدا
يا أيها الأستاذ سر متقدما فسبيلنا الإصلاح أمسى معبدا
ما فيه من ريب يعطل سيره أهناك من يرضى ظلاما خالدا
فالشمس قد لاحت وسار سناؤها شرقا وغربا بالنهوض مشيدا
مهما يكن أمر العدو الحاسد بالجامع المعمور دوما سائدا
بالطاهر المِفضال يقوى نوره ويكون في كل العصور مؤبدا
فالنشء والشبان فيك آمالهم وكذا الشيوخ الأكرمون الرشدا
إنا نقدس فيك كل عظيمة حتى نراك تكون أنت السائدا
حتى يكون المعهد مترافعا يسمو إلى الخيرات يعلو صاعدا
في عصركم يحظى بكل رجائه وينال عزا ثابتا متزايدا
يا أيها المصباح أضو ربوعنا فشبابنا الضمآن صار مساعدا
يا راكبا فاسرع وبلغ صوته وارفع لتونس راية فوق العدا

وقال الأديب الشاعر الشيخ سالم الضيف:

أيها الطاهر العظيم الممجد أنت في الشعب مصلح ومجدد
وجليل في العلم والعلم أسمى نعمة في الوجود يا خير مرشد
جئت للمعهد الذي فيك يرجو لترقي تعليمه وتجدد

فازدهى باسمكـم ونــال حيـاة في نظام التعليم لم تك تعهــد
فاعتبار التطوير العصري فيهـا واعتبـار الذوق السليـم مؤبـد
يا لها رحمة ســرت وتجلـت في الفروع والأصل بعد التعقد
حبـذا ما جـرى ولكــن بقينــا في انتظار الإتمام في كل معهد
ففــروع الآفـــاق لا زال فيهـا بعض نقص وتهوى ضما مخلد
فالعــلا بالعلــوم لا بسواهـــا وبالإصـلاح والنظـام الموحـد
يا ابن عاشور إننا منك نرجــو أن تزيد إلى الفـــروع التعــدد
فالبلاد تريــد علمــا عميمـا عربيا يسمو بشرعــة أحمــد
هــذه نفطة تنــادي أجـــرني يا بن عاشور أنت لي خير منجد
منك أبغي فرعا يصون حيــاتي من شرور الجهل الذي ليس يجحد
عاقنـي البعـد مما أصبو إليـــه من علــوم فكــن إليَّ مـــزود
فلقــد تقــت للرقي ولكــــن هو بالعلــم لا بغيــره يقصد
علــة الشرقيين جهــل وبعــد عن علوم الحياة لا غير فاشهد
علــم الغــرب فارتقى وتعــلا وهوى الشرق حيث جهل منكد
ولقد كان عكــس هــذا قديمــا يوم كــان الزعيــم هو محمـد
يرشد النــاس للمعــالي ويدعـو اطلبوا العلم فهو فـرض مؤكـد
ذاك عهـد مضـى فياليــت قومي حافظـوا عنه بالعلـوم وازبـــد
كان مجد الإسلام فيه عظيمـــا ورفيعـــا بكــل عــز وســؤدد
يا بن عاشور إننــا قــد وضعنـا فيـك آمالنـــا التي هي أوكــد
فكـــن القائــد الذي هو يدعـو وينادي بالعلم في كل مشهــد
وكــن القائـد الذي هــو يرضي كل من يطلب الفروع وينشــد

وقال المؤرخ الشهير الأستاذ محمد الصالح المهدي:

(يا صاحب السماحة والرجاحة ومن انتهت إليه الكياسة والرئاسة الأستاذ الإمام، وعلم الأعلام الشيخ سيدي محمد الطاهر ابن عاشور الشريف، ويا أيها العلماء الأعلام والسادة الكرام، لقد طلبت مني جمعية الإخوان الزيتونيين أخذ اللّه بيدها إلى طريق الصواب أن أقول كلمة في حفلها هذا الذي أقامته كذكرى لعودة مولانا الهمام إلى إدارة المعهد الزيتوني المعمور فلبيت نداءها، ورغم تبلبل البال، ووفرة الأعمال فقد أمكن لي أن أجمع من المعلومات ما ملأ نحو الأربعين ورقة في صيغة خطاب وهي نقطة من بحر من الأعمال الزاخرة التي قام بها أبقاه اللّه وذرة من شعاع امتدّ سناه ونوره طيلة خمسين عاما.

وإني أرجو أن أعتبر هاته الصفحات التي جمعتها كعربون على الولاء أقدمها إلى فضيلته بهاته المناسبة أمدّ اللّه في أنفاسه وأبقاه ذخرا للأمة الإسلامية).

ولضيق المجال عن عرض الخطاب الطويل المسهب الذي أعده لهذه المناسبة التاريخية قدم موجزا عن العائلة العاشورية التي تفرع منها هذا الغصن المثمر الإمام العميد ثم تحدث عن شيوخ الإمام المشاهير ازدانت بهم الجامعة الزيتونية أمثال الشيخ سالم بوحاجب، والشيخ عمر بن الشيخ والشيخ محمد النجار، والشيخ محمد بن يوسف، وغيرهم. وتعرض لنجاحه في الرتبة الأولى من التدريس بجامع الزيتونة، وكان موضوع الدرس الذي امتحن فيه في بيع الخيار، فتفوق فيه تحليلا وتعليلا وحسن إلقاء، مما جعل أصدقاءه العلماء والأدباء يحيونه تحايا نثرية وشعرية منها قول الشاعر الظريف الشيخ عبد العزيز المسعودي أحد كتبة الدولة التونسية بالوزارة الكبرى في ذلك العهد:

لو بان للعين ما يخفيـــه تعبيـر　لشابه الرسم والتشخيص تحرير
وأصبحت صور الألفاظ إن كتبت　يبدي معانيها كالشكل تسطيـر
وكنت تبصر ما أُنشيه تهنئـــة　غب انتظار إلى أن جاء تبشيـــر
كانت هنالك أنفاس تصعدهـــا　منا القلوب وقد فاجها تحذيـــر
ثم استضاءت لنا من بعد أفئـــدة　كأنما هي سلك فيه تنويـــــر
وأصبح الجامع المعمور مبتهجا　حيث استقر له بالعلم تعميـــر
ولبّت من خطط التدريس أعظمها　لما علا منك في التدريس تقرير
وجئت نحو مقام العلم تشهـــده　ثمار غرس له والقلب مســـرور
فجئت بالواجب المقصود تشرحه　ولم نجد عن مقام فيه تفسيـــر
وكم عهدناك قبل اليوم منتصـــرا　وصاحب العلم بين الناس منصور
اللّه يبقيك تحيي العلم مرتقبـــا　مراتبا أنت فيها اليوم مشكـــورا

كما تحدّث عن عنصر هام من عناصر الخطاب وهو اجتماع الإمام ابن عاشور بأكابر العظماء، وذكر منهم اثنين: أحدهما شرقي والآخر غربي وهذا حديثه عن ذلك:

(ولقد كان لمجالس العلم التي تعقد بين أكابر عظماء الرجال سواء من نابتة هذا القطر أو من الأقطار الأخرى ويحضرها شيخنا العلامة الأثر الأكبر فيما امتاز به من الإقدام على القيام بالأعمال العظيمة لفائدة المجتمع التونسي، وأذكر لكم من تلك المجالس مجلسين أحدهما مع عالم شرقي والآخر مع عالم غربي. إنه لا يخفى على حضراتكم أن الأستاذ الإمام مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده كان جاء زائرا إلى البلاد التونسية في صائفة عام 1321 هـ، وقد حلَّ ضيفا بمدينة

مرسى جراح المشهور بالمرسى عند المنعم الوزير خليل بوحاجب بقصره المعروف هناك، ذلك لأن هذا الوزير كان زوجا لأميرة مصرية هي الأميرة نازلي هانم، فكان ذلك سببا لنزوله ضيفا بالمرسى، وكانت المجالس الخاصة التي تعقد بين الزائر العظيم ومفكري الشعب التونسي بما فيهم من شيوخ وشباب لا يتخلف عنها الشيخ الأستاذ ابن عاشور، ولقد كان من جملة الذين طلبوا منه أن يلقي درسا بالجمعية الخلدونية في العلوم الإسلامية وقد كان عضوا بها في مجلسها الإداري فألقى درسه المعروف في شهر جمادى الثانية سنة إحدى وعشرين من هذا القرن. إن روح المصلح العظيم المفتي المصري قد كان لها بعض الأثر المحسوس في النشاط الذهني لأستاذنا الإمام.

أما العالم الغربي الذي اجتمع به شيخنا العلامة فهو المستشرق الشهير والعالم الباحث أوبنهايم المعروف بمباحثه عن أصول الفلسفة الإسلامية ومقارنتها بفلسفة المذاهب والملل الأخرى).

● قصائد أرسلت لتهنئة الإمام:

وبهذه المناسبة التاريخية بعث إلى الإمام ابن عاشور شعراء آخرون قصائد شعرية يهنئونه على منصبه، ويعبرون له فيها عن إعجابهم بشخصيته العلمية الفذة، وعما يكنون له من الحب والتقدير، وما يعلقون من آمال فساح على عهده الزاهر!

ورغبةً منا في إفادة القارئ الكريم، وحرصًا على إعطاء حدث التكريم كلّ مقوماته وكل معالمه، نقدم هذه القصائد بتمامها لأن أخذ بعضها لا يغني عن الكلّ.

قال العلامة الأستاذ الناصر الصدام:

(الخير في وجه هذا يجتلي النظر وفي الملامـــح والأقــوال معتبـر
ترى بغرته العتـــق المبيـــن وفي فصيـــح منطقـــه ما دونـــه الـدرر
والمرء تحت مطاوي النطق مختبئ كلامـــه مظهـر ما فيـه مستتـــر
عرفت (للطاهر) الميمون طالعه من المحامد شيئا ليس ينحصـــر
خلق عظيـــم وأكنـــاف موطـــأة ومجده تـدرك العاني فينتصـــر
وهمة حلقت فوق السمـــاك فما يروم مصعدها شمس ولا قمـــر
إلى رجاحـــة آراء مســـــــددة في كل شيء لها الإبداع والأثـــر
سل اليراع وما خط اليمين بهـــا فالكتب يلغى لديها الخبر والخبر
واسأل منازل عز (دام بهجتهـــا) هل أبصرت في السوى كُفْئًا له خطر
قل للذين أحبوا الحمد من سفـــه وما سعوا سعيه يوما وما قـــدروا
إن المحامد لا تشرى لدى عطـل ولا المراتب تعلي من به خـــور
فقيمة المرء فيما المرء يحسنـــه وماله في سواها الدهر مفتخـــر
وآدم أصبـــح الراقي لمعرفـــة والعلم فيه لأهل المبكر مزدهـر
من أجل ذلك طار الناس من فـرح إذ قال قائلهم قد ساعد القـــدر
وأفاكم علم الأعلام من فخـــرت به المعارف واعتزت به الفكـــر
هو الإمام (ابن عاشور) الذي لهجت بطيب أخباره الأعراب والحضر
وحيد ذا العصر في فضل وفي شرف وعن إرادتـــه الإيـــراد والصدر
قل للزمان تقلب كيف شئت فما تراه فيمن ترى تسطو به الغيـــر
يكاد من ولع بالعلم يشغفـــــه أن لا تراه بغير العلم يفتكـــر

تبـــارك الله ما أزكى شمائلـه طابت عناصرها والعيش مزدهـر
مولاي ذا المعهد المعمور في ضمإٍ إلى نظـــام له العليـــاء تنتظـر
فاسلك به منهجا ترضى عواقبـه والرأي رأيك لا خلف ولا نكـــر
أعلى المراتب ما ترعى الشؤون به وخيرها ما بأمر منـــك يأتمـــر
فاسلم ودم للمعالي مفردا علمـا يمدك النجح والتأييد والظفـر)

وقال الشاعر الكبير محمد العربي الكبادي صديق الإمام الطاهر ابن عاشور:

(عدتم كعود العقد للعاطل برغم أنف الزمن الماحــل
للمعهـد العلمي ترقى بـــه للمستوى المرتفع الحافـل
بكعبة الآمال في مصرنـــا جامعنا عند الفتى العاقـــل
فهو الذي يهدي بأنـــواره من ضل واستعصم بالباطـل
يسوقه باللطف نحوه الهدى في تقى للمنـــزل الآهـل
بكـل ذي فضل وذي همـــة بكل ما يرضي التقي العامل
هناك بجني الخلق المرتضى بنصـل ديـن للهوى قاتـــل
كفاه أن أنجب من فضلـــه مادحـــه أضحى بلا عـاذل
الطاهر الأخلاق من إن يقـل لم يترك القول إلى قائـــل
علامـة العصـــر الذي علمه بحر لذيذ الطعم للناهـــل
فكل من يقتبس من علمـــه يغدو سراج الرشد للآمـل
إن شغل الناس بأحوالهـــم في العيش من حاف ومن ناعل
فشغله بالعلم مستحكـــــم وعن سواه الدهر في شاغل

يا طاهر القلب الذي لم يزل للعلـم عونا ليس بالزائـــل
عالـــج من التعليــم أدواءه واردد له من مجـــده الآفـل
وغص على ما كان من نقصه لا تقتنع من ذاك بالساحــل
حتى ترى الإصلاح قد عمــه بثوب حـــزم للرضى شامـل
واجعل لك العون على شأنـه فكر الهمام العالم الفاضـــل
فإنـــه يعـــرف أحوالـــــه من ظاهـر يبدو ومن داخـل
وخير من ينجد في مثـــل ذا رب النهي والخلق الكامـل)

وقال الشاعر الملهم الهادي المدني شقيق الأستاذ توفيق المدني[1]:

شيخ الشيـوخ وسيـــد العلمـــاء
اليوم يــوم تسابـــق الشعـــــراء
اليوم يوم تسابق الكتاب والخطباء والبلغاء والفصحاء
إيه قريضي قد عهدتك منجـــدي
فاصـــدح إذن بقصيـدة فيحـــــاء
اصدح بشعرك لا يؤودك أن تـرى
ما بين جمهـــرة من النبغــــــاء
فلديـــك من ذاك المعتـــق نبعـة
لمــا تـــزل في فتنـــــــة ورواء
ولديك في أعماق روحك سرحـة
تسقى بماء الخلـد كـــل مســاء
ولديك من هدي الإمـــام ونـــوره
وضـــح يريـك منـــازل البلغـــاء
فانشر على الدنيا عبير هنائك العباق ممزوجا بصدق ولاء

(1) كان يتلظى شوقا إلى استقلال الجزائر، وكان أيام إقامتي بتونس في إدارة الصحافة للثورة سنة 1957 يتصل بي دأبا ليستفسر عن تطورات الثورة، وانتصاراتها.

وامرح على الدنيا واعلم شرقها
وهداتـــه بالنبـــاة الغـــــراء
اعلم بها البيت العتيـق ويثربـا
والمصطفى في الروضة الزهـراء
وشيوخ مكة والبقيع ومن ثـووا
مثل الأشاوس في ذرى البطحـاء
اعلـم بها دار المعـز و"ضيفها"
والأزهـر المكتـض بالعلمـاء
قل هذه زيتونـة الخضـراء من
بعد ذبول قـد ازدهـت بنمـاه
زيتونـــة ورقـاء لا شرقيـة
بوركـت يا زيتونـة الخضـراء
بوركـت يا زيتونـة حفظت لنا
نور الهدى والشرعة السمحـاء
بوركـت يا زيتونـة حفظـت
لنا لغة الكتاب وحكمة الآبـاء
ليكاد زيتك أن يضيء العالمين
بـدون مس النـار أو إذكـاء
هذا ابن عاشور الإمام المرتـضى
لبى الهدى فأجاب خير نـداء
نـور على نور ويهـدي الله جـل جلالـه من شـاء للآلاء

مال رأيت البرزلي وخدنه
يتخطران بمشية الخيلاء
رأيت خلفهما ابن حبحاب يحث خطاه نحو معارج العلياء
ورأيت هاتيك المنارة طاولت
إخوانها في مصر والزوراء
ورأيت أبناء الشمال يحثون
خطاهم للكعبة الشماء
ورأيت أذواب القرائح أبرزت
في البيت مسبوكها من الآراء
ورأيت في الشبان آمالا نمت
وترعرعت من بعد طول عناء
هذا الإمام الطاهر البحر
ابن عاشور يؤوب متوّجا بسناء
فيؤوب للبيت المطهر مجددا
ويؤوب للخضراء كل هناء
* * *
مولاي إني قد نايت وربما
يناي الفتى في الفينة الهوجاء
ولقد رجعت وما رجعت لذلك البيت العتيق ولا إلى قرنائي
كيف السبيل لأوبة أشفي بها
مما جناه البعد من الـواء

أنا ذلك الطير الشرود محــوم

في الأفق أبحث عن نمير الماء

أنا كالهزاز اليوم أشــد وكلمـا

هــب النسيـم بليلــة قمـــراء

ولهما أشـــدو إذا ملك السرو

ر عواطفـي بقصيـدة عصمـــاء

وقال أستاذنا أحمد المختار للوزير:

لبيـــك داعي العلــــم إني المستجيـــب إلى دعــــاك

هـــذي الملاحــــن خافقـــــا

ت الرجـــع في دنيــا حمـاك

سجعاتهـــا الإفصــــاح عــن

شــوق الفــــؤاد إلى لقـــاك

فاضـــت من القلـــب الـــوفي

وقـــد أجــــــاب إلى وفـاك

فكــــان رقـــــــة رجعهـــا

في السماحــــة من رضـــاك

وكأنها الإشعاع مقتبس اللوامع من سناك

وكأنها الفوح الزكي وقد تضوع من شذاك

فصحى تحـــدث في الـــورى

عن مجـــد ما رفعـــت يـداك

للعلـم للخلــق الكريــــم ومــن مثيلك في بنـــــاك

بشـــرى لأهـــل العلـــم قـــــد

وجــــدوا الهدايــــة من هـداك

فاعد لمعهدنا العتيد شعاع نور من ضياك

إنا وفي الأرواح آمال السمو إلى عـــــــلاك

نسعى لتحقيـــــــــق الكمـــــا

ل ولا كمـــال ســوى رضــــاك

وقال الشاعر الجزائري محمد بن عبد الرحمن المسعدي[1]:

عاد المنى وسرور النفس قد آبـــا

وزال عنا العنا والعيش قد طابـــا

والفكر من فرح هزت مشاعـــره

ففاض مغتنمـا للقـــول أسبابـــا

مذ أشرق البدر في أفق العلا وبـدت

أنواره تجلب الأنظـــار إعجابـــا

العالم العامل الفذ الذي انتشرت

في الناس شهرته عجما وأعرابـا

السيد الكامل الذاكي المكرم من

قد هاب أصلا وأحسابا وأنسابـا

أعني ربيب العلا والمجد من رفعت

آراؤه عن خفى العلـم جلبابـــا

(1) درست عليه الأدب، وكان رحمه الله يُؤثرني على جميع طلبته، لما توسمه في من مستقبل أدبيّ زاهر على حد تعبيره!

سامي المقام رفيع القـدر ذا أدب
للناس بالفضل والأخلاق جذابـا
محمد الطاهر الفرد ابن عاشور نبـ
راس الهدى الذي ما ظل مرتابـا
طود ولكنـه كالزهـــر في خلـق
ليث ولكنه لا يسكـن الغابـــا
من قد تسامت به الخضراء وافتخرت
على سواها ولم تعيأ بمن عابـا
يا فخر من قد علا هامات العلا شرفا
نرجو بك اليـوم للآمـال إيابـا
فاهنأ بما حزت من فخر ومن كرم
واسلم ودم لعروس المجد خطابا
فمعهد القطر قد ألقى مقالـــده
إليك ببغي المنى فافتح له البابا
وانظر إليه بعين من عنايتكـــم
كي يمدد اليوم للعلياء أسبابـا
واعطف على سائر الطلاب فيه فكم
قاسوا هموما وأحزانا وأتعابـــا
حقق رجا منته منهم ومبتـــدئ
والمقتفي منهم شرعا أو آدابـا
لا زلت في الشعب نورا يستضيء به
من ضل عنه سبيل الرشد أو غابا

• خطاب عميد الزيتونة الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور:

وفي ختام الحفل قام فضيلة شيخ الجامع المحتفل به وألقى هذا الخطاب القيّم الذي نقدمه بتمامه، والذي يجيب عن كل رغبة، ويعد بتحقيق كل أمنية، قال رحمه الله:

سبحان من شرف من شاء بخدمة الإسلام تعليما ونشرا وأفاض على أهل العلم من نعمه فيوضا تترى، ورفع قدر نبيه محمد صلى الله عليه فجعله داعيا إلى الله وسراجا، وواضعا لبرهان الهدى تأصيلا وإنتاجا، وأيده بأصحابه الذين شادوا للدين هياكل ومعالم، ونفحوها من حياطتهم بهمم وعزائم، ورفعوا للأمة رايات هدى فبلغت كلمة الحق بأصداء رشدهم إلى أقصى مدى، أما بعد فيا أيها الملأ الأعزة، لقد أبهجني وعانقني حلولي وسطكم في هذا الحفل المفعم أبناء وإخوانا، تساموا للعلى كهولا وشبانا، وفي هذه الساعات التي منا شاهدت فيها إلا وجوها تسفر عن طيب ضمائر، ولا سمعت إلا أقوالا يظهر ما وراءها من صفاء السرائر، وأن ما يكنه ضميري نحوكم جميعا لأضعاف ما تحويه سريرة كل قائل، وما عبرته عبارة كل متفائل. أما عبارتي فأجدها قاصرة على إيفائكم حق الشكر على ما وجهتموه نحوي من إفصاح عن التعلق وخير الآمال، وكيف تسع العبارة أداء شكر يوازي ما غمرني به المشكورون، ولاسيما أولئكم المقاويل البلغاء من خطباء هذا الحفل وشعرائه، جزاهم اللّه أحسن الجزاء، وشد ما بيني وبينهم من أواصر واعتزاء، فأرجو أن أكون عندما أملوا وأحقق ما أشاروا إليه من الغايات الطيبة وأجملوا مما فيه نفع العلم وأهله والارتقاء إلى منزلته السامية ومحله.

أما أبنائي طلبة الجامع الأعظم وفروعه الذين تمثل تعلقهم بذاتي فيما قامت به جمعيتهم الناشطة الموفقة، جمعية الإخوان الزيتونيين من عقد هذا الاجتماع البهيج، فإني أرى بنوتهم لي عِلْقا ثمينا جديرة ببيت:

أنا بني نهشل لا ندعي لأب عنه ولا هو بالأبناء يشرينا

وأعد احتفالهم بي في هذه الذكرى احتفالا بذكرى إجابتي داعي واجب دعاني إلى إحقاقه، وسعي نبراس هدى نسته[1] يتطلب زيادة ائتلافه، فلنجعل ذلك تذكرة لنا لنتكاتف على العمل لنفع ذلك المعهد العظيم كل بما هو في دائرة عمله، ففي هذا المعهد انفتحت كمائم إنتاجنا ومنه بدا نور سراجنا، فإذا نحن دأبنا على خدمته، كنا قد وفيناه حق نعم أسداها، وارتدينا حلة فخر هو الذي مد لحمتها وحاك سداها.

وإني ما وضعت على كاهلي عبء الكدح على هذا الغراس النفيس والدأب على إنماء شجرته المباركة الأرجاء أن ترسخ أصولها وتتكاثر فروعها وتزكو ثمارها وتكون دانية الجني للمجتني، وأن نبذل في ذلك مبلغ الطاقة ونستعين بالله لبلوغ الأمنية من ذلك، وأن قوام عملنا هو تثقيف النشأة الزيتونية بعلوم شريعتها ولغتها وما ينير لها الطريق في مسيرها بين الأمم وتمدنها حتى نراها تناغي سلفا ماجدا مضى وتسابق معاصرين سبقا مرتضى.

وحتى يصبحوا فخرًا للعروبة والإسلام ويخلد لهم لسان صدق على ممر الأيام.

وأرى لزاما عليَّ أن أبذل النصيحة لهذا المعهد بما فيه استبقاء سمعته الطيبة، بحيث يكون آهلا بمدارسة شتى العلوم وبحيث يكون طالبه

---

(1) كذا في الأصل وهي غير واضحة المعنى.

وخريجه مثالا لحسن الإقبال على العلم، وللتخلق بمكارم الأخلاق الإسلامية، وللخبرة بما تدعو إليه المدنية الحقة ثم مثالا للثقافة الكاملة ولحسن القيام بما يناط به من العمل لخدمة أمته ودينه يماثل كوكبا دريا يوقد من شجرة مباركة زيتونة.

وإن ما بذلناه من الجهود في بحر هذا العام للنهوض بالتعليم ولتوفير أسباب راحة الأساتذة والمتعلمين مما أشار إليه جهابذة الخطباء والشعراء لا نعده إلا قلا من كثر مما عقدنا عليه النية مع الاستعانة باللّه في وضعه في البرامج الإصلاحية، ولكن حاجة التطور والنماء إلى الوقت الكافي سنة الهيئة، والتفكير في تقصير الأوقات وانتهاز الفرص من حيلة الهمم العلية، فلا أسألكم إلا التكاتف والتناصر على أن ننهض بهذا العبء كل بما في وسعه من الاستقامة في الخويصة ومن النصيحة حيثما وجد إليها سبيلا.

ومن إبلاغ مبادئنا إلى من تربطهم به أواصر الصحبة وتشملهم نوادي المراجعة والمطالعة. ولا يحقرن أحد ما يدعو إليه من النصيحة فإن الكلمة الحسنة أبلغ مبالغ لا يحددها الحسبان، ورب مبلغ أرجى من داع. فبذلك نرجو الله أن يحقق ما نصبو إليه من الغايات السامية لننعم بمرأى اثار جهودنا زاكية نامية.

في عصر ملكنا الجليل الذي هو عنوان مجدنا الأثيل، والذي لم يدّخر عن مقاصد النهوض العلمي تأييده في كثير ولا قليل، أدام اللّه عرشه رفيع العماد. وظله الوارف مبسوطا على البلاد. وأَنَالَنَا كل نفيس وثمين مما تتوق إليه نفوس العالمين. بعناية اللّه رب العالمين.

• لمحات من حياة الإمام ابن عاشور:

هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور، من بيت آل عاشور الأشراف الأندلسيين، والجد الأعلى لعائلته هو العالم الزاهد الولي الصالح الشيخ محمد بن عاشور المولود بمدينة (سلا) من المغرب الأقصى، بعد خروج والده من جزيرة الأندلس فارا بدينه، والمتوفى في شهر جمادى الأولى عام 1110 هـ، وقد ترجم له الوزير في (الحلل السندسية).

ولد مترجمنا بتونس (العاصمة) سنة 1296 هـ في وسط علمي، وجو قرآني، وفيه نشأ وترعرع وشبّ، وحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ثم زاول ما تيسر له من اللغة الفرنسية!

وفي سنة 1310هـ انتظم في سلك الطلبة بجامع الزيتونة فثابر بجد ونشاط على دروسه حتى أحرز على شهادة (التطويع) سنة 1317هـ.

وفي سنة 1320هـ شارك في مناظرة التدريس من الرتبة الثانية.

وفي سنة 1321 هـ سمي مدرسا بالمدرسة الصادقية مع بقائه في التدريس بجامع الزيتونة الأولى.

وفي سنة 1325هـ عين نائبا عن الدولة لدى نظارة جامع الزيتونة العلمية فابتدأ أعماله بإدخال نظم مهمة على التعليم!

ولما تأسست لجنة النظر في تنقيح برنامج التعليم سنة 1329هـ كان عضوا فيها، وهو الذي تولّى تقدير حالة التعليم.

وفي سنة 1331هـ أسندت إليه خطة القضاء المالكي بتونس (العاصمة)، ودخل في هيئة النظارة العلمية التي تدبر شؤون جامع الزيتونة.

وفي سنة 1341هـ سمي مفتيا مالكيا بالديار التونسية وعاد إلى التدريس بجامع الزيتونة وبالمدرسة الصادقية.

وفي سنة 1343هـ عهد إليه بأمر النيابة عن الشيخ (باش مفتي) رئيس المالكية وفوض إليه مباشرة وظائفه الشرعية والعلمية.

وفي سنة 1345هـ ارتقى إلى رتبة باش مفتي بالأصالة، أي أنه صار رئيسا للمجلس الشرعي المالكي.

وفي سنة 1351هـ صدر الأمر الملكي بتلقيبه بشيخ الإسلام الملكي وتسويته بزميله (شيخ الإسلام الحنفي) تسوية تامة، وفي نفس السنة صدر الأمر الملكي بتعيين رئيسٍ للنظر في شؤون التعليم بجامع الزيتونة بلقب شيخ الجامع الأعظم، وأسندت هذه الرئاسة إلى الشيخ الطاهر ابن عاشور، واحتفل بولايته هذا المنصب يوم السبت 25 جمادى الأولى من هذه السنة 1351هـ في محفل جليل ألقى فيه خطابا تاريخيا بسط فيه القول على أوضاع الجامع وبيّن مبدأه في إصلاحه، وتناقلت هذا الخطاب أجهزة الإعلام في العاصمة التونسية.

وفي سنة 1950م انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وفي سنة 1955م، انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية بدمشق.

وله مؤلفات عدة تتسم كلها بطابع العمق، وأشهرها تفسيره القيم: (التحرير والتنوير) في ثلاثين مجلداً!

وتوفي -رحمه الله- يوم الأحد 13 رجب عام 1393هـ الموافق لـ 12 أوت 1973م، وسيظل -بفضل علمه الغزير، وأعماله الجليلة، والأجيال العلمية التي رباها، وأضاء طريق الحياة الكريمة أمامها- مفخرة المغرب العربي والعالم العربي والإسلامي قاطبة، وقدوة كل لبيب أريب يطمح إلى العلا والسؤدد.

• مِن وحي تكريم الإمام ابن عاشور:

إذا كان التكريم أحيانًا يفقد دلالته ومغزاه لوضعه في غير موضعه، فإن تكريم الإمام الطاهر ابن عاشور كتكريم ابنه الروحي الإمام عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العلمية والإصلاحية بالجزائر، فكلاهما أدرك رسالته في الحياة، فانقطع لها بكل ما أوتي من علم وموهبة، وحول وقوة، يؤديها بتفان وحب وجد، فلم يكد يمضي على توليه مشيخة الجامعة الزيتونية عام واحد حتى ظهرت ثمار جهاده الفكري والإصلاحي، وأخذت الجامعة في الانتعاش والازدهار، فما من يوم يمضي إلا وهو دون الذي يقبل، وقد كتبت المجلة الزيتونية في افتتاحيتها لعدد 2 – 3 شعبان ورمضان 1364هـ وجويلية وأوت 1945م تقول عن هذا التقدم والازدهار، بفضل هذا الرجل المحنك الذي حباه الله بعلم واسع، وعقل راجح، وتفكير سديد، وإرادة ماضية، وقدرة على مواجهة الصعاب لا تلين ولا تنثني:

«ووجد الأستاذ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور نفسه أمام هذا الواجب -وهو ترقية الجامعة الزيتونية- الذي وجهته نحو فضيلته الإرادة الملكية السنية عن إجماع أهل الدولة ورجال العلم، فلم يسعه إلا أن يهجر كتبه وأوراقه، وينزل إلى المحيط الاجتماعي، فتلقى إليه الهيأة بقيادتها عن نفوس مقتنعة بأنه ابن بَجْدَتِها وتلتف حوله عواطف التأييد وحسن الثقة، مختلفة المصادر، متباعدة الأوساط.

وابتدأ حفظه الله يتقدم بقافلته الناهضة في طريق الجد ومنهج الرشد، فلا يخطو خطوة إلا والقلوب من ورائه تزداد به تعلقا، وفي سيره ثقة، والناظرون حواليه يدخلون غمار القافلة، وينصبون في سيلها، حتى

انقضى الموسم الدراسي موسما تاريخيا بما ملأه من أحداث قدرها حق قدرها الخاص والعام.

وقد أقيم حفل تاريخي بهيج بمناسبة اختتام السنة الدراسية بالجامعة الزيتونية قوّمت فيه الأحداث الهامة التي تحققت خلال هذه السنة بقيادة الإمام العميد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وأشيد فيه بمجهوداته البناءة ومؤازرة ذوي الهمم الوثابة من رجال العلم والمعرفة، وقدم الإمام خطابا تاريخيا هاما بالمناسبة أشاد فيه بفضيلة العلم، وقدم نصائح غالية للطلبة الزيتونيين وأساتذتهم، وتعرض لوضع التعليم بالزيتونة ماضيا وحاضرا وَرَنَتِ الأنظار إلى معاضدة الأوساط الإسلامية وتأييدها حتى تمكنت الزيتونة من اجتياز عقبات، وتحقيق أمنيات، وجاء في الخطاب بالخصوص: بعد أن عرض على الحاضرين برنامج الزيتونة الجديد:

«وأنا حين أعرض هذا البرنامج الذي أراه خير كفيل لتحقيق آمالنا في الإصلاح يخامرني اليقين بأني واحد من أبنائي السادة شيوخ التدريس ما أعرف منهم من تسهيل سبل هذا المهم، بما يبذلون في إعانتنا من سامي الهمم لما أبدوه من التفاف حول المشيخة ومعونة على مقرراتها، ومصارحتهم بما يتوسمون منه صلاحا للعلم وذويه، ولقيامهم بالمهام العلمية التي تسند إليهم، بفرط رغبة وعمل بعزيمة، وقد ظهرت آثار المرامي الصائبة، والعزائم المتينة في جميع أركان الجهاز التعليمي واضحة للمبصرين، وستكون بالغة أسماع الواعين فأشكرهم على ما قاموا به من بث العلوم فكدوا أذهانهم وضايقوا أوقاتهم ليجتنوا لأبنائهم جنى شافيا، ويسيغوهم من مستنبطات أفهامهم نميرا صافيا»[1].

(1) المجلة الزيتونية، جويلية، أوت 1945م.

والذي لا مراء فيه، أن الإمام محمد الطاهر ابن عاشور جدير بهذا التكريم التاريخي الذي خص به، لما يمتاز به من مكانة علمية مرموقة بين العلماء في العصر الحاضر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن نهوضه بأعباء الزيتونة، وصرفه لهمته إلى السير بالتعليم الزيتوني نحو الأفضل، وحرصه الشديد على الأخذ بأيديهم حتى يزدهر التعليم وتطيب ثماره، كل ذلك جعل للإمام مكانة فذّة في القلوب، وجعل لهذا التكريم أعمق الدلالات، وأوضح المعالم والإشارات.

وهذا كله يجعلنا نقول في جزم ويقين أن كل ما قيل في حفل تكريم الإمام من خطب وقصائد، صدر عن قلوب مِلأها القناعة بفضل الرجل، وأنه جدير بكل حفاوة وتقدير، وهذا -لعمري- هو التكريم الذي تطمح إليه النفوس الكبيرة، والهمم العالية لأنه العنوان الظاهر على (الباطن) الطاهر، وإذا كان الموضوع يُدخَل إليه من عنوانه، فإن التكريم الصادق من عناوين العظماء التي تدل على حقيقتهم وتهدى إلى كنههم وجوهرهم!

■ تكريم الأستاذ أحمد توفيق المدني

● تمهيد

لا أحد يجهل أو ينكر، أو ينسى، كفاح المرحوم الأستاذ أحمد توفيق المدني، فحياته كلها كفاح بالفكر والقلم واللسان، فقلبه من أيام الطفولة- كان ينبض بحب المغرب العربي، وخاصةً الجزائر أصله، وتونس مولدَه ومنشأَه، وأملُه القويّ الذي ملك عليه مشاعرَه وأحاسيسه، أن تطلُع شمس الحرية من جديد على هذه البلاد التي غرقت في ظلام الاستعمار الفرنسي، والطريقُ الذي اختاره لنفسه، وسلكه في اقتناع واعتزاز، هو طريق الكفاح، والمواهبُ الفطرية، والمحصولات الفكرية التي أنعمَ الله بها عليه قد أهّلته لذلك وجعلته يؤدي رسالته في الحياة على أحسن وجه، ويبرز بين المناضلين المشاهير، ويحتل مكانة مرموقةً في كل أقطار المغرب العربي بالخصوص، وهو بهذا الكفاح، وبهذه المكانة جدير بالتكريم والتقدير، وهذا ما فكر فيه رجال من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1955 بعد أن مرّ عليه ثلاثون سنة بالجزائر من يوم أن نفتْه إليها السلطات الاستعمارية الفرنسية، ولندع الأستاذ يحدثنا عن ذلك بنفسه فيما يلي:

«وإننا لفي غمرة هذه الأحداث، والثورة عارمة[1]، والقيامة قائمة، إذ تذكر بعض إخواني وأصدقائي، من رجال جمعية العلماء، ومن كبار الشعراء والكتّاب المبرزين أنه خلال شهر يونيو من سنة 1955، مرّ عليّ بالقطر الجزائري ثلاثون عاما، من يوم أبعدتني السلطة الاستعمارية إليه، خاطبني اثنان من الإخوان الفضلاء في الأمر، هما الشيخان حمزة بوكوشة، وأحمد سحنون، وقالا: إن هذه الفرصة لا يجب أن تضيع أو

(1) يذكر هذا في سياق حديثه عن الأحداث المختلفة وخاصة منها أحداث الثورة التحريرية، ومؤتمر باندونج وكلمة الجزائر فيه.

تهمل، وإننا نريد أن نقيم بهذه المناسبة حفلا يشارك فيه من أراد المشاركة، و.. فقاطعتهما أقول: أهذا يا إخوتي وقت حفلات وتنويه بذكريات؟ إياكما أن تفكرا في هذا، أو في مثل هذا، الثورة أولاً والثورة أخيرًا، لا يجب أن يعمل عمل أو تقال كلمة إلاّ في ميدان الثورة، بما ينفع الثورة وبما يغذيها. وطال الجدال، واحتدّ أحيانا وقالا: إنما نحن للثورة نعمل، ولإذكاء نارها نسعي، وإن كنا نحتفل "بالثلاثين" فليس لك من أجل شخصك، بل من أجل عملك الثوري، وتأكيدًا لكل من يرى ويسمع، منا ومن أعدائنا، إنّ الأمة الجزائرية لا تنسى جميل من أحسن وأدي الأمانة بإخلاص، ولا تنسى إساءة من تنكب عن الطريق السوي ونكص على عقبيه. وفي هذه الفترة الحاسمة بالذات، نريد أن نبرز قيمة رجالنا، وتعلقنا بهم، والتفافنا حولهم، حتى تعلم الحكومة وأذنابها وخدام ركابها، أننا عصبة قوية نسير في طريق الجهاد والتضحية، زمرة متضامنة قوية، لا نهاب أحدا، ولا نخشى نكالا، ولن يصيبنا إلاّ ما كتب اللّه لنا. وزاد على ذلك الشيخ أحمد سحنون الشاعر الملي الفحل، كلمات صادرة من أعماق الفؤاد تشع إيمانا وحماسا، وسكتا وسكت.

وبعد أيام، جاءني الشيخ حمزة يقول: سيقع الحفل يوم العشرين من جوان بمطعم الشباب، المواجه لساحة الحكومة، ويشترك فيه سبعون رجلا اخترناهم من خاصة الخاصة، وسيلقى به عدد من القصائد والخطب الهادفة، قلت: ما رآه المؤمنون حسنا، فهو عند اللّه حسن، ويممت القاعة في الساعة المعينة، وإذا بي أجد جمعًا من رجالنا وشبابنا المبرزين، وكانت حفلة من أجمل وأبدع الحفلات يسودها التفاؤل العظيم، والإيمان بنصر الجزائر بعد الجهاد العنيف[1].

(1) حياة كفاح ج3 ص 90/91 للأستاذ أحمد توفيق المدني.

• حفل التكريم:

وفي يوم 20 جوان سنة 1955 أقيم الحفل التكريمي بمطعم الشباب المواجه لساحة الحكومة، وحضره جمع غفير من آهل العلم والأدب، جاؤوا جميعًا للمشاركة في تكريم رجل طالما هزّهم بخطبه الحماسية، ومحاضراته المفيدة القيمة، وألقيت عدة خطب وقصائد شعرية أبدع فيها أصحابها، وعبّروا فيها عن تقديرهم للرجل وقد زادهم حماسة ذلك الزحف الثوري المبارك الذي تُسَجِّل انتصاراته في مختلف أنحاء الجزائر الثائرة الملتهبة، ومن هنا كان أبرز ما يميز كلَّ ما قيل في الحفل من خطب وقصائد هو روحُ الثورة المتعالية، وعزيمة التحرر المتّقدة، والاعتزاز بالأبطال المغاوير، الذين يقودون معارك التحرير بشجاعة وبسالة، وانتظار الغد المشرق الذي بدا فجره على الأفق القريب.

• مماً قيل في حفل التكريم:

ونقتصر على تقديم أربع قصائد مما قيل في هذا الحفل، وهي التي أمكننا العثور عليها، ونقدمها كاملة لأن الاكتفاء بلقطات منها يُخل بالصورة المعبِّرة عن المكرَّم وشعور المكرِّمين وإحساسهم وهم يعيشون ثورة التحرير الواعدة:

قصيدة المرحوم عبد الكريم العقون[1]

كفاحك "أحمد" يطوي السنين !　　فسل عنه يا ليث هذا العرين

لقد ذدت عنه العدى ثابتا　　أمام الأعاصير، والظالمين

وكافحت يا بطلا خالدا !　　عن العرب تحمي حماهم أمين

فأمعنت في المجد، تبغي الخلود،　　كأجدادك العرب الخالدين

---

(1) العنوان من وضع الأستاذ توفيق في كتابه (حياة كفاح).

وجردته، كالحسـام، يراعـا   سنى نوره كاد يغشي العيـون
فأبـرزت تاريخنـا مشرقـا   -كوجهك- يسطع في العالمين
صحائف مشرقة كالضحى   تلألأ خلف مئات السنين
وبيضت وجـه "الجزائـر" إذ   جلوت محاسن منهـا، تزيـن
أعـدت إليهـا مفاتنهـا   فأغـرت مفاتنهـا، الناظريـن
عوالم من ذكريات الجـلال   حواهـا فـؤاد ذكي فطيـن

* * *

ويـا حبـذا قلم فيصـل   يدبـج آي البيـان فنـون!
هززت عـروش الطغـاة بـه   وسفهت أحلامهم والظنـون
تفيض البلاغة عن جانبيـه   ويجري عليه البيـان رصيـن
تخط بـه ما يواسي الكلـوم   ويشفي الصدى ويزيح الشجون
تناجيـه نجوى محـب، بـه   لواعـج شـوق، وداء دفيـن
فيفصـح عمّا بـه من جـوى   ويأتي بسحـر حـلال مبيـن
فيشفي لواعجه المحرقـات،   وتأخذه هـزة، وحنيـن
تحـن إليـه خفـوق الفـؤاد،   وتشتاقـه كـأخ أو خديـن
تطارحـه خلجـات الضميـر،   ونبض الفؤاد، وهمس الجفون
تغذيه من قلبك المستفيـض   دما زاكيا، فائرا، كالأتـون
وكم من نواد بك ازدهـرت   فأنعشتها بالنميـر المعيـن
وكنـت بهـا ظافـرا شاديا   فأطربت روادها باللحـون
فمادت، نشـاوى، مرنحـة   بخمر سقيت بها المغرميـن

وحلقـــت بالسامعيـــن إلى   عوالـــم حافلـــة بالفتـــون
وأشعلت في الخامدين حماساً   أعدت بـه الروح للخامديـــن
إذا ما خطبت هززت الجموع   بصوت له في الجمـــوع رنين
خلقت خطيبا تبذ الرفــــاق   وتصعد كالنجم فوق الظنـون
صهـــرت الكـلام وقد صغتـه   روائـــع تزري ببـــدر مصـــون
وذللت تلك المعاني الصعاب   وذوبتهـــا نغمـــا للبنيـــن

* * *

ثلاثون عاما مضت في النضال   أبيـت -بما حملت- أن تليـن
وقضيتهـا في جهـــاد طويـل   مع الجهل، والظلم، والغاصبين
فأبعـدت عـن موطـن زاخـــر   بروح الفـداء الذي لا يهـــون
وكنت ترعرعـــت في غيلـــه   وكافحت عنه كفاحـا مكيـن
وضعت العصا ها هنا وانتضيت   حساما يصيب الكلى، والوتيـن
مضاء وعزم، يهـــد الجبـال،   وصبـــر على النائبـات، ولين
ثبـــت أمام العـــدى، صامـدًا   كأنـــك طـود أشـم متيـــن
وأنـك رَمز الفـــدى والثبـات   إذا خان قوم فلسـت تخـــون
إذا دجت الحادثات انبريـــت   تنـــورها بضيـــاء اليقيـــن
وترمي الدياجي بفكـر منيــــر   كبدر يشـق سنـاه الدجـــون
فأحبب بأخلاقـك الطاهـــرات   كـروض به الآس، والياسميـن!
يطيـر الســـرور بنـا كلمـــا   لمحنـاك تبسم، طلق الجبيـن
شمـــائـــلك الغـــر قدسيـــة   تغذيتهـــا من هـدى مستبيـن

ويا أيهــا الجمــع ! يا من رعــى بهذا الزمـان، حقــوق القريــن
أرى النــور يعلــو محيّــاك إذ وفيــت لــه فقضيــت الديون
"أتوفيق" ! سر في طــريق العــلا فحولك أسد الحمى الطامحون
وعــش للعروبــة، رائدهـــا، ودم "للجزائر" حصنـا حصين

قصيدة الشيخ أحمد سحنون[1]

يــا جمــال البصائـــر وجليــل المآثـــر
وجديــرا بأن يكـــو ن إمـــام (الجزائـــر)
سوف تغدو بخير سعــ ـيك خيــر الجزائـــر
ســوف يأتي صباحهــا بعــد هــدى الدياجــر
مؤذنـــا بانتصـــارهـا معلنـــا للبشـــائـر
أنـــت (توفيق) أمـــة شغفـت بالمفاخـــر
لك الهـــام فيلســـو ف وإحســـاس شاعـــر
ويـــــراع كأنمـــا نفثــه نفــث ساحــر
وافتــــراع إذا اعتــليــ ــت متـــون المنابـــر
وتآليـــف للجـــزا ئــر هي أغلى الذخائــر
وخــــلال أريجهــــا كأريـــج الأزاهـــر
ودهـــاء يريـــك مــا في خفايــا السرائــر
وأنـــاة بهـــا تحـــد يت سود المخاطـــر
أي ذكــر على الشفــا ه مدى الدهــر عاطـر
أنت -واللّه- خالـــد رغم أنــف المكابـــر

---

(1) العنوان من وضع الأستاذ توفيق المدني في كتابه (حياة كفاح).

قصيدة شاعر الثورة مفدي زكريا[1]

شاكرُ الفضل، ليس يُعــــدَمُ شكــرا
خلدوها إذن، (لأحمـــــدَ) ذكــرى
واكتُبوها، وليَقْــــرأ الجيــلُ منهــا
في (كتاب الجزائر) اليومَ سطــرا[2]
واذكروا اليوم -وهو عيد الضحايا[3]
و(الضحايا) رمز الضحايا الأبـــرّا!
و(الثلاثينَ) قد قضـــاها، جهــاداً
وجِـلاداً، تخـــالُها اليـومَ شهــرا
عامــراتٌ بالجـــدّ، إن تنشروهـــا
تنشروا في ذُرى الجزائر، عِطـــرا
و(التقاويـــمَ) و(البصــائرَ) و(النـ
ـادي) و(عثمانَ) والكتاب الأغرا[4]
خالـداتٌ على الزمـــان، بَـــواقٍ
كالمثاني، تفيض نـــوراً، وطُهــرا

---

(1) العنوان من وضع الأستاذ المدني في كتابه (حياة كفاح).

(2) كتاب الجزائر من تأليف الأستاذ توفيق المدني.

(3) كان الاحتفال في يوم عيد النحر المسمى في الجزائر بيوم الأضحى.

(4) كان الأستاذ المدني قبل إبعاده عن تونس ينشر تقاويم سنوية يسميها بتقويم المنصور، وكان رئيس تحرير جريدة البصائر، وخطيب نادي الترقي ومؤلف كتاب عثمان باشا: داي الجزائر.

صادقاتُ الخُطى، إذا طوَّح العَـــز
م بها، صادفت حِفاظًا، وفكـــــرا
صالحـاتٌ، فلا المطامع تُغريـــــ
ـــها، وكم خُلّبُ المطامعِ، أغـرى
وإذا لم يـــكُ الصــــلاحُ دليـــلاً
في المساعي، كانت ضلالاً وخُسرا
وإذا أخطـــــأ القيــادةَ (تـوفيـ
قٌ) وعقلٌ، كانت على الشعب، وقرا
وإذا العاملـون، كانـوا شَتَاتًـــــا
بشّرِ العامليـــن، ويــلاً وشـــــرا
إنما يُكْتَـــبُ البقـــاءُ، لشعـبٍ
حين يختـــارُ جُنْـدَه، يتحـــرى
إنمـا يُكتـب الخلــودُ، لحـــر
ذي ضمير، ضميرُه عاش حــــرّا
إيهِ (توفيقُ) فيكَ أخلصتُ شعراً
قدُسيًا، كالوحي، ظنّوه سحـــرا
أنا، إن كنتُ في القريض أميـــراً
أبدًا في المديح، ما قلتُ شعـــرا
وإذا أنكـــروا، رسالـــةَ شعــري
جئتُ بالمُعجزاتِ، في الشعر تترى

قد رأينا الحقوق تؤخـــذُ قهـــرا

فاغ صبنا إمـــارةَ الشعـــر، قهـرا

ورشقنـــا اللّوآ، فمـــن ينتزِ عْـــهُ

يتقـدم، يكُــنْ بذلك، أحـــرى !

لستم الناس، أيها الناسُ، إن لم

ترفعوا للنّبوغ، في الناس، ذكـرا

كرِّموا اليوم (أحمداً) تُكرِموا فيـ

ـه الحِجى، والنُّهى، وعلماً وفِكـرا

لستمُ اليوم، تُكرمُـــونَ نَزيـلاً

بعد منفاهُ، في البلاد استقـرا[1]

فهو من صُلبها، وإن تحسبـــوه

تونسياً: إن الجزائرَ (خضـرآ) !

أبعَدوه، فقـــرَّبوه. وبعـد الـدا

ر، قربٌ مُذْ أصبح الذّلُّ كـفـــرا

أيها الشعبُ -وللليالي حُبَـالى-

بعد حيـنٍ، سيُطْلِعُ اللّه فجـــرا

اتقـوا اللّه، في الجزائـــر، يا نا

س، فقد ضاقتِ الجزائر صبرا...

(1) نفي المدني من تونس إلى الجزائر عام 1925 إثر نشاطه السياسي بالحزب الحر الدستوري التونسي.

عاث فيها الطغاة، عسفًا وظُلما
ورماهــا البُغـاة، جهلاً وفقــــرا
واستُذِلَّت رقابُهــــا ، فتراهــــا
وهيَ في أرضها ، تجـوعُ وتَعْرى
واستُبيحتْ أرزاقها ، ليـــس إلا
(قيصرٌ) يملك الحياةَ و(كسرى)
واسْتُرِقّت نـوابُهــــا ليـــس إلا
ذِمَمٌ كالدُّمَى، تُبـــاعُ وتُشـــرى
ورمى الشامتونَ فيها ، بنيهـــا
بالتعادي، والحقدِ، لوْمًا وغـدرا
فغــــدا مسلمٌ، يقاطــع فيهــا
مُسلمًا، والدخيلُ يختال فخرا[1]
إنّ كفًّا، غـدت تفـرّق ما قــد
جمع اللّه في الجزائر! بتــــرآ
ولسانًا، في الحق أخرسَ، لم يصـ
ـرخْ بوجه الفساد: ضَعْ فيه جمرا
وضميـــرًا منافقًا ، ظـل يحتـا
لُ، ويختان شعبَه: بَاءَ خُســـرا

(1) إشارة إلى المقاطعة التي دبرها الاستعمار ضد (الميزابيين) على يد عملائه أتباع حركة مصالي الحاج وأزهقت فيها أرواح الأبرياء. وذلك ابتغاء إشاعة الفتنة بين أجزاء الشعب وإفشاء النزعة العنصرية والمذهبية والإقليمية بين أبناء الجزائر الثائرة، لبعث الفشل في أجهزتها. وقد حاربت جبهة التحرير هذه المحاولة وقضت عليها في مهدها.

والخؤونُ الخؤون، من لم يعالج
كبِدًا في الجزائر، اليومَ حَسرى
نحن في هذه الجزائر، إخـــوا
نٌ، جراحاتنا الثخينة (حمرآ)
لُحْمَةُ الضادِ، والعروبة، والتـا
رِيخ والدين: آيُ ربّك كبـرى
وهواهـا، وماؤهـا، وسماهـا
وثراهـا، الزكيُّ شبـرًا فشبـرا
فاسألوها.. تُجِبْكُم من حشاها
صَرَخاتُ الجدود، تُنْذِرُ شـرا
وتنادي: ألَيْسَ فيكم رشيـدٌ
يدفع اليومَ، مَنْكَرَ القول، جهرا
أصلحوا ذات بينكم، واستقيموا
إن فعلتم: سيجعل اللّه أمرا..

قصيدة شاعر الوطنية والعاطفة والإحساس أبو القاسم سعد اللّه[1]

قصة عملاق..
ثمل الثغر فغنى
للندامى

(1) العنوان من وضع الأستاذ توفيق في كتابه (حياة كفاح).

أنشدات
نابضات بالحياة
والخزامى
وتدنى
من فم الفجر الوضي
يلثم النور بظمآن روى
ويطوف
بالضفاف الخضر والظل الوريف
كلما اشتاق تلاقى
منح النغم لساق..
واستهاما
بالندامى
أنشدات
خالدات
من لهاة الأطلس
من روابي السندس
من صدى وهران حتى تونس
ومراعي الشيخ في البيد الغضاب
ومغاني الأنس في أرض التصابي..
أنشدات تتصادى

كلما الصبح تهادى
عبر أرواح الضحايا
بالتحايا
من غطاريف «الشمال»
ذي الجلال
كلما أصبح تهادى
بين أعطاف الوطن
نشر الحب وأودى بالضغن
ومضى يلثم تيجان القنن
ويهني الفائزين
ويمني الجاهدين
بالغد الباسم والنصر المبين

* * *

كلما فاح عبير وتندى
من ربى «الخضراء» أهدى
لبني «البيضاء» أشذاء التحية
في عصامي طليق العبقرية
رائد للصاعدين
بالبيان واليراع
والنشاط والدفاع

رغم أشواك السنين
والعقوق
في الطريق...

* * *

إنها قصة حر
كافح الظلم فأبلى
كافح الجور الخضيب
وافتدى الحق السليب
وهدى الشعب الضليل
وارتضى الأبعاد عن بيع الضمير
ليضيء الحالكات
في المصير المغربي
ويزيح العقبات
من دروب الزاحفين
من شباب العرب
ولقد أثمر سعيه
ونما في الشعب وعيه
وبدت آفاق عز واعد
في مجاهيل الحياة القلقة
عزنا الواعد بالخير العميم

عزنا الباسم من خلف الغيوم
فلنتابع سيرنا
والعمل
ولننهنه عزمنا
بالأمل
فالشمال في انتفاض
وانتقاض
وبنوه في انتصار
وانتظار
لمصير أسعد
ومقام أرغد
وهم اليوم رعود
قاصفات
وبنود
خافقات
وهم اليوم وعود
حافلات
وسعود
طالعات
إنها قصة مجد

إنها صفحة خلد
كتبتها يد عملاق خطير
يد (توفيق) الكبير
اسألوا الطرس كم انقض شهابا
ورضابا
واسألوا الأنس كؤوسا وحبابا
واسألوا الشعب شيوخا وشبابا
واسألوا الفكر رسولا وكتابا
والأماني مترعات
والنفوس حائرات
بالظنون
واليقين
إنها لا شك تدري
من سفير الملحمة
من أمد المكتبه
بثمار يانعات
وقطوف دانيات
وأهاب بالشباب
في سواد مدلهم أغبر
في وجود مقشعر أحمر

دامي القيد كسير
بين مسجون ضرير
وانتقام ونذير
رغم هذا فقد اختط الدروب
ومضى ينفح موفور الطيوب
كلما حل مكانا
خلد الذكر وصانا
شرف (الأختين) في دنيا لعوبه
وأضاف صفحة بيضاء في سفر العروبة
كتبتها يد عملاق خطير
يد (توفيق) الكبير
إنها قصة مجد
ونضال
إنها قصة جهد
وجلال
قصة الحر الذي يأبى القيودا
قصة السيل الذي يفرى السدودا
والينابيع العذاب
تخصب الأجدب من حر التراب..
كيف لا تدري الليالي

من قضاها في اجتهاد واشتغال
في تآليف وليده
ذات أصباغ جديده
ضافيات... وتراجم
نادرات... وعزائم
تستشف الحجبا
وتقود القافلة
للحياة الفاضلة
كيف لا تدري الليالي
ما بنت كف المعالي
إن تكن تعلم فالآداب أحرى
أو تكن تجهل فالتاريخ أدرى
فاسألوها عن "كتاب" ورواية
وعلوم ودراية
ودراسات تعب الأبحرا
وانطلاقات ترود الأعصرا
فاليراع الحر يهمي كوثرا
والبيان السحر يندي عطرا
والزمان الشيخ راوي المفصل
والشباب الحي وارى المشعل

اسألوها فهي تدري
من أضاء جانبيها.. ووعاها
واستشف منتهاها..
واسألوها بعد الصحافة
فهي قانون العرافة
كم لها من جولة
في ميادين الكفاح
إذ رمتها الحادثات
بأعاصير الرياح
فانبرت تأسو الجراح الراعفات
وتغني للشعوب الزاحفات
نحو آمال فسيحة
أنشدات
نابضات بالحياة
من لهاة الأطلس
من روابي السندس
من صدى وهران حتى تونس
هذه قصة عملاق خطير
إنها قصة (توفيق) الكبير

المرجع: أحمد توفيق المدني حياة كفاح الجزء الثالث: ركب الثورة من ص 90 إلى ص 104، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر – 1983.

● **لمحات من حياته:**

ولد الأستاذ أحمد توفيق المدني في تونس (العاصمة) في نهج الناعورة يوم 24 جمادى الثانية عام 1317هـ الموافق ليوم أول نوفمبر سنة 1889م من أبوين جزائريين مهاجرين إثر إخفاق ثورة 1871 بالجزائر، وما إن بلغ سن التمييز حتى أدخله والده الكُتّاب، ثم انتقل إلى المدرسة القرآنية، فتلقى فيها مبادئ اللغة الفرنسية، ثم دخل جامع الزيتونة وواصل دراسته فيه بكل رغبة وجد وطموح!.

ولذكائه المتفوق، وشغفه بالعلم، كان دومًا في طليعة الطلبة، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة 1914 أخذ يكتب في صحيفة (الفاروق) بالجزائر مقالات نارية ينتقد فيها بشدة سياسةَ الاستعمار اللعين، في محاولة تحطيم الأخلاق الإسلامية والقضاء على اللغة العربية، وانضمَّ إلى جماعة من الشبان كانوا يعملون على مشاغبة الاستعمار الفرنسي، فألقت السلطة الفرنسية عليه القبض وزجَّت به في السجن، وذلك في شهر فبراير سنة 1915 وظل في ظلماته أربع سنوات، ولما اتسع نشاطه السياسي، وتفاقم أمره، وصارت السلطات الفرنسية تضيق منه، نفته إلى الجزائر وذلك يوم 5 يونيو سنة 1925، وظل في الجزائر بقية عمره في جهاد فكري في مجالات شتى: يقاوم تيار التفرنس الخلقي والسياسي، في صحف ومجلات منها (الإصلاح) و(الشهاب)، ويُلقي في مختلف المجالات دروسا ومحاضرات، للتوجيه والإصلاح وإيقاظ العقول، وحفز الهمم!

وبعد اندلاع ثورة التحرير في أول نوفمبر سنة 1954انتدبته جمعية العلماء ليكون ضمن وفد الجبهة إلى الخارج، فسافر إلى القاهرة سنة 1956 وهناك عينته الجبهة رئيسا لمكتبها، وكانت ترسلهُ طوال مدة الثورة على رأس وفود للبلاد العربية، والبلاد الآسيوية، وتعين في الحكومة المؤقتة التي تشكلت في شهر سبتمبر 1958 وزيرا للشؤون الثقافية، وفي سنة 1961 عين ممثلا بدرجة سفير لدى الجمهورية العربية المتحدة، ولما استقلت الجزائر عين وزيرا للأوقاف في الحكومتين الأولى والثانية، وفي أكتوبر سنة 1966عين سفيرا لدى حكومات العراق وتركيا وإيران، وفي 10 ماي 1967 عين عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وفي سنة 1971 عين سفيرا في باكستان، وعندما تأسس المركز الوطني للدراسات التاريخية في الجزائر عين فيه مستشارا ومشرفا، وفي يوم 1983/10/18 انتقل إلى رحمة الله بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال، وخوالد المواقف!

■ تكريم العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

• تمهيد:

صورة أخرى للتكريم الصادق الذي وقع في مكانه، وأدى بعض ما يجب من الحقوق الأدبية على أهل العلم وعشاقه، نحو صناع الأجيال، وبناة الحضارة الإسلامية، وأقام الدليل واضحا على أن التاريخ قد يغفل يوما عن الرجال العاملين، ولكنه لا يلبث أن يلتفت إليهم، وينصفهم، ويعترف بفضلهم، ويكفر عن غفلته عنهم، بإمعانه في الإشادة بمآثرهم، والتغني بجلائل أعمالهم، لأن العمل الصالح البنّاء، كالزهر العطر، يهدى بأرجه وعَرفه إلى مكانه ولو غطته الأعشاب والنباتات.

(ففي يوم الثلاثاء 27 جوان 1961م حلّ فضيلة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بتونس قادما إليها من القاهرة عن طريق البر وقد زاره في مقر إقامته فضيلة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وابنه الشيخ الفاضل ابن عاشور، وحضر عشية الجمعة 30 جوان 1961م حفل الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بجامع الزيتونة المعمور!

وتنادى أحباء الشيخ[1] إلى إقامة حفل تكريمي على شرفه، ونشروا يوم الخميس 13 جويلية 1961م ما يلي:

• تكريم الشيخ البشير الإبراهيمي:

تنظم نخبة من الأدباء التونسيين من أحباء (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) حفل تكريم عائلي احتفاء بالعلامة الكبير فضيلة الشيخ

---

(1) ويفرض علينا التاريخ والواجب الأدبي أن نشيد هنا بالسعي الذي قام به صديقنا الشيخ عبد الرحمن شيبان، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لإنجاز هذا الحفل التكريمي الذي كانت له ثماره الطيبة ونتائجه الحسنة!

محمد البشير الإبراهيمي، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأحد جهابذة المغرب العربي في الساعة السادسة من عشية اليوم بدار رزوق في سيدي أبي سعيد، وجميع الشخصيات الأدبية والعلمية التي وجهت إليها الدعوة مدعوة للحضور في هذا اللقاء السعيد، مع مفخرة شمالنا الإفريقي الذي حلّ بتونس منذ أيام، وهذه نسخة من دعوة الحفل:

الأديب الفاضل سيدي:

يسعد جماعة من أحباب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن تشرفوهم لحفل الاستقبال المتواضع الذي يقيمونه بدار رزوق بسيدي أبي سعيد يوم الخميس 13 جويلية على الساعة السادسة مساء وذلك على شرف العلامة الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي بمناسبة حلوله بالديار التونسية قادما من القاهرة مع الشكر.

أحباب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[1]

● حفل التكريم:

وما إن حلَّ موعد الاحتفال، حتى كانت دار زروق بسيدي بوسعيد غاصةً بالعلماء والأدباء والأعيان والوجهاء، ومحبي الجزائر ومفخرتها أمير البيان العربي الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، لا سيما والحفل يقام في وقت والثورة الجزائرية العملاقة تحث خطاها إلى النصر النهائي!

توالى على المنصة خطباء وشعراء تنافسوا في الإبداع، كلٌّ يريد أن ينصف التاريخ ويعبر عن تقديره وإعجابه لعظيم من عظمائه!

---

(1) عن آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج5، ص 268.

ورغبةً منا في الإيجاز والاختصار، نكتفي فيما أُلقي من الخطب والقصائد بقصيدتي الشاعرين: الأستاذ مفدي زكريا، والأستاذ محمد الأخضر عبد القادر السائحي، ثم بخطبة المحتفى به الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي.

قصيدة المرحوم الأستاذ مفدي زكريا:

قال رحمه الله:

يا كريماً، يطيبُ فيه النظامُ   التحياتُ، أيُّهذا الإمام
التحيات -يا بشيرُ- وفي الاطـ   واء معنًى، يضيق عنه الكلام
التحيات، يا باعثَ الرّجة الكبـ   رى، تهاوى حيالَها الأصنام
والذي ألهبَ العزائمَ فانقـ   ـضّت تبَارى، يسوقها الإقدام
والذي فكّ طلسم الشعب فارتـ   ـدّ بصيراً، وانجابَ عنه الظلام
والذي أنقذ العروبة لما   نُصبَت للعروبة الألغام
وحمى (دولة الكتاب) وكانت   في الحِمى (دولةُ الكتاب) تُضام
عَلَمًا: لُحْ بأرض تونسَ واسطعْ   بسماها، تحفَّكَ (الأعلام)
وتنزَلْ مكرَمًا، وعزيزاً   في بلاد يعتزُّ فيها الكرام
وتفيّأْ ظلالَها فهي (خضرا   ءُ) ففي قُدسها يَطيب المُقام
لك فيها -رغم المدى- ذكرياتٌ   لم تنلْ من شبابها الأيام
وجنود، من صُنع روحك فيها   وشيوخ، موقَّرون عظام
وأديبٌ، من فيض وحيك مسحو   رٌ.. للُقياكَ شائقٌ مستهام
والقَ فيها -يا شيخُ- شعبًا أبيًا   عربيًا (صميمُه) الإسلام
لكَ فيه، وللجزائر منه   صلواتٌ، ولُحمةٌ، وذمام
عبقرٌ، من ذكائه يُصْنَعُ المجـ   ـدُ ومن عَزمه يُخَطّ النظام

مُذْ نجا من وَثاقه انصبّ يجتـ ـثُّ وَثاقًا، نَسيجُه الأَوهام
وبأكباده، انبرى يبتني الدا ر، وقد هدّ رُكنَها الظُلاّم
أيها الحفل، إنْ أقاموكَ (بالدا ر) في مَعْبدِ الضلوع تقام
والرُّبَى من "أبي سعيدَ" قلوبٌ خافقاتٌ يفور منها، الغرام
لقَّبوها "بدار زرّوقَ" لما كان فيها -مع السماء- انسجام
وحكى الزورق المرنّح بالشا طي، بهاها فاهتاج فيه الهُيام
والعيون الزرقاءُ، منها استمدت فتنةَ السحر، مذ عراها السقام
والنسيم العليل، أنفاسُ عذرا ها، ونجوى حِسانها، الأنغام
"دارَ زرّوق": خبّري الشيخَ: إنا شعراءٌ، تهفو بنا الأحلام
مهجٌ صاغها منَ الطُّهر حبٌ وقلوب، سما بها الإلهام
قد رضينا من الحياة بدنيا نا، وقد ساد في دُنياكُمْ طَغام
واعتززنا، بمنطق عربيّ دنّست قُدْسَهُ الرفيعَ، لئام
لغةٌ، من دم الحشاشات مبنا ها، ولفظٌ، تعنو له الأفهام
ومعان للمنتهى تتسامى صُعُدًا، لا تحُدّها الأجرام
شوّهتها -طوعَ الدخيل- غرابيـ ـبُ، يُغذي عروقَها الإنهزام
وابتغاها ضفادعُ الحيّ سُخفًا يَسفَعُ الأنفَ من هُراها، زُكام
عَوَراتٌ، لم يُجْدِ فيها حياءٌ وعقولٌ ما حل فيها الفطام
ويلَه الشعبُ، من عقوق بنيه هم بنوه؟ أم هم عليه سهام؟
نحن نشكوكَ -أيها الشيخ- داءً يتلظّى في الشعب منه، ضرام
فتداركْ جراحَه بعلاج أنت في سره العجيبِ، إمَام
وتقبّل من شاعرِ الثورة الكـ ـبرى، نشيدًا يرويه فيكَ الأنام
وتهانٍ، من قادةِ الفكر في الخضـ ـراء، يسعى بها إليكَ السلام

وقال الشاعر الأستاذ محمد الأخضر عبد القادر السائحي

قيل لي

إن هناك

الشيخ الجليل

أي نعم

إن هناك

الشيخ الجليل

* * *

أأرى

هيبة شيخ

أم وقـارا...

كان بعض الناس

لا يرجون غيره؟

أبدا

أنت أجل

وأنت اليوم

خير

أنت خير

قد جناه

في الجزائر

من لهم، منك

"بصائر"

* * *

أي شيخ

تحتفي الأرض به

جذلى

وأملاك السماء؟

إنه شيخ

بنانا

وهدانا

فرفعنا

الرأس فخرا

ومضينا

نملأ الأكوان شعرا

وبطولات وسحرا

* * *

إنني أذكر

سجعا...

وحوارا

وخطابات...

تهز المشرقين
وتثير الجامدين
يوم كانوا
مثل أقوام سكارى
فإذا هم
قوة تبني الديارا
وتروم العلم
وردا ومعينا

* * *

وتهز الأرض منا
ثورة جبارة
ليست تداني
عربية
وأبية
ثورة البيضا القوية
كيف ينسى
أنه ما عاش إلا
عربي
كيف ينسى
من هداه منك يرنو
وسناه

ليس يخبو
إنما الشبل أصيل
من أبيه
وأخيه
وكذا أنت
لنا اليوم أب
فاهنا اليوم
أبي
شيخوخة طابت
ثمارا
وعلى أرض الجزائر
والكفاح المر سائر
تسطع اليوم منارا
قد بنيت النشء
نارا
وجعلت العلم رمزا
وشعارا
فغدت
أمتنا
تبني جهارا
وغدا تزهو انتصارا

● **خطاب المحتفل به الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:**

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأعزّة، أيها الأبناء البررة:

حيّاكم اللّه وأحياكم، وأبقاكم للعروبة ترفعون منارها، وتورون بالجانب الغربي نارها، وأدامكم للغة العرب تشدّون ذرائعها، وتقيمون شرائعها، وأحياكم للأدب العربي تصلون رحمه، كلما رمته الأحداث بالجفاء والعقوق، وتحفظون حقوقه كلما عامله بعض أبنائه بتضييع الحقوق، وللإسلام الذي هو مناط فخاركم وداعية افتخاركم تعلون صرحه وتحسنون فهمه وشرحه.

أيها الإخوة، أيها الأبناء:

يعزّ عليّ أن يقول الناس ولا أقول، وأن أسمع الحداء ولا أطرب، وأن تتبارى جياد الرهان في ميدان فأكون فيها السكيت المتخلّف، وأن تتسابق همم إخوتي وأبنائي إلى تكريمي والتنويه باسمي، فلا يكون حظي من بينهم إلا الوجوم والإطراق وعدم مكافأة إحسانهم بإحسان، وأن أكون شذوذا في قاعدة: لكل امرئ من دهره...

أنا عاجز عن شكر ما طوّقتم به عنقي من منن لا ينهض بحملها إلا من أوتي طراوة الشباب ومواتاة الأسباب، وبلاغة الخطاب، ولكن أين مني ذلك كله والعود قد جفّ، والفطين قد حفّ، والسن قد نشر من المعايب ما كان الشباب قد لفّ. ولو كنت ما كنت، لأسمعتكم في هذه الليلة ما يجاري هذا الفيض الذي غمرتموني به من القصائد والخطب ويجري معه في عنان، ولكن حال الجريض دون القريض، ووقف إلحاح الأمراض وكلال الذهن وجفاف القريحة دون ذلك، فاعذروا أخًا يتقرّب إليكم

برابطة الأخوّة وأبًا يتشفّع إليكم بحقوق الأبوّة، وحسبكم منه محبة خالصة لا يشوبها شوب من تصنّع أو رياء، لكم وللأدب العربي الذي تتحلّون به، وتقومون على إحيائه وترقيته، ومن شغفه الأدب حبًا أحبّ الأدباء بالضرورة.

أيها الإخوة الأعزّة، أيها الأبناء البررة:

أوصيكم يا أبنائي ببعض ما كنت أوصي به إخوانكم ولدانكم من شباب الشرق العربي: أن تضطلعوا بحمل الأمانة التي في أعناقكم للأدب العربي، وأن تجعلوا الأدب مساوقًا للحياة، يفعل فيها وينفعل بها، وأن تعنوا بمحاذاة أساليب البلغاء الفحول في الشعر، وأن تتصرّفوا في المعاني على حسب ما يقتضيه زمانكم، وأن تتجافوا فيها عن الإسفاف والتبذل، وأن توفّروا حظّكم من متون اللغة ليخف عليكم ما تعانون من شعر ونثر.

أيها الأبناء البررة:

إن اللغة العربية تراث مشاع بين أبناء العروبة في جميع الأقطار، وإن أبناء العروبة -وإن تناءت ديارهم- يشبهون "شركة مساهمة" رأس مالها هذه اللغة الخالدة، ولكنهم متفاوتو الحظوظ والأنصباء فيها. فمنهم المقلّ، ومنهم المكثر، فاحرصوا على أن تكونوا مساهمين في هذه الشركة باستحقاق، وأن تتقدّموا إليها بإنتاجكم، وثمرات عقولكم من شعر مجوّد، ونثر عامر، وكتب مفيدة.

وهاتوا الحديث عن الحمراء اللعوب، والزهراء الدعبوب، والحسناء التي تبوّأت القلوب... عن الحرية التي طال شوقنا إليها وطلبناها بالكلام، فلم تزدد إلا إعراضًا وازورارًا، حتى هدينا إلى التي هي أقوم، فطلبناها

بالحديد وخضنا دونها الهول الهائل، وبذلنا في سبيلها المهج، وأمهرناها الأرواح، فاسلست وانقادت. وإني لا أبرح مكاني هذا حتى أرسلها تحيات عاطرات الأنفاس، يحملها عني نسيم الصبا وأمواج الأثير، إلى إخواني المجاهدين في الجزائر،. أولئك الذين باعوا أنفسهم لله وأشعلوا الثورة وكانوا وقودها في سبيل حرية وطنهم، وهي أقرب السبل إلى اللّه، وأسأل اللّه لهم النصر العزيز على عدوّ اللّه وعدوّهم وأن يجعل خاتمة جهادهم كبدايتها، نصرًا وظفرًا وفوزًا مبينًا، وأبتهل إليه تعالى، أن ينزل الشهداء منهم منازل الكرامة والرحمة عنده، وأن يفيض على المساجين والمعتقلين والمعذّبين من الشعب الجزائري شآبيب الصبر والرضى، كما أسأل اللّه لقادة الثورة الجزائرية والمسيّرين لسياستها توفيقًا يقود إلى حسن العاقبة، وعونًا إلهيًا يصاحبهم في الجيئة والذهاب، ويسايرهم منه شعاع هاد في المعضلات، ويواكبهم في السلم والحرب، وتسديدًا ربّانيًا في كل ما يقولون ويفعلون.

وحيّا اللّه تونس، حكومتها وشعبها، على ما آووا إخوانهم الجزائريين ونصروا، وعلى ما أكرموا وبرّوا وعلى ما وصلوا من رحم الأخوّة، وحقّ الجوار[1].

(1) عن آثار الإمام الإبراهيمي ج5، ص 268.

■ تكريم العلامة المصلح الشيخ بيوض:

● تمهيد:

بعد أربعة عقود من احتفال الجزائر بختم الإمام عبد الحميد بن باديس لتفسير القرآن الكريم بقسنطينة، تقيم حفلا تاريخيا آخر بالجنوب لختم الإمام المصلح الشيخ إبراهيم بيوض بعد سبع وأربعين سنة من الجهاد المتواصل بالفكر غوصا في أسرار القرآن الكريم، وباللسان صياغة وإلقاء!

بدأ الإمام بيوض تفسير القرآن الكريم في شهر ماي سنة 1935م وختمه في شهر فيفري سنة 1980م، ومن نعم الله تعالى على عشاق العلم والمعرفة، المتعطشين إلى هداية القرآن أن تواصل هذا التفسير هذه المدة الطويلة، بلا انقطاع، يعلّم الخير، ويهدي إلى الرشد، ويربي على الفضيلة، ويقوّم السلوك، ويدعو إلى الحياة الكريمة، ولم تنته رحلة الإمام مع القرآن حتى اطمأن أن الأجيال التي رافقته في هذه الرحلة قد تسلمت المشعل، ونزلت إلى الميدان، تضيء الطريق بالقرآن، وتغير واقع الحياة من ظلمة الجهالة إلى وضاءة العلم، ومن نقمة الذاتية والأثرة إلى نعمة الإيثار، ومن ظلام البدع والخرافات إلى نور الحق واليقين.

ومن نعم الله تعالى على الإمام أن مدّ الله في عمره، وحفظه من المعوقات والمعطلات، وعصمه من خور في العزيمة، وقصور في العقل، ونقص في الوعي، وخلل في الإدراك، حتى حقق أمنيته الغالية التي كانت تستبد بمشاعره، وتتملك كل قواه، فأتم القرآن الكريم تفسيرا وتأويلا وكان ذلك دليلا واضحا على توفيق الله تعالى الذي يختص به عباده الصالحين!

ومن هنا كان الإمام بيوض جديرا بالتكريم من كل عاقل منصف، جديرا بأن يكون قدوة للأجيال الصاعدة التي تريد أن تبني حياتها وحياة المجتمع على الإسلام الصحيح، تستضيء بنوره على الدوام كما تستضيء بضوء الشمس!

إن تكريم هذا الإمام -وأمثاله- تكريم للقرآن الكريم الذي يفعل بالنفوس فعل الغيث بالأرض والنبات، وتكريم لهذه الأجيال التي اهتمت بالقرآن، والتفت بالإمام، وتعهدت نفوسها بآداب القرآن وأخلاقه وأسراره، حتى كانوا لبنات صالحةً في صرح المجتمع، وتكريم لرسالة التعليم والإصلاح التي بدأت مع الأنبياء والرسل وتنقلت مع الحكماء، وصنعت الأجيال المؤمنة عبر عصور التاريخ، وتكريم لكل من خدم القرآن، بأن عكف على حفظه أو تحفيظه، أو عكف على استنباط أسراره، واستجلاء غوامضه، أو كتب في بلاغته وإعجازه، أو كتب في استخراج أحكامه، أو ألّف في فرع من فروعه، أو علّم من علومه، أو قضية من قضاياه، من يوم نزول آيات (إقرأ) إلى قيام الساعة، وتكريم في الأخير، للجزائر المسلمة القرآنية التي أنجبت بيوض وابن باديس وغيرهما ممن كانوا وراء الحركات الدينية التجديدية، ووراء التقدم الفكري الوثاب، ووراء الثورات التحريرية، ووراء الدعوات الإصلاحية، ووراء الأحداث التي تصنع الحياة العزيزة الكريمة.

- **حفل التكريم التاريخي البهيج:**

وفي يوم الجمعة 9 رجب عام 1400هـ الموافق لـ 23 ماي سنة 1980م كانت السيول العارمة المتدفقة من مختلف أنحاء القطر الجزائري إلى غارداية على موعد مع التاريخ لشهود الحفل في المسجد الكبير تعظيما لكتاب الله، وتكريما لمفسره الكبير الذي ظل قرابة نصف قرن يغوص

على جواهره، ويبني الحياة في ضوئه وعلى عمده، ويضيء للأمة مواضع أقدامها حتى لا تنحرف أو تخطئ سبيلها الصحيح. وتعاقب الخطباء والشعراء على المنصة، كل قد فتح نافذة من نوافذ النور، يريد أن يفتح الأعين على ضيائها، ويقود العقول نحو منابع النور، وآفاق الهدى، حيث متعة الوجدان، وغذاء الإحساس، وراحة الشعور، وطمأنينة القلب؟

● أسماء الخطباء والشعراء:

وقد توالوا على المنصة على الترتيب التالي:

الشيخ عبد الحميد بن أحمد أبو القاسم (ناظر الأوقاف الإباضية).

الشيخ عدون: شريفي سعيد (مدير معهد الحياة).

الشيخ الإمام إبراهيم بيوض.

السيد مولود قاسم نايت بلقاسم (مستشار لدى الرئاسة).

الشيخ أحمد حماني (رئيس المجلس الإسلامي الأعلى).

السيد محمد بوطبة (المحافظ الوطني للحزب بولاية الأغواط).

الدكتور عبد الرزاق قسوم (أستاذ بجامعة الجزائر)

الأستاذ عبد القادر قدي

الشيخ عبد اللطيف سلطاني (داعية إسلامي).

الأستاذ الشاذلي المكي (مدير الشؤون الدينية بالجزائر).

الشاعر محمد الأخضر السائحي

الدكتور عمار طالبي

الشاعر الدكتور محمد ناصر

الأستاذ صالح بن ابراهيم باجو

الشاعر صالح خباشة

الشاعر أطفيش الحاج محمد

الشيخ محمد كتو.

● **لقطات من الخطب والقصائد:**

وفيما يلي لقطات من الخطب، وقطع من القصائد نقدمها للتاريخ ولإفادة القارئ الكريم:

قال الشيخ عبد الحميد بن أحمد:

فيا أصحاب الفضيلة المشائخ والأساتذة

أصحاب السعادة الموظفين السامين من مختلف الوزارات

حضرات الإخوان المسؤولين في الحزب والإدارة والجيش

ضيوفنا الأعزاء

أيها الإخوة المؤمنون:

أحييكم جميعا وأدعو الله لي ولكم بالإعانة والتوفيق.

إنه ليشرفني عظيم الشرف، ويسعدني كل السعادة أن أحضر هذا المهرجان الإسلامي العظيم، وأن تسند إليّ مهمة تقديم برامج هذا الحفل التاريخي الكبير الذي أقيم يوم عيد المسلمين -يوم الجمعة- في بيت من بيوت الله. هذا المهرجان الذي أقيم تعظيما للقرآن الكريم، وإعلاء لكلمة الله، ورفعا لراية الإسلام، وتكريما لذلك المجاهد الذي وقف حياته لخدمة الإسلام ونشر العلم وتعميم اللغة العربية لغة القرآن ولغة أهل الجنة - وقضى ما لا يقل عن نصف قرن في تفسير القرآن الكريم تدريسا بالمسجد، الأستاذ الإمام الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض- بارك الله في أنفاسه ومدّ في عمره وشفاه من مرضه وتقبل منه وأثابه)[1].

(1) هذه اللقطات من كتاب (في رحاب القرآن) نشر جمعية التراث - العطف، ولاية غرداية.

وقال الشيخ عدون:

(والغرض من إقامة هذا الحفل هو التنويه بفضل القرآن وتوجيه النفوس الغافلة والقلوب الغافية إلى ما فيه من عبر وعظات بالغات فتتفتح لها وتتشربها وتمتزج بها فتكون جزءا لا ينفك عنها فلا تسلك إلا نهجه ولا تسير إلا على ضوئه، متخطية في ذلك العقبات مستهينة بالصعاب والنكبات.

لفتة جديدة إخواني الكرام إلى هذا الكتاب العزيز نتخذ منه دستورا لحياتنا ومنهاجا لمسيرتنا وسلاحا صالحا للكفاح في كل ميدان. عزيمة صادقة على تحكيم هذا الكتاب وهو الحكم العدل فيما شجر بيننا من خلاف وما نتنازع فيه من آراء وأفكار. انضواء تحت رايته للقضاء على سوس العقيدة وزيغ القلوب وفساد السلوك المنتشرة في الأمة انتشار النار في الهشيم. ثورة عامة أو عارمة في حدود النظام والمعقول على الإنحلال الخلقي وانتشار المحرمات والظلم والفجور.. نتغنى بمكاسب الثورة في كل مناسبة وبأمجاد الشهداء الأبرار الذين استشهدوا في سبيلها وبالأمانة التي حملونا إياها وذلك واجب مشكور وحق غير منكور، ولكن أليست الثورة على الفساد أولى الثورات بالتنويه وأحقّها بالدعم وأقومها طريقا وأعمها نفعا وأضمنها عاقبة وخلودا؟ أليس الإسلام الذي هو دين الدولة بلا منازع في طليعة هذه المكاسب التي يجب أن نتغنى بها في كل وقت وحين، ونتفانى في تحقيقها بكل ما لدينا من قوة وجهد؟ أليست اللبنة الأولى التي وضع عليها هيكل هذه الثورة الكبرى ولأجلها انطلقت الرصاصة الأولى هي شهادة أن لا إلاه إلا الله التي جاء هذا الكتاب العظيم لتثبيتها عقيدة في النفوس وعملا بالجوارح متفانية في

سبيل تحقيقها وإرسالها مزلزلة في الأرض مجلجلة في السماء؟ كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته، فيا أيها الرعاة ويا أيتها الرعية حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا. إن المسؤولية لعظمى وإن الحساب لعسير وإن الديان لا يرحم المقصرين).

وقال الإمام الشيخ بيوض:

(لقد ضعفت مني الذاكرة وخمدت القريحة وجمد الذهن فأصبحت الآن لا أستطيع أن أخوض هذا الخضم، خضم تفسير كتاب الله الذي ليس بكلام البشر الذي ربما يغتفر الخطأ فيه، أما القرآن فكلام الله الله تبارك وتعالى الذي لم ينزل من السماء إلى الأرض أعظم منه ولا أشرف. فمن ذا الذي يستطيع أن يقتحم هذا الميدان إلا أن يكون ممتعا بزاد كبير من ذاكرة قوية وذهن حاضر. لكن هذا ما فقدته خلال الأشهر الأخيرة. على أني أشكر الله تعالى على أن وفقني وأخذ بيدي طوال هذه المدة التي تتجاوز نصف قرن حتى ختمت تفسير كتابه. وإذا قلت تجاوزت نصف قرن فلأني قبل تفسير القرآن كله من فاتحته إلى سورة الناس، كنت فسرت في سنوات قبلها الجزء الأخير من القرآن وهو جزء عمّ معتمدا فيه على تفسير الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله. وعلى ما ذكرته آنفا من ضعفي وعجزي واشتداد المرض عليَّ من جهة ولضيق الوقت على كثر من الإخوان الذين توجب عليهم واجباتهم الرسمية الرجوع عاجلا. فإني أعتاض عن درس التفسير بكلمات نقلتها من خطاب أستاذنا الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله. الخطاب الذي ألقاه بالجامع الأخضر بقسنطينة عام 1938 حين ختم تفسيره القرآن الذي كان ينشره تباعا في مجلته. وإنها لكلمات غريبة غزيرة حقا رأيتني أسير في معناها وينطبق عليّ مغزاها فأحسنوا الإصغاء والفهم.

فمن جملة ما قاله: «بسم الله الرحمن الرحيم: إننا والحمد لله نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستحقق إن شاء الله أن يكوّن القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها، وإن أعز ما وصلنا إليه هو تبين الغاية وتلاقي الجهود والحمد للّه» ثم قال في آخر خطابه كما جاء في العدد الخاص بالتفسير من مجلته الغراء: "الشهاب": إنني أعاهدكم على أنني سأقضي بياضي على العربية والإسلام كما قضيت سوادي عليهما. وإنها لواجبات، هذا عهدي لكم وأطلب منكم شيئا واحدا وهو أن تموتوا على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن».

هذه بعض كلماته بالحرف وهي غريبة في بابها. ومراده بالبياض بياض الشعر وسن الشيخوخة وبالسواد سواد الشعر وسن الشباب وقد وفي الشيخ بعهده هذا حتى فارق الحياة في 16 أفريل عام 1940 فهو لم يعش بعد ختم التفسير إلا نحو عامين اختاره الله بعدهما إلى جواره رحمه الله.

هذا ما قطعه الشيخ على نفسه وعاهد به أمته وإنما اخترت هذه الكلمات لأني رأيتها تنطبق تمام الانطباق على طريقتي في التفسير وهدفي منه وهي تربية التلاميذ على القرآن من أول يوم وكل يوم. وقد جاهدت الأمة مع الشيخ وخاصة بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وقد انتشر تلامذته في شرق البلاد وغربها وشمالها وجنوبها ونشروا الإسلام والعربية والقرآن ووفوا أيضا بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم لأستاذهم.

وهذا ما نعاهد الله عليه ما دام فينا عرق ينبض بالرغم من المرض المزمن الذي بليت به ومنعني من مواصلة العمل فلن أقصر في الجهد ما استطعت.

هذه كلماتي إليكم أيها الوافدون المؤمنون فأنتم الرجال الذين كان الشيخ يتمنى ويقول عسى ءأن يكوّن القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم وسماهم قرآنيين لأنهم متمسكون بالقرآن حفظا وتلاوة وإدراكا لمعانيه واستخراجا لعبره وعملا بما فيه. كذلك كنا نرجو من طلبتنا حين ربيناهم على القرآن والعربية والإسلام أن يكونوا قرآنيين أو كما سماهم الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم ربانيين. قال: «كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون).

وقال الأستاذ مولود قاسم:

(أود أن أذكركم ولكن الأستاذ الإمام سبقني إلى ذلك وكان ذلك متوقعا كنت أود التذكير وشبه مقارنة عابرة بيوم بهيج في تاريخ هذه الأمة، الأمة المصغرة والأمة الجزائرية جمعاء يختم تفسير القرآن في الجامع الأخضر سنة 1938 الذي لم نسعد مع الأسف لصغر سننا آنذاك بحضوره ولكننا قرأنا عنه في "الشهاب" وقد سعد آخرون من الموجودين هنا في هذه القاعة. ذلك الحفل الذي شدت إليه الركاب من جميع أنحاء هذه البلاد، وبهذه المناسبة أود أن أرحب وأعبر عن فرحنا بمشاركة إخوان لنا من خارج الجزائر هم طلبة في معهد الحياة إخوان من زنجبار ومن جربة في تونس ومن الجبل الأخضر ومن عمان وإخوان من العالم الإسلامي الذين يدرسون هنا يشاركون اليوم في هذا الحفل البهيج. إذن أشكر مرة أخرى وهذه المرة بصفتي شخصيا لأن

الدعوة موجهة إليّ وأهنئكم ونهنئ أنفسنا جميعا ونرجو أن يكون هذا الاختتام كما قلت آنفا بداية لافتتاح جديد، وأن يرزق الله أستاذنا الإمام الشيخ إبراهيم بيوض بن عمر الصحة وإطالة العمر ليستأنف الجزء الذي لم يسجل ليخرج هذا التفسير كاملا إن شاء الله وإذ أعتذر عن عدم مشاركتكم هذه الفرحة إلى آخر هذا المهرجان الكبير لأستاذنا لانشغالي في عمل مستعجل في الإطار المذكور آنفا. أتمنى لكم النجاح وأتمنى لأستاذنا الإمام مديد العمر إن شاء الله وصحة متجددة وأشكركم مرة أخرى والسلام عليكم).

وقال الشيخ أحمد حماني:

(للمرة الثانية في هذا العصر يختم القرآن دراسة ويحتفل الشعب الجزائري المسلم بختم القرآن ويقيم لهذه المناسبة عرسا دينيا وقوميا ووطنيا. وربما ختم القرآن في مواطن كثيرة وأوطان كبيرة من بلاد الإسلام في هذا القرن وفي هذه المدة ولكن ختم القرآن في الجزائر فذ في ذلك. إن الذين ختموا القرآن في غير الجزائر قد ختموه تفسيرا مسجلا وقد ختمه بعضهم دراسة للخواص، وأما في الجزائر فإن القرآن ختم للمرة الأولى كما ختم في الثانية أمام جميع الأمة من الطلبة والأساتذة والعامة. ودراسة القرآن وهداية القرآن لم تكن خاصة بل إنها عامة. فلعلماء الجزائر من الراسخين يفهمون ولا يبخلون على العامة بما يعلمونه الخاصة. فهذا عالم الجزائر الأول عبد الحميد بن باديس ختم القرآن دراسة لجميع الأمة في الجامع الأخضر. وهذا عالم الجزائر الثاني من الراسخين يختم القرآن دراسة لهداية الأمة في جامع القرارة فهذه نكتة وملاحظة يجب أن يلاحظها كل من يتكلم على هذه الأمة

ويدرس عظمة شعبها. شعب الجزائر، فإن الهداية إذا أردنا أن نطلبها ونظفر بها حقا فإنما نجدها في هداية القرآن. وقد سمعتم كيف أوصى عالمنا من الراسخين الأول عبد الحميد بن باديس تلاميذه والتزم أن يتربوا على القرآن من أول يوم وما أعظم تنويه العظيم بالعظيم. والعالم من الراسخين بالعالم من الراسخين أن ينوه بهذه اللفتة من عبد الحميد بن باديس وأن ينبهنا الى ذلك وأن يشعرنا أنه التزم هذا الطريق وربى طلبته وأمته على أن يكون القرآن رائدها في التربية. لماذا يحرص العالم الأول والعالم الثاني على أن ينصحا لطلابهما بالقرآن وأن يعتمدا في تربيتهم على القرآن، لأن القرآن يخرجنا من الظلمات إلى النور«كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم» من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم من ظلمات الضلال إلى نور الهداية. فمن كان إمامه القرآن فلا يضل أبدا كما أخبر الصادق المصدوق فإن من كان على نهج القرآن ونهج سنة الرسول عليه الصلاة والسلام التي جاءت بيانا للقرآن تبيانا للقرآن لا يمكن أن يضل من كان في النور ينظر بنور العينين وأمامه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله نور القرآن. فكيف يضل من يسير في النور وفي عينيه نور. لهذا أيها الإخوان يوصينا هذا العالم الأمين مثلما أوصى من قبله من كل عالم أمين أن نلتزم القرآن وأن نربي أبناءنا بالقرآن إذا شئنا أن نرى النور وأن نعيش في النور وألاّ نضل أبدا[1].

(1) يلاحظ القارئ اللبيب في بعض هذه النصوص تفككا في بعض العبارات أو ضعفا أو تكرارا، والأمانة العلمية تتقضانا إيراد النص على حاله ووضعه، لا سيما والمعاني واضحة.

وقال السيد محمد بوطبة:

(ما دام الله قد أخذ على نفسه العهد أنه حافظ هذا القرآن بقوله:- «وإنا له لحافظون»- فستبقى معه هذه اللغة العربية محفوظة إلى يوم الدين. وليس لي أن أردد في آخر كلمتي هذه الأبيات التي كانت تصاحبنا خلال عهد الضغط والحرمان والتسلط:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب... إلخ

وقال الدكتور عبد الرزاق قسوم:

(أيها الإخوة في الله. ماذا أستطيع أن أقول لكم وأنتم في هاته الواحة الآمنة المطمئنة التي تجتمع وتحتفل اليوم بحدث إسلامي عزّ مثيله. ماذا يمكنني أن أقول وقد سبقني إلى هذه المنصة كل الأساتذة. أساتذتي الذين قالوا ما يجب أن يقال. وإذا كان لابد من أن أقول شيئا فإن أحسن ما يمكن أن يقال في يوم القرآن في مأدبة الله هو قوله تعالى: «لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم». فمن وحي هذه الآية ومن وحي هذا المشهد الإسلامي الخالد أستطيع أن أنقل إليكم نيابة عن زملائي وإخواني أساتذة الجامعة سواء من وجد منهم هنا وهم أحق بالكلام مني أو الذين حالت دون حضورهم إلى هذا الملتقى الخالد مهام وصعوبات. إذا كان لي ما أقوله باسمهم ونيابة عن هؤلاء الزملاء، فهو أن أنقل إليكم تهانيهم بهذا العيد السعيد الذي يجدد للأمة الإسلامية في شخص إمامنا الخالد -مدّ الله في حياته- الإمام بيوض يجدد لهاته الأمة الإسلامية مجدها وعهدها وصلتها الوثيقة بكتاب الله وبلغتها الوطنية. إنني أنقل إليكم تهانيهم بهاته المناسبة وآمل باسمهم جميعا أن تتمكن الجامعة التي هي في قانون

الإسلام امتداد لمهمة المسجد وامتداد لرسالة الجامع آمل أن تكون هاته الجامعة قلعة، منها ستوحي كل معاني القيم ومنها ستوحي كل معاني الإصلاح ومنها ستوحي كل معاني تكوين المواطن الفاضل المتشبث بعقيدته وبلغته وبوطنه، وإذا كانت الجامعة كما قلت هي امتداد للجامع، وإذا كان الجامع قد حفظه الله من أن يكون في يوم من الأيام محل فساد أو إفساد فإن الجامعة إذا لم يقيض الله لها جامعيين صادقين مخلصين مؤمنين قد تتحول لا شاء الله إلى قلعة فساد أو قلعة إفساد ولهذا فإن العهد الذي نأخذه على أنفسنا أمام الله وأمام هذا المشهد الإسلامي العظيم هو أن نعمل صحبة زملائنا المؤمنين وإخوتنا المؤمنين أن نعمل ما في وسعنا لكي تصبح الجامعة بإذن الله القلعة الإسلامية القلعة الوطنية التي تكوّن الإنسان المؤمن والتي تكافح وتدمغ الباطل وتزهق الباطل فإذا هو زاهق).

وقال الأستاذ عبد القادر قدي:

(إخواني الأعزاء هذه كلمتي باختصار لأني لست في مقام النصح فأوجه إليكم النصيحة، ولست في مقام الإرشاد فأرشدكم، ولكني في مقام التلمذة جئت لأتتلمذ عليكم وها أنا أتتلمذ فعلا لأنني أرى هذه الحشود الجامعة ستعيد الثقة إلى نفوسنا بهذا الدين وتعيد إلى أنفسنا جميعا الثقة بهذا القرآن اكريم. وما نُزعت الثقة من نفوسنا يوما من الأيام ولكن لنزداد إيمانا والحمد لله على ما سبق. وأشكركم وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزي أهل هذا البلد على مضيفتهم لنا وأن يجعلها بلدة آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا جميعا متحدين ومتآلفين بالقلوب كما تآلفنا بالأجسام.

فلتكن القلوب متحدة كما اتحدت الأبدان ولنجتمع على كلمة الإسلام فيها وحدتنا وبها عزتنا وإنه سميع قريب مجيب الدعاء والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وقال الشيخ عبد اللطيف سلطاني:

(لماذا -يا إخواني- أهل الباطل متحدون وأهل الشر متضامنون متعاونون، أما أهل الحق وأنصار الحق مشتّتون مغرقون؟ إن المسؤولية كبيرة وعظيمة على أكتافنا تحملناها وهي أمانة والإسلام كله أمانة تركه لنا آباؤنا وأجدادنا -«**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**». «**يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون**»- لماذا لا تكون لنا عقيدة متينة مثل من سبقنا -فاقرأوا تاريخ الصحابة بل تدبروا القرآن- هذا أبونا إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام من أجل عقيدته ألقي في النار -ولكن هل أحرقته النار؟ حماه الله تعالى «**قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين**» لم تأكل منه النار إلا الوثاق- وهذا بلال رضي الله عنه العبد الحبشي الضعيف الذي ليس له ناصرإلا الله سبحانه وتعالى آمن بالرسول عليه الصلاة والسلام وكان من المستضعفين في قومه وكان عبدا مملوكا لامرأة وأعتقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقد وكل بها أمية بن خلف عدو الله وعدو الرسول والإسلام والحق فعذبه بما لا تستطيع أن تتحمله نفس بشرية ضعيفة وما يتحمله إلا أقوياء الإيمان كانوا يأتون به في الظهير في اشتداد الحرارة إلى بطحاء مكة ويلبسونه درع الحديد الذي يلبسه أهل الحرب -والحديد إذا مسته النار فإنكم تعلمون قوة حرارته وقوة ألمه في الجسد فيبطح على ظهره وتوضع

الصخرة العظيمة على صدره ويعذبونه ويحاولون أن يردوه عن عقيدته ويقولون له: تكفر بمحمد وبالله وتؤمن باللات والعزى- فيقول: أحد أحد ويرددها وهو في العذاب.

إن أول شهيد في الإسلام إمرأة وهي سمية زوجة ياسر وأم عامر بن ياسر قتلها عدو الله أبو جهل بحربة طعنها في فرجها فقضى عليها وثبتت على عقيدتها ولم تتزحزح ولم تتبدل -أسرة كاملة تتعذب ويمر عليها الرسول عليه الصلاة والسلام فيقول لهم: صبرا آل ياسر موعدكم الجنة.

ثم أصحاب الأخدود الذين ذكرهم الله تعالى في سورة البروج -شق لهم الأرض وحفر خندقا وملأه حطبا وأوقدت فيه النار ويعرض عليه المؤمنون بعد أن يسأل كل واحد منهم: هل أنت كافر؟ أتؤمن باللات والعزى؟ أتؤمن بالمعبود- في ذلك الزمن-؟ فإن قال: أنا أومن بالله ألقي في النار. «**والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد**» هذه النقمة وهذا الغضب كله لأنهم آمنوا بالله ولكن هل صدّهم ذلك كله عن ترك الإيمان كما نفعل نحن ضعفاء الإيمان)[1].

وقال الأستاذ الشاذلي المكي:

(إن كل جمال الغابات إنما هو في أسودها وأشبالها وملتف أشجارها ولإن كان جمال الجنات إنما هو رياحينها وزهورها وخرير مياهها ولإن كان جمال الصحاري إنما هو في قطعان غزلانها وفي كثبانها وواسع

(1) في بعض الآيات الواردة في النصوص أخطاء قد تكون مطبعية، وعلى كل فقد صححناها لأن خطرها عظيم إذا أخها القارئ على خطئها.

أرجائها فإن جمال الأمة الجزائرية المحمدية والقرآنية في شبابها وفي شبابها المثقف الذي يقيم دينه أحسن قيام إيمانا بالله واحتسابا به ووعظا وتبشيرا. إذن أيها الشباب الذي يملأ هذه البطحاء من هذا المكان الفسيح في بيت من بيوت الله التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه سلام الله عليكم مرة أخرى)[1].

وقال الشاعر محمد الأخضر السائحي:

(رجعت وعادت بي الذكرى لسالف عهدي فيك يا جنة الصحــراء
فهل أنا حقا فيك أم أنا حالم وهل أنت حقا أنــت أم جنــة أخـرى
تركتك معقود التمائم ناشئا وشخت ومازلت المحببـــة الكبـرى
وجئتك مأخوذا بسحرك إنني أرى كـل شيء فيــك يأخذني قسـرا
أكاد من الشوق المؤجج في دمي أقبل حتى العشب والترب والصخرا
وأستعجل الساعات تمضي سريعة كطالب سكر راح يستعجل السكـرا
لأنظر حسن الليل فيك إذا دجى وأنظر حسن الصبح فيك إذا أفتـرا
فقد كان يوما ذلك الحسن ملهمي وكنت به ألقى السعادة والبشـرا
حباني سرور لا يبيد ومدني بفيــض من اللــذات يغمـــرني غمــرا
وفجر في صدري العواطف ثرة وعلمني أن أكثر الحمــد والشكــرا
فكيف حبست الحسن عندك هكذا وكيف جمعت السكر والطهر والسحرا
وكيف صبحت الدهر في كل رحلة ولم تفقدي كالروض عطرا ولا زهـرا
لي الله مجنونا بحبك دائما وإن كنــت حتى الآن لم أفهــم الســرا)

(1) أكثر الخطب الملقاة في هذا الحفل طويلة جدا، ومتكررة معانيها ومقاصدها، ولذا وجب الاختصار والاقتضاب.

وقال الدكتور عمار طالبي:

(أيها السادة إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم وإنه هو الذي ينير سبيلنا في هذه الدنيا وهو الذي يجعل لنا مقياسا في هذا التاريخ، ولذلك فإن القرآن يشتمل على مجالات ثلاثة نبه المسلمين إليها وهي مجالات عامة: أولا نبهنا إلى مجال الطبيعة وما فيها من قوانين ومنافع للناس في آيات كثيرة تشير إلى جميع مظاهر الكون. ثم وجهنا ثانيا إلى مجال التاريخ مجال تجارب الإنسانية القديمة والأمم الماضية وما هي القوانين التي لو تساوت عليها لاستقام عليها أمرها، وما هي المخلفات التي قامت ضد هذه القوانين فاندرس أمرها، ثم المجال الثالث وهو مجال النفس البشرية **«سنريهم آيتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق»** هذه المجالات الثلاثة مجال الطبيعة وما فيها من قوانين تحكمها سنن الله ومجال الإنسان (المجتمع البشري) وما تحكمه من قوانين أخلاقية إن استقام بها واستقام أمره وإن انحرف عنها ذهبت ريحه، ثم بعد ذلك كله مجال النفس البشرية الداخلية التي هي عالم آخر يمكن للإنسان أن يتأمله وأن يصل إلى ما يصلح نفسه وما أن يضمن به الاستمرار.

ونحن أيها الإخوان إن لم نغير ما بحالنا اليوم من الضعف فإن غيرنا سيغيرنا ولذلك فإن قانون تاريخ. غير نفسك يغيرك التاريخ. وآن الأوان لأن ننهض بحياتنا الدنيوية وأن نجعل من هذا القرآن سبيل حياتنا في جميع مظاهرها. المظاهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية وكل ما يتعلق بحياتنا في هذه الدنيا التي هي مطية إلى الآخرة. فإن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل والأنبياء لهداية الناس ولإقامة العدل. **«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»** **«وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس»** فهذا الميزان وهذا

الكتاب وهذه البينات تحتاج إلى سلطة سياسية إسلامية تقيم هذا العدل بين الناس، وتحافظ على هذا الميزان. وفسر فخر الدين الرازي. الحديد. هنا بأنه القوة السياسية التي تحفظ للمسلمين كتابهم وتحفظ للمسلمين الميزان فيما بينهم وفيما بينهم وبين الناس. «**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**» فالعدل في الإسلام لا يفرق بين جنس وجنس ولا بين لون ولون. والأمة الإسلامية أمة تقوم على المنهاج لا على عرق ولا على جنس ولا على لون ولا على لغة وإنما منهاج رباني يحكم الحياة الإنسانية ويهديها إلى الطريق المستقيم).

وقال الدكتور محمد ناصر:

(الله أكبر في رحاب الله كـــم

يسمو الشعور، وتصغر الأشيـاء

كـــم في رحـــاب الله تلتحـــم

الهداة قلوبهم كثيابهم بيضـــاء

تحنو على حب كمحراب حنا

لله فيـــه تضـــرع ودعـــــــاء

ويضمهم شبر وشبر عند بيت

اللّه من نور الصفـــاء، فضـــاء

اللّه أكبر في رحاب اللّه قفـــر

في الصحاري، جنة خضـــــراء

كم تجمل الأشياء عند رحابـه

فالخلق من حب سنى وسنـــاء

اللّه أكبر في رحاب الله كـــم
يفنى القوى ويصغر الكبـــراء
وتزول بهرجة المراتب والمكا
تب، تهمل الألقاب والأسمـاء
تتقـارب الأبعــاد في أفيائـه
فإذا التراب مع النجوم سـواء
لا شيء غيــر محبـة في اللّه
مخلصة لها السراء والضـراء
تفنى المحبة غير حب في سبيل
اللّه حانيـــة بـــه الأحنـــــاء
يا روعة الحفل الجليل يصيبني
عي فـــلا وحي ولا إيحـــاء
قد جف بحر الشعر من رهب
وخان قصيدتي الإبحار والإرساء
أنا من جلالك يا رحاب اللّه في
أفــق سمــــاوي عليــــه رواء
فإذا هذيت عذرت إني إخوتي
في نشـــوة روحيـــة هــذاء
يا خاتم القرآن، أيــة رحلــة
ختمت تــودّ لو أنها إبــداء

لك خاتم القرآن أجر مجاهد

أنفاســـه تضحيـــة وفـــداء

خمسون عاما في رحاب الذكر

والآيات صادعـة بهـا غـراء

خمسون عاما لم يهن لك في سبيل

اللّه صـــوت أو يبـــح نـــداء

يا رحلة علوية إلاّ نفاس يعجز

عن مداها الشعر والشعـــراء

في نشوة التوحيد طار بك البيا

ن ، جناحك الفصحاء والبلغاء

أسرى بك القران في العليا و بالقر

آن كـم يعلــو بنــا الأســراء

سالت من السحر الحلال لهاته

فكــأن هاروتـــا له نبـــاء

الذكر وصفـــة ربه فيهـا لمـن

فتكـــت به علل الزمـان دواء

كالسيل عند السد يهدر أفقـا

فإذا سرى في النفس فهو الماء

تتشرب الألبـــاب حلـو بيانـه

وبيانــه القــرآن فيـــه شفـــاء

لما غلت كلماته حفظت أمـا
نة ناشريهـا الآلـة الخرسـاء
وإذا أراد الله نشـــر فضيلـة
نشرت محاسن فضلها صماء)

وقال الأستاذ صالح بن ابراهيم باجو:

(أيها الوافدون أهلا وسهـــلا
طاب ممشاكمو وطبتم مقاما
أنزلوا بيننا على الرحب تلقوا
بسمـــات تحيـــة وسلامـــا
وقلوبا تكـــاد تقفـــز من بيـ
ـن الحنايا شوقا لكم وهياما
قد نثرنا لكم على الأرض أكبا
دا طؤوها معززيـــن كرامـــا
ولحاظا تود لو غفـــل الدهـ
ـر فطال اللقا بكـم أعوامـــا

وقال :

هـذه بلـدة العلوم فداهـــا
كل حر يقـــدر الحـــر فانـا
قد بنت معهد الحياة لتحيي
في القلوب الأخلاق والإيمانا

بدروس التفسير والفقه والسنـ

ـة يعـلى لديننـا بنيانـا

بعلوم الحياة طعـم أفكـا

ر بنيـه فزادهـم تبيانـا

فغدوا للإيمان هديا ونورا

وعلى الكفر نقمة نيرانـا

وقال :

منذ خمسين حجة بني المعـ

هد حصنا للدين والقرآن

معهد الحياة شيد على تقـ

وى من اللّة ثابت الأركان

كم تصدت لهدمه دولة الكفـ

ر فباءت بالويل والخسران

عرقلت سيـره مرارا ولـ

ـكن إله السما على الطغيان

فاكتسحنا ـ بفضله ـ دولة الشر

ك إلى البحر في فم الحيتان

وقال :

فيه بيوض قد تصدى لتفسيـ

ر كتاب المهيمن الجبـار

خائضا أبحرا غزيرا من الحكـ
ـمـة ملآى بروعــة الأســرار
غائصا للأعماق مستخرجا منـ
ـها جمــانا يشــع كالأقمــار
خصـــه اللّه بالذكـا وبعلـم
من لدنه وحكمـــة واقتـدار
فجزاك الإله عنا كمـــا جليـ
ـت عنا غشــــاوة الأبصــار

وقال الشاعر صالح خباشة:
أي عيـــد إلى القـرارة آبــا
أدعت ربها الرضى فاستجابا
أم رحيق من مجدتا هرت باق
عتقتـه يـد الزمــان فطابــا
أم مزاب تشرب الوحي نورا
سرمديا فأســـرج الألبابــا
مورد الذكر -والقلوب ظماء -
نرتويه، فلا نمل الشرابـــا
إيه يا شيخنا الجليل هل استو
فيت من كوثر البيان النصابا

كلما أمطر السحاب رعــاء

شكروا الوبل واستزادوا السحابا

وربيع الإخاء يورقـــه الإخـ

ــلاص للّه طاعة واحتسابا

أمة الوحي نيرات خطاهــا

أو ما قادت الورى أحقابــا

نغزل السلم للأنام، وإنـــا

نتلظى على المغير التهابا

يا فتى الوحي سرولا تلتفت حو

لك يوما إذا سمعت كلابا

تلك عاداتها إذا خب ركب

أو أزاح الهلال عنه النقابـا

وتخط السدود لورمت بالجد

أن تنال الشهاب نلت الشهابا

سئم القوم أن يقيموا بأرض

فتوا لوا على السما أسرابـا

وبقينا ندور نحــن فلا نفـ

ـتـح بابــا إلا لنغلـق بابــا

وجه القوم للسماء صواريـ

ـخ يودون أن تحير جوابا

واخترعنا قنابلا منكـرات

تتلظى شتائمـــا وسبابـــا

عجبا يا بني العروبة، كنا

قد أعدنا إلى الحياة الشبابا

فنهبنا قشورها وانزوينـا

وتركنا إلى الأنام اللبابـا

قد أضأنا لهم طريقا فساروا

ورجعنا إلى الورا أحقابـا

خير دستورنا كتاب رأى فيـ

ــه عدانا إلى الحضارة بابا

أفنلقيه نحن في مهملات

ثم نرجو من الدخيل كتابا؟

أفنهوى بمجدنا في سحيـــق

ثم نغـدو لكتلـة أذنابـــــا

وقصور ندكها في حمانـــا

ثم نمسي لغيرنا حجابـــا

وكنوز تكدست لسوانـــا

ثم نغدو نماسح الأعتـــاب

كلما لاح في العروبة نجـــم

أطفأوه نظنه نحن غابـــــا

كلما موهوا علينا انطلقنـا
فاكتشفنا - بعد الأوان - السـرابا
هم تولوا زمامنا، لسـت أدرى
أغبيـاء نهيـم أم نتغابـى؟
يا شباب العروبة اليوم لا تمـ
ـلك إلا طموحـك الوثابـا
بل ملكت النضار في كل شبر
أسال الدخيـل منـه اللعـاب
صارع الدهر مؤمنا تجد اللـ
ـه ضياء، وملجـأ، وحرابـا
أنت لن تخصب الأراضي إن لم
تتخير من النفـوس خصابـا
كم شعوب على الضفاف كسالى
تتلوى مجاعـة وعذابـا
وشعوب على الصخور ولكـن
فجرت تحتها العيون العذابـا
صارع الدهر مومنا تقلب الدهـ
ـر حميما يذود عنك الصعابا
وتخط الحدود، كل دخيـل
رام أن يفصل الأشقـاء خابـا

كل شبر من (كابل) و (أغادير
ــــر) بلادي فلا أحس اغترابا
ففلسطين روضـــة في ريــاض
قل لصهيون أن يعيدواالحسابا
قد ربضنا على الحدود إلا أن
لنا في الغد القريـــب مآبـــــا
فكفى الثورة العظيمة في (أو
راس) والمشرق الأبي جوابا
قل لمن يزعم الذي ليس فيه
قس على قدك النحيف الثيابا
ولمن يدعى العروبة : مهــلا
ليس ترضى من الدّعى انتسابا
أمتي لا ترى العروبـــــة آيــا
ت من الذكر والبيان عذابـــا
فهي أقوى من الوجود رسوخا
وهي أبقى من الخلود حسابا
أمتي لا تـــرى لوحدتهــا ألـ
ـف معان مصنفــات كتابــا
إنهــا وحــدة ترص صفوفــا
ووئـــام يهــدّئى الأعصابـــا

لو صهرنا تلك العروش لصغنا
أمة العــرب مــاردا غلابــا
صرخة الوحدة العظيمة لا تهـ
دأ إلا إذا الجميع استجابــا
كم قلوب من المحبة مـلأى
وثقــت أن من يفــرق آبـا
كم عروق إلى التلاحم ظمأى
صادف الوحي حرها فانسابا

وقال الأستاذ أطفيش الحاج محمد:

هنـا القرارة أم هنا عرفـات
تمت هنا وهنالك الآيــات
ثم النزول هناك دينا قيمــا
وهنا يتم الشرح والحلقات
وهناك تكمل نعمة مسبوغة
فيها السعادة للقلوب حياة
واليوم تكمل حلقة معمورة
خفت بها البركات والرحمات
كملت وكانت نعمة وسعادة
للعالميــن محجــة وزكــاة

شـرح لوحي الله درس نيــر
هدى ونور حكمة وعظــات
للعلم للدين الصحيح وللتقى
بنيت هنا الجدران واللبنات
للخير للخلق الكريم وللعلى
والصالحات تتابع البعثــات
عرفات ضاهتك القرارة رتبة
حجوا القرارة إنها عرفـــات
اليوم يذهب نصف قرن كامل
يا ليتها لم تسرع السنـوات
واليوم يختم شرح وحي شامل
يا ليتها لم تنته الكلمـــــات
واليوم تفصم حلقة معمــورة
في مسجد غصت به العرصات
من جوفه القرآن شعشع نوره
فإذا به المصباح والمشكــاة
وبجوفه حفت هناك ملائــك
بالحاضرين وتنزل الرحمات
في صدره بيوض يجلس شارحا
تبيانـــه وتسجــــــل الآلات

درس به الأرواح تحيا بروحه

فكأنما هـو للحيـــاة حيــاة

وكأنه السحر الحلال بعينه

تعنو له الألباب والملكـات

فهم صحيح للمعاني وكنهها

شرح سليم ما به غلطـــات

نطق بليغ في النفوس مؤثـر

كم زائغون به اهتدوا وعصاة

درس مبين ممتـــع ومعلـم

قصص عظات عبرة ونكـات

لم يشهد القطر الجزائري مثله

إلا بسر تمت الحفــــــلات

يهتم بالإصلاح يصلح أمـــة

أودت بها الأوهام والعـادات

الفوز بالقرآن ليس بغيــــره

والعود للقرآن فيـه نجــــاة

وانتهى الحفل التاريخي البهيج بكلمة الإمام الشيخ بيوض التي لبى بها الرغبة في تقديم كلمة توجيهية إلى الشباب بصفة خاصة فكان مما جاء فيها قوله:

- **خطاب المحتفل به:**

(نحن نريد أن يكون شبابنا قرآنيين ظاهرا وباطنا حسا ومعنى يعتنون به ويتلونه ليلا ونهارا ويتخذون وردا -لا يمكن أن تمرّ على المسلم أربع وعشرون ساعة وليس له ورد من القرآن يتلوه إما في الليل أو في النهار- زيادة على ما يقرؤه في صلواته الخمس- كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون- كونوا ربانيين قرآنيين كما قال الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران -أي اعبد ربّك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وهذا حديث جبريل مع النبي صلى الله عليه وسلم: ما الإحسان؟ - وقد رأينا صباحا طلب الإمام الشيخ باديس قال بعد أن قطع العهد على نفسه بقضاء بياضه كما قضى سواده على الإسلام والقرآن قال: أرجوكم أن تموتوا على الإسلام- كنت أردت أن أقول كلمة: ما معنى موتوا على الإسلام؟ وهل الموت بيدنا حتى نموت على الإسلام؟ وهل نعلم أجلنا؟ ولكن يبدو لي أن تفسير هذه الكلمة للأستاذ الإمام: عاهدوني على أن تموتوا على الإسلام يفسرها حديث النبي صلى الله عليه وسلم وقد صح عنه في كتب السنة: «اتق الله حيث ما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»- فمن اتقى الله حيث ما كان لا توافيه المنية إلا على الإسلام، ومن كان يذكر سيئاته فيتوب منها يأتي بالحسنات ليمحو بها السيئات- والدين هو المعاملة، الدين هو الخلق- هذه وصيتي وهذا ما أشرحه طوال خمسين عاما مضت- وهذا ما رأينا آثاره بادية ولله الحمد- على الوجوه المنيرة اليوم وهذا ما جعل إخواننا من جميع الجهات يزوروننا لهذا المهرجان العظيم بارك الله فيهم- جعل الله منكم أمة قرآنية أمة ربانية- اللهم أهدنا فيمن هديت- وتولنا فيمن توليت- وبارك لنا فيما أعطيت، واكف عنا شرّ ما قضيت إنك تقضي بالحق ولا

يقضى عليك، يا أرحم الراحمين - ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا، يا حيّ يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام، أصلح لنا شؤوننا كلها ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين - أصلح لنا قلوبنا وأصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا وتقبلنا بعفوك ورضاك يوم لقاك، يا أرحم الراحمين اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد خاتم النبئين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين).

• لمحات من حياته:

هذه لمحات من حياة الإمام ننقلها عن (جمعية الحياة) كما جاءت في الدعوة الموجهة إلينا للمشاركة في الملتقى الأول لفكر الإمام الذي أزمعت على تنظيمه يومي 8 و9 محرم عام 1420هـ، 13 و14 أبريل سنة 2000م في القرارة ولاية غرداية:

• حياة الإمام:

هو بيوض إبراهيم بن عمر بن بابا، ولد يوم 11 ذي الحجة 1316هـ/ 22 أبريل 1899 بالقرارة ولاية غرداية، جنوب الجزائر، وكان والده من أعيان الإصلاح في البلد.

عرف بالنبوغ والذكاء وحسن الحافظة وذلاقة اللسان منذ صباه، درس القرآن الكريم واستظهره وعمره 12 سنة فالتحق بحلقة "إيروان" أي حفاظ القرآن.

أخذ مبادئ الفقه والعربية عن مشايخه: الحاج إبراهيم الأبريكي، عبد الله بن ابراهيم بو العلا، والشيخ الحاج عمر بن يحيى ويرو.

لازم شيخه الحاج عمر بن يحيى وتأثر بتربيته وتعليمه فخلفه في رفع راية الإصلاح بعد وفاته سنة 1339هـ / 1921م.

في سنة 1340 هـ / 1922م التحق عضوا بحلقة "العزابة" الهيئة الدينية العليا بالمسجد المشرفة على الشؤون الدينية والاجتماعية في البلد وعين رئيسا لها سنة 1358هـ / 1940م إلى وفاته.

في سنة 1343هـ / 1924م تولى الوعظ والتدريس بالمسجد الكبير بالقرارة.

في سنة 1343هـ / 1425م أسس معهد الحياة للتعليم الثانوي مركزا على الثقافة الإسلامية والعربية والعلوم المعاصرة، وسماه "معهد الشباب" شعاره: «الدين والخلق قبل الثقافة»، و«مصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد».

شارك سنة 1349هـ / 1931م في وضع القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكان عضوا في إدارتها الأولى، نائبا لأمين المال.

في سنة 1349هـ / 1931م افتتح بالمسجد الكبير بالقرارة درس الحديث من "فتح الباري شرح صحيح البخاري" واختتمه في حفل بهيج سنة 1336هـ / 1945م.

في غرة محرم 1335هـ/ ماي 1935 افتتح درس تفسير القرآن من فاتحته بعد أن أتم تفسير جزء "عمّ" واستمر فيه زهاء خمسين عاما، واختتمه يوم 25 ربيع الثاني 1400هـ / 12 فيفري 1980م، فأقيم له بالمناسبة مهرجان عظيم.

في سنة 1355 هـ/ 1937م أسس جمعية الحياة بالقرارة التي دعّمت النهضة العلمية والإصلاحية في وادي ميزاب، ولا تزال تؤدي رسالتها في التربية والتعليم.

كانت له مشاركة فعالة في الصحافة الوطنية بمقالات قيّمة تدعو إلى الوحدة الوطنية والتمسك بالمقومات الإسلامية وباللغة العربية.

بسبب نشاطه الإصلاحي والوطني فرض عليه الاستعمار الفرنسي الإقامة الجبرية في مسقط رأسه خلال الحرب العالمية الثانية من سنة 1940 إلى 1944م.

في 3 جانفي 1944م بعد رفع الإقامة الجبرية عنه قدم مطالب الأمة أمام لجنة الإصلاحات الإسلامية.

كانت حياته كلها جهادا ضدَّ الحكم العسكري الفرنسي والموالين له، وضدَّ الأمية والجهل والبدع والخرافات والجمود الفكري.

وافاه أجله يوم 8 ربيع الأول سنة 1401هـ/ 14 جانفي 1981م عن عمر يناهز 83 عاما، فشيع جثمانه في موكب مهيب حضره نخبة من العلماء والأساتذة والوزراء ومسؤولي الدولة وجمع غفير من مختلف أرجاء الوطن.

دعائم نهضته الإصلاحية: القرآن والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح.

● من تراثه:

- تفسير مسجل لنصف القرآن 1127 درس، وهو مخطوط في أربعين مجلدًا، طبع منها 7 أجزاء.
- فتاوى مطبوعة في جزأين.
- أجوبة ومراسلات مخطوطة.
- مئات من الدروس والخطب المسجلة في المناسبات المختلفة.
- مقالات في مختلف الجرائد الوطنية.

● من ثمار جهاده الإصلاحي:

أجيال من الرجال، مشايخ وأساتذة ودكاترة ومسؤولون من مختلف المستويات في التعليم الرسمي والحر والإدارة والجيش والهيئات الاجتماعية.

عشرات من المدارس للتعليم القرآني الديني في مختلف مدن القطر.

في سنة 1366هـ/ 1948م كان عضوا في لجنة إعانة فلسطين، وكان من بين الأربعة الممضين على برقيات ورسائل التأييد باسم اللجنة وهم: الشيخ البشير الإبراهيمي، الشيخ إبراهيم بيوض، الشيخ الطيب العقبي، فرحات عباس.

في سنة 1366هـ / 1948م انتخب ممثلا لوادي ميزاب في المجلس الجزائري، وأعيد انتخابه سنة 1369هـ / 1951م.

منذ سنة 1955م إلى سنة 1962م كان محور النشاط الثوري بميزاب عامة والقرارة خاصة، إذ كوَّن أوّل خلية ثورية بالقرارة في أواخر سنة 1955م.

كان عضوا في اللجنة الإدارية المؤقتة لِعَمالة الواحات ممثلا لدائرة الأغواط سنة 1958م وأدى دورًا رئيسيًا في إحباط مؤامرة فصل الصحراء عن شمال الجزائر.

في سنة 1383هـ/ 1962م بعث مجلس عمي سعيد (الهيئة العليا لعزابة مساجد وادي ميزاب ووارجلان) فانتخب رئيسا له إلى وفاته.

في السبعينات اعتمدت وزارة الشؤون الدينية الجزائرية فتواه بالجمع بين الرؤية وبالحساب الفلكي في إثبات المواسم الدينية وفي اعتبار ميقات الحجاج بالطائرة باعتبار المطار الذي ينزلون فيه بالحجاز.

• من وحي تكريم الإمام بيوض:

إن قراءة تأملية فيما قيل في هذا الحفل ا. مي من الخطب والقصائد تجعلنا نصدر هذا الحكم في وضوح الرؤية، وطمأنينة اليقين، وراحة الضمير، وهو صدق العاطفة الذي يتجلى في كل تركيب وفي كل كلمة، إنها عاطفة إعجاب واعتزاز، وتقدير، وهي صادرة عن إيمان عميق بمكانة الإمام المفسر، وجهاده الفكري المستميت طوال الخمسين سنة وأكثر، وأحيانا تتجلى في بعض النصوص عاطفة الأسى والحزن لتخلف المسلمين عن الركب الزاحف إلى الغد الوضيء المشرق، وهم أولو دين هو أفضل الأديان على الإطلاق، وأصحاب كتاب يفتح أمام الحضارة آفاق العلم، ويحرضها دائما أن تأخذ بأسباب الرفعة والكمال، ويستحثها على المزيد من العلم، والزيادة من المعرفة، ويطلب رضى الله تعالى عن طريق سعادة البشر، والإيمان به عن طريق التأمل في الكون والانتفاع بما فيه!

ومعظم الصور التعبيرية -لاسيما في القصائد الشعرية- قوية الإيحاء تشع معاني مثيرة، ومصدر كل هذا مكانة الإمام بين العلماء المصلحين، وسمعته العطرة الذائعة، وجهاده العلمي المتواصل، وتراثه الفكري، وإسهامه في تحرير الجزائر، ومواقفه المشرفة، ومشاركته الفعالة في الصحافة الوطنية، ومحاربة الاستعمار الفرنسي له، وتكوينه أجيالا من الرجال الذين نهلوا من منبعه العلمي!

والجدير بالذكر أن الإمامين: ابن باديس وبيوض أدركا أهمية التعليم، وأدركا أن تأليف الرجال قبل تأليف الكتب، وأن انتشار التعليم يفتح للإنسان مجالا واسعا للتقدم في طرق معيشته، والدفاع عن حقوقه، والجهاد في سبيل حريته!

ومن المسلَّمات بداهةً أن المدرسة هي أول أركان الارتقاء الصحيح فحيثما تزدهر المدرسة هناك تزدهر الحياة، وترتقي المدنية، وتنتشر الحرية.

ومن ثمَّ انقطع الإمامان لتعليم الأجيال، وترقية عقولهم وتهذيب سلوكهم، وغرس الفضائل والكمالات في نفوسهم فما لبثت الجزائر أن رأت من صنائع هذا وذاك أجيالا أقوياء الإيمان والعقيدة، أقوياء النظر والفكر والترجيح، أُفرغوا في قالب واحد، يحملون روحا واحدة، ويتجهون اتجاها واحدا، لأنهم تلقوا تربية واحدة، وتخرجوا جميعا من مدرسة هذا الكتاب المعجز (الذي لا تنقضي عجائبه).

وهنا قد تسألني -قارئي الكريم- عن سر نجاح الإمامين: ابن باديس، وبيوض في رسالتهما التعليمية والإصلاحية، هذا النجاح الذي كلل بالتكريم، وظل تردده الألسنة في مختلف الأمكنة والأزمنة.

فالجواب عن هذا السؤال المفترض، أو الذي يدعو إليه السياق التاريخي في عرض الأحداث عبر حياة الرجلين قد لا يسعه إلا كتاب ضخم، ولكننا سنوجز ذلك ونقتضبه في الأمور التالية:

أولها: حب الرجلين لمهنتهما التعليمية والإصلاحية إلى حد الغرام والهيام، فالذي يمارس مهنة لا يحبها أولا يقدر عليها، أو لم يتبين المصلحة من ورائها فإنه لا ينجح فيها!

ثانيها: خلو حياتهما من العقد النفسية والآفات الخلقية المختلفة، بل كانا يتمتعان بإرادة قوية، وعزيمة ماضية، وأخلاق كريمة نبيلة، فاستطاعا بكل ذلك أن يحملا رسالة الإصلاح، وينشرا مبادئه، ويفتحا أعين الجماهير لأشعته المشرقة.

ثالثها: الإخلاص لله تعالى في تعليمهما وإصلاحهما، وكل عمل قوامه الإخلاص لله تعالى أثمر طيبا، وحقق نجاحا، وأعقب ذكرا حسنا.

رابعها: تلاقي فكري الإمامين وأفكار طلبتهما على هوى واحد، وغاية واحدة، حتى كادت نبضات قلوبهم جميعا تتحد في نبضها، هذا التلاقي وهذا الاتجاه والنزوع جعل الرؤية واضحة، والسير متواصلا منتظما، والنجاح محققا مضمونا.

خامسها: حب الطلبة لهما كان من ثماره الطاعة والانقياد والاقتداء، فكان كل طالب منهم يرى في أستاذه المثل الكامل، ويحاول جهده أن يمثله خير تمثيل.

سادسها: أداء النصيحة بالرفق واللين، لأن الغلظة والقسوة والفظاظة تنفر القلوب، وتبعد عن الخير، وهذا ما عرف عن الإمامين في صلتهما مع طلبة العلم وهواة المعرفة وعامة الناس، وليس أحد في الدنيا إلا وهو معرض للخطإ والغفلة، والزلل والانحراف، فتقويم ذلك لا يتأتى إلا لمن أوتي عقلا بصيرا، وحكمة في المعالجة والمناصحة!

سابعها: شعورهما بخطر المسؤولية أمام الله تعالى وتجاه الأمة، وتجاه أجيال الغد، وقد كان الإمام ابن باديس يقول لجلسائه في مناسبات مختلفة: «إن علينا أن نشق الطريق ونعبّد منها ما استطعنا لجيل الغد، حتى لا يرمينا بالتقصير في القيام بواجبها نحوه، إذ لو استمر أوائلنا في سيرهم على النهج السوي لما حدث لهم من الانحراف ما عطل سيرهم، وعجل بانحطاطهم، وصير الأواخر عاجزين عن تدارك الأمر بما يربط بين حلقات التاريخ المتقاطعة، ويجعلهم قادرين على استئناف المسير.. ولو قام الجيل الذي سبقنا مثلا بما أنجزناه اليوم من أعمال أو ما نحن

بصدد إنجازه، لقمنا نحن بشيء آخر، مما يدفع عجلة التاريخ من الأعمال إلى الأمام»[1].

وبذكر الإمام إبراهيم بيوض -وهو يصور خطر المسؤولية- أنه لما توفي شيخه المصلح. وشيخ عامة الطلبة بالمنطقة الأستاذ الحاج عمر بن يحيى المليكي في شهر جويلية سنة 1921م عمّ المنطقة حزن عظيم، وشعر المتعلمون بالخصوص بزلزال عنيف شلّ عقولهم، وبلبل أفكارهم، وعقّد ألسنتهم، ولكن الشيخ بيوض لم يكد المشيعون لجثمان الشيخ يعودون من المقبرة حتى قام فيهم خطيبا وقال: «إن الموت مكتوب على كل أحد وأن الشيخ له أجل محدود وهذا أجله، وقد اختاره الله لجواره ولكن اعلموا أيها الطلبة كبارا وصغارا من مختلف الطبقات أنكم لم تفقدوا من الشيخ إلا شخصه[2] ومنذ ذلك الحين أخذ على عاتقه المسؤولية فنهض بالتعليم خير نهوض، وبدأ التفسير مستعينا بالله، مقدر للرسالة المقدسة التي على عاتقه مؤمنا بنجاحه فيها، لأنه انقطع إليها يؤديها بكل محبة وإخلاص ورغبة في النفع والإفادة، وكان إلى ذلك يصلي بالناس ويفصل قضاياهم، ويحكم بينهم بالعدل!

ثامنها: كلاهما -ابن باديس وبيوض- يتمتع بالروح الوطنية العالية ويرى في جزم ويقين أن الشعب الذي يجعل من عقيدته وإيمانه، ومن حرصه على سلامته وكرامته جيوشا وقلاعا حصينة ترد كيد الكائدين، وتقمع أطماع المتربصين، هو شعب بطل على الدوام قادر على تغيير الحياة تغييرا أساسيا في اتجاه آماله الفسيحة العريضة.

---

(1) عن أوراق للمرحوم الشيخ باعزيز بن عمر سجلها عن شيخه الإمام عبد الحميد.

(2) في رحاب القرآن، نشر جمعية التراث ص 72.

تاسعها: هناك صفة تجمع بين هذين الإمامين وتكاد تكون الصفة المميزة للزعماء والمصلحين في المشرق والمغرب -بالخصوص- الذين قاوموا أساليب الاستعمار ومكائده، وحاولوا تحرير العقول والعقائد من نزعات الجمود والركود، والانطلاق نحو آفاق الحرية والعلم واليقظة والرقي، هذه الصفة هي الجاذبية وقد عبّر عنها الأستاذ العقاد فيما كتبه عن المصلح جمال الدين الأفغاني (بالمغناطيسية) وقال فيها بالخصوص:

«ولولا المغناطيسية الشخصية ما كان الملوك والأمراء يقبلون من جمال الدين أن يخاطبهم، في قصورهم مخاطبة الند للند، والزميل للزميل؛.. ولولا المغناطيسية الشخصية ما كان جمال الدين مستطيعا أن يجوب الآفاق بغير مال... هذه المغناطيسية الشخصية كانت قوة جمال الدين الكبرى، وكان قوامها الأكبر ثقة بالنفس لا تحد وإيمانا بالحق لا يتزعزع»[1].

فلولا هذه الجاذبية أو المغناطيسية لما وقف الإمام عبد الحميد تلك المواقف الشجاعة التاريخية تجاه فرنسا وضد المستعمرين، ولما كانت منه تلك الكلمات التي تتلظى نارا ولم يكن وراءه جيش ولا قوة إلا إيمانه بربه، وثقته في نفسه، وعدالة قضيته. فهاك -قارئي الكريم- مثلا من تلك المواقف وكلمة من تلك الكلمات:

«اسمعوا، إننا لن نرضيكم أبدا، وأننا لن نعمل على إرضائكم، إننا لن نخشاكم أبدا، ولن نعمل عملا يوقعنا تحت طائلة أيديكم، نحن سائرون على منهاجنا، وفي طريقنا، لا يضرنا صراخكم، ولا ينفعنا سكوتكم، فقولوا ما شئتم، فلن تنالوا منا منالا، ولن نتزعزع عن عقيدتنا، إنما

---

(1) منبر الإسلام ع3 س3 ربيع الأول 1393هـ.

ننصحكم نصيحة خالصة أن لا تعودوا لمثل هذا العمل الممقوت، فسياسة وخز الدبابيس تنتهي غالبا بفقد الشعب لصبره، وإخراج الحليم عن حلمه، وإننا لنسد في أوجهكم هذا الباب إلا إن كسرتموه، والأمر بعدئذ لله»[1].

وهذه هي مواقف ابن باديس ومواجهته الصريحة الشجاعة سواء أكان ذلك ضد فرنسا المستعمرة أم ضد أذنابها وعملائها.

والإمام بيوض على هذا الدرب الصاعد الذي لا يسير فيه إلا ذوو العقيدة الراسخة، والإيمان القوي، والهمم العالية، الذين لا يرون العز إلا في نصرة الحق، ولا يرون الموت في الجهاد بالكلمة إلا حياة كريمة ومجدا شامخا، فمن عاد إلى حياته الإصلاحية والجهادية وقف في ذلك على صفحات وضيئة مشرقة يزهو بها تاريخ الجنوب بل تاريخ الجزائر كلها.

ومن عرف شخصية الإمام في ضوء الوثائق السرية الفرنسية التي هي وراء البحار أدرك خطورته على الاستعمار الفرنسي وعلى سياسته التخريبية والتدميرية في الجزائر، وأدرك بالتالي سر قدرته على المواجهة والتحدي وعرف أيضا أن المغناطيسية هي قدر مشترك بين جميع رجال الدعوة والحركات الإصلاحية في العالم العربي والإسلامي.

---

(1) الشهاب ج12 م11 غرة ذي الحجة 1354هـ، مارس 1926م.

■ تكريم العلامة الشيخ محمد المكي الناصري:

● تمهيد:

من أبرز صور التكريم العلمي في المغرب الشقيق، وأصدقها دلالة على مكانة المكرم بين العلماء، وتعبيرا عن مشاعر المحبة والتقدير نحو من تنكر لذاته وآثر خدمة وطنه ودينه ولغته على نفسه وأسرته، تكريم الأديب الظريف الشاعر الملهم العالم المفسر لكتاب الله تعالى الأستاذ الشيخ محمد المكي الناصري!

لقد أدرك ذوو الفضل فضله، ورأوا أن المعنى الذي يبدر إلى الذهن من تكريمه، ماضيه المشرق بجلائل الأعمال، وتاريخه الحافل بالجهاد العلمي المتواصل، وشخصيته القوية التي تقوم على رزانة الحكيم، ووقار الحليم، واستقامة المنطق، وخصوبة الذهن، وسعة الاطلاع، وحدّة النشاط، وغزارة العلم!

فارتأوا أن يذكروا بهذا الفضل ويلفوا إليه الأنظار، ويجمعوا عليه القلوب والمشاعر، حتى لا ينسى الناس هذا الفضل وحتّى يكون لهم حافزا ودافعا إلى الأمام في طريق العلم والمعرفة، في طريق الجهاد الوطني والديني، ومن أجل التغيير إلى أفضل وأحسن في مختلف مجالات الحياة!

ولاشك أن من سعادة أمة ما، أن يكون فيها رجال عظماء، يفجرون الحياة، ويضيئون الطريق، ويقودون برشد وحكمة، ويوجهون بنزاهة، ويرسمون عن هدى وبصيرة، وهؤلاء هم عناوين أممهم البارزة العريضة، والشواهد الدالة على أن أممهم قابلة للتقدم والتطور، شريطة الاقتناع ثم الاقتداء والاهتداء!

ولتحقيق هذا الغرض النبيل، وهذه الرغبة الكريمة (نظمت جمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية بتعاون مع وزارة الأوقاف والشؤون

الإسلامية في نطاق موسمها الثقافي عام 1408هـ، 1988م الحلقة الأولى من سلسلة التكريم التي قررت تنظيمها لمن حملوا بأمانة وجدارة مشعل العلم والمعرفة من الشيوخ الرواد الذين اضطلعوا بمهمة التأطير العلمي بدار الحديث الحسنية التي أقامها أمير المؤمنين الحسن الثاني لبعث الدراسات الحديثية وإحياء السنة النبوية والعلوم الدينية التي كان الغرب الإسلامي موطنا لها ودارا)[1].

والحلقة التكريمية الأولى للجمعية خاصة بالعلامة الشيخ المكي الناصري، وقد دارت أشغالها بدار الحديث الحسنية على مدى يومين، وحضرها جمع غفير من العلماء والأدباء وطلبة العلم، والشخصيات الرسمية.

وتضمنت الجلسة الافتتاحية كلمة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكريم العلوي المدغري الذي افتتح أشغال التكريم، وكلمة مدير دار الحديث الحسنية الدكتور محمد فاروق النبهاني، وكلمة الكاتب العام لجمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية الدكتور محمد يسف، وكلمة مؤرخ المملكة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور[2]، وكلمة مدير التعليم الأصيل والكاتب العام للمجلس الأعلى للمجالس العلمية الأستاذ محمد الحجوي الثعالبي، وكلمة رئيس جامعة العرويين الدكتور مولاي إدريس العلوي العبدلاوي. وكلهم نوهوا بهذه السنة الكريمة ومن ابتدعها أو دعا إليها وشجع عليها، وجسموا ما ينجر من ورائها من ثمار طيبة، ونتائج حسنة لا سبيل إليها إلا هذا التكريم من الوفاء للمكرّم، والحفز للهمم، وتحري النسيان.

---

(1) منشورات جمعية العلماء، خريجي دار الحديث الحسنية.

(2) هذا جزائري هاجر إلى المغرب في الخمسينيات.

● **لقطات مما قيل في الحفل:**

وهذه فقرات من كلمة الافتتاح التي ألقاها وزير الأوقاف والشؤون الدينية الدكتور عبد الكريم العلوي المدغري وكلمات الخطباء الآخرين:

«إنه ليوم مبارك سعيد هذا الذي وفقنا الله فيه لتكريم رجل من عظماء الرجال، شيخنا وأستاذنا سيدي محمد المكي الناصري، إن هذا التكريم في الواقع ليس تكريما لشخص، وإنما هو تكريم لمدرسة وفكر ومنهج وسلوك، إنه تكريم للمدرسة الإسلامية برسوخها في الماضي ونجاحها في القرن العشرين، وصلاحيتها للمستقبل. تكريم لفكر ومنهج وسلوك، قائم على مبادئ الإسلام وقيمه ومكونات الشخصية المغربية الفذة وعلى ذاتية متشبعة بروح إنسانية نادرة، فأستاذنا الشيخ سيدي محمد المكي الناصري، رجل الوطنية التي وقفت في وجه الاستعمار وقوف المجاهد الصبور، نبع عمله من الحماس والحكمة، ومن التضحية والبصيرة المتقدة مع الإخلاص والصدق والروح العالية التي تسمو على النظرة الحزبية الضيقة، وبعد الاستقلال ضرب الشيخ سيدي محمد المكي الناصري مثلا عاليا في ترجمة وطنيته إلى تجند دائم للعمل في سبيل بناء المغرب ونمائه ورحابه وازدهاره».

وبعد أن تحدث الوزير عن الجانب العلمي في شخصية المحتفل به، وعن نشاطاته العلمية الدائبة داخل المغرب وخارجه. وعن أعماله الفكرية البناءة في مختلف المجالات، قال:

«لا أستطيع أن أتحدث عن أعماله العلمية، ولكن أريد أن أسجل أن فضيلته خدم الدراسات الإسلامية خدمة جليلة، إذ حببها إلى الناس بأسلوبه المشرف، وعباراته العذبة، ومنهجيته العلمية الأنيقة، وكانت

هذه الطريقة لا تتوفر عند كثير من العلماء، فهذه إضافة تذكر لفضيلة الشيخ سيدي محمد المكي الناصري الذي جمعت طريقته بين القديم والحديث، وكانت دراساته ومحاضراته تعرض الشريعة الإسلامية في أسلوب شيق رائق، يعجب الجميع، ويحبّب إليه الجميع، ويدفع الجميع للمزيد من الأخذ من هذا العطاء الفياض»[1].

ثم توالى الخطباء وتعاقبوا على المنصة في مختلف الجلسات المفتوحة وتبارى الشعر والنثر في إبراز معالم شخصية الأستاذ المحتفل به، وكل من اعتلاها قد تهيأ نفسيا، واستعد فكريا ليقول، لأن الرجل الذي يقول فيه ما يقول، جدير بكل قول جميل، وجدير بأن تضفى عليه أوصاف التقدير، ونعوت الاحترام والتبجيل، وإنما يُريك الكاتب أو الخطيب تكلف القول حينما يعز القول، ومحاولة التحليق عندما يهيض الجناح!

وإذا كان عرض فقرات وقطع شعرية من كل ما قيل يوسع المجال، ويمدد الحبل، فلا أقل من عرض بعض ما يضيء جوانب شخصية المحتفل به أو يفتح الأعين على أهمية التكريم ومشروعيته ومصداقيته حتى يكون صادق الدلالة، واسمًا على مسماه!

قال الدكتور محمد يسف الكاتب العام لجمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية:

سنفرد لكل علم من أعلامنا حفلة تكريمية خاصة تكون مناسبة لإبراز معالم فكره، وعرض منهجه وطرائقه، وإظهار مزاياه وخصوصياته، وصلا لحاضر الأمة الطارف المتجدد، بماضيها المجيد التليد، وتأكيدا

---

(1) منشورات جمعية العلماء، خريجي دار الحديث الحسنية، سيرة الشيخ محمد المكي الناصري، ص 11و14.

على أن عطاءها ظل على امتداد الزمن عطاء غير مجذوذ، متميز بالأصالة والشموخ، وجمالية العرض، وعمق الرؤية، ودقة الاستنساخ مع روعة الابتكار، وجدية الإضافة[1].

ثم تحدث الخطيب عن معنى التكريم ومناطه ومقاصده ومذاهبه.

وقال الدكتور محمد فاروق النبهان مدير دار الحديث الحسنية:

«.. وحفلات تكريم الرجال هي اعتراف بدورهم في خدمة أمتهم، والأمة التي تكرم عَلَمًا من أعلامها فإنما تكرم في نفس الوقت تاريخها المجيد، وتعاهد نفسها من خلال حفلات التكريم أن تكون وفية لتاريخها وتراثها وأرضها وقيمها.

ثم تحدث الأستاذ فاروق عن ملامح شخصية المحتفل به وحددها في هذه المعالم:

1- وضوح الاعتزاز بالعقيدة الإسلامية.

2- الاعتزاز بشخصية العالم، والأستا الجليل...

3- الالتزام بالسلوكية الإسلامية سواء في مجال الفكر، أو في مجال العمل السياسي...[2]

وقال الأستاذ عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة:

من علامات رشد الشعوب وكرم طباعها اعترافها بالجميل لمن قدم لها خيرًا، أو أسدى إليها معروفًا، فليس من المروءة ولا من حميد السجايا أن يقضي امرؤ حياته في جلب المصالح لشعبه، ودرء المفاسد عنه وخدمته

---

(1) المصدر السابق ص 24 – 25.

(2) نفس المصدر ص 31 – 34.

بعلمه أو ماله أو جاهه وبدنه، ثم يخرج من الدنيا دون أن يكافأ ولو بعبارة إشادة وكلمة تنويه منحسرا يتمثل لسان حاله بقول الشاعر:

لقد عهدتك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زوّدتني زادا

ثم استعرض الأستاذ عبد الوهاب صورة عن معرفته الأولى بالأستاذ المكي الناصري، وهي معرفة غيبية روحية مضى عليها أكثر من نصف قرن، وذلك عن طريق كتاب (الأدب العربي في المغرب الأقصى) لمؤلفه المرحوم محمد بن العباس القباج حيث أنه قرأ في جزئه الثاني الخاص بتراجم شعراء المغرب ترجمة الأستاذ المحتفل به وقصائد من شعره وهي كما ذكر ثلاث:

أولاها قصيدة في تعظيم كتاب الله وتمجيده مطلعها:

الله لا يرضى لأمة أحمـــد إلا طرائـق للعـلا والســؤدد

هذا كتاب الله يدعـونا إلى سبل الرشاد ونصح كل موحـد

وثانيهما حماسية يستنهض بها أبناء وطنه ويحثهم على بناء ما تهدم من أمجاد، وعلاج ما أصابهم من علل وأدواء مطلعها:

حــق البــلاد على بنيهــا حـــق يقدســه الإلـــــهْ

حتى متى وبنـــو الْبـــلا د على قـداستهـــا جنــــاهْ

مجــد تهـــدم، هل لـــه من بينكـــم قـــوم بنـــاه

وثالثها وطنية عبّر فيها وهو في مصر عن حنينه إلى وطنه، واعتزازه به، وإيثاره على ما عداه من أوطان وفيها يقول:

أنـــا في مصـــر وقلبـــي أبـــدا ثَـــم مقيـــم

إن يهِـــمْ بالنيـــل قـــوم فبِوديـــاني أهيـــم[1].

(1) المصدر السابق، ص 38.

وقال الأستاذ محمد الحجوي الثعالبي مدير التعليم الأصيل:

«إن سماحة العلامة الكبير الشيخ محمد المكي الناصري لقمين بكل تكريم وتبجيل، وجدير بكل إجلال وتقدير لما تمتاز به شخصيته المتعددة الجوانب من رسوخ في المعرفة، واطلاع واسع، وقدرة فائقة على التبليغ بمنهجيته المعروفة، وفصاحته المعهودة، فهو الأستاذ الجامعي المثالي، وهو الباحث القدير، وهو المحدث المبدع، وهو الخطيب المصقع، وهو الوطني الغيور، والزعيم المشهور، وهو المفسر لكتاب الله على أمواج الإذاعة الوطنية، وهو رئيس المجلس العلمي للعدوتين، وهو عضو مجلس الوصاية، وهو عضو أكاديمية المملكة المغربية.. إلى غير ذلك من الجوانب العديدة التي سيتحدث عنها السادة المشاركون في هذا التكريم ببحوثهم المستفيضة»[1].

وقال الدكتور مولاي إدريس العلوي العبدلاوي:

إن اسم أستاذنا الشيخ الجليل يرتبط بكثير من الأحداث الخاصة والعامة التي أسهمت في تعميق فكرة الوحدة العربية والإسلامية في بناء المغرب، وأثرت أبلغ التأثير في تنسيق الصلات الروحية والفكرية بين أقطار الإسلام[2].

وقال الأستاذ محمد العربي الخطابي، سفير ووزير سابق:

إن تعاليم الإسلام هي الدعامة التي ما فتئ الشيخ المكي يستند إليها منذ شبابه في سعيه وجهاده، ولقد كان دائما مثال الزعيم المؤمن بحيوية الإسلام وقابلية أبنائه للتجديد، وهو بذلك من أفذاذ هذه الأمة الذين

---

(1) المصدر السابق ص 44.

(2) نفس المصدر ص 43.

توافرت لهم شروط الريادة كالعلم والعمل، ونفاذ البصيرة، ورحابة الفكر، مع النزاهة والاستقامة، والثبات على الحق، وهو المربي الصالح الذي أفاد أجيالا من بني أمته، لا بما فتحه أمامهم من آفاق التعليم والتهذيب والتثقيف فحسب، بل بالقدوة الصالحة أيضا، ذلك أننا عرفناه في تطوان -كما عرفه غيرنا في كل مكان- سليم العقيدة، متميز الخلق نزيه السعي، عزوفا عن الصغائر، كثير الصبر، وفيا لتلاميذه وأصحابه وصحبته[1]!

وقال الأستاذ محمد العثماني الأديب المفكر:

قد كنت قبل الاستقلال من الذين تمنوا أن توظَّف كفاءته وحركته في ترشيد الوعي الشعبي بكيفية أفضل، ولكنه بذل أقصى جهد لأعلى واجهتين:

واجهة التوعية الوطنية، وأخرى لنشر الوعي الفكري مجلة وجريدة، كتابا وخطابا، ناديا ومعهدا، فهو العالم الذي أدى واجبه العلمي، والمناضل بالكلمة الرشيدة يوم كانت الكلمات تساوي القنابل والصواريخ، والوطني الرزين الذي يعرف كيف يواجه الأزمات ثم يخرج منها بأقل الخسارات[2].

وختم خطابه بقوله:

كان لأستاذنا محمد المكي الناصري أعمال كثيرة منشورة لا يتسع الوقت لذكرها والتعليق عليها ويكفي أن نذكر العمل العظيم الذي توج به إنتاجه العلمي والفكري وهو تفسير كتاب الله بمنهجيته الخاصة، وتسجيله بصونه المؤثر... فهنيئا لأستاذنا بهذا التوفيق، وهنيئا له مرة أخرى بهذا التكريم[3].

---

(1) المصدر السابق ص 70.

(2) نفس المصدر ص 70.

(3) نفس المصدر ص 28 – 89.

وقال الدكتور عباس الجراري أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب بالرباط:

من هذه التجربة الغنية تقلبه في بيئة ثقافية، المحيط الأسري العلمي والديني الذي نشأ فيه، تشبعه بثقافة متميزة- تشكلت في ذهن الطالب الناصري صورة النموذج الذي يتوق إلى اقتفائه ويكاد إنتاجه في هذه المرحلة المبكرة أن يكون دالا على الهم الذي كان يشغله، والطموح الذي كان يسعى إلى تحقيقه، ويكفيني في هذا العرض الوجيز أن أشير منه إلى قصيدة قالها سنة 1923 يستنهض بها أبناء وطنه، هذه بعض أبياتها:

إلى المعـــالي هلمــوا يا بنـي وطنـــي
واستيقظوا عاجلا من غفلة الوســــــن
قوموا انشروا العلم ولتُهدوا نفائسكم
في نشره بالقــــرى فضــلا عن المــدن
لا تبخلـــوا أبدا في نشــــره ودعـــوا
تقليد أهل الهوى والجهــل والإحــــن
هذي بلادُكـــمُ قامــت تصيـــح فهـل
من وثبـــــة أم فقدتـــم نعمـــة الأذُن
تصبـح من كمـــد كادت تصيـــر بـــه
حبيسة القبـر بين اللحـــد والكفـــن
إلى متى وهي تدعــــوكـم ولا أحـــد
يُجيـــب دعوتهـــا بالــروح والبـــدن

وختم خطابه الاستعراضي التحليلي بقوله:

وبعد فهذه -أيها الأصدقاء- جوانب من جهاد فضيلة الأستاذ الناصري حاولت عرضها باختصار في خطوطها العريضة اعتمادا على مواقفه وإنتاجه، وانطلاقا مما يكشفه تاريخ المرحلة وفي ضوء اتصالي ومعرفتي الشخصية به صديقا ورفيقا لوالدي -رحمه الله- وزميلا لي في أكاديمية المملكة المغربية والمجلس العلمي للعدوتين، ثم أخا كبيرا أعتزّ به وأفتخر[1].

وقال الأستاذ أبو طاهر آل عزيز، نائب برلماني سابق:

وجه صبيح، وعقل صحيح، ولسان فصيح، وصدر فسيح، ونسب صريح، كان في سبيل الوطنية الإسلامية منافحا، وعن قضية بلاده مكافحا، يمتطي بقلمه والقرطاس ما حقق كثيرا من الآمال، وأكرم القصد وعجل المراد.

وبعد أن تحدث بإسهاب عن رحلاته العلمية والأدبية في مختلف المجلات والجرائد وقاعات المحاضرات، ورحاب المساجد، وجهاده المتواصل في سبيل الإسلام والعروبة والمغرب العربي، قال:

تطول القائمة، ويطول الحديث، وتتنوع أمام المستقصى عبقرية الرجل لأنه خُلق عالما جديدا في تطوان، وآخر في طنجة حتى إذا أشرقت شمس الحرية والاستقلال اختار مسقط رأسه الذي أبعد عنه سنين طويلة مقرا وسكنا، ولعل الرجل بعد ذلك لا يحتاج إلى من يحصي أعماله في الرباط لأن العهد قريب والتاريخ حديث![2]

---

(1) المصدر السابق ص 93 – 103.

(2) المصدر السابق ص114.

وقال الأستاذ عبد اللطيف أحمد خالص الشاعر الأديب:

بعد أن تحدث بإسهاب عن منابع ثقافة المحتفل به، وعن جوانب متعددة من شخصيته، كالجانب النظري، والجانب العلمي:

«ومن ألطف الأمور التي يقف عليها الدارس وهو يتتبع شخصية المحتفى به، استمرار في فكره المتوثب، وتواصل في عمله الدؤوب، دون تنكر أو نشاز في الخلية الفكرية التي يتمتع بها، والعقلية التي يسير على نهجها منذ أوائل القرن العشرين إلى آخره لم ينل منها كر الغداة ولا مر العيش رغم كبر سنه، ورغم ما عايش من أحداث جسام، وما لقى في طريقه من عقبات كأداء، كان خصومه السياسيون ومن لا يشاركونه في الرأي والاتجاه يتفننون في وضعها أمامه لرده عن النهج الذي اختار السير فيه[1].

وتواصل فيض الخطب في التنويه بشخصية الأستاذ المكي الناصري، والتذكير بمجالات جهاده الفكري والقلمي طوال أكثر من ستين سنة، ولا يتسع المقام لعرض فقرة أو فقرات من كل خطاب من تلك الخطب، وحسبنا ما قدمنا في هذا الجانب.

وفيما يلي قطع شعرية من بعض القصائد التي ألقيت في هذه المناسبة حتى نكون قد وفينا ببعض ما يجب أيضا نحو بعض الشعراء ومن أراد الاستقصاء والتوسع فعليه بالسفر القيم الذي أصدرته (جمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية: سيرة الشيخ محمد المكي الناصري شهادات ووثائق عن حياته وجهاده في خدمة العلم والدين والوطن).

(1) المصدر السابق ص 128.

قال الشاعر الأستاذ محمد العربي الشاوش:

أمجـد فيه العلـم والفكـــر والنبـلا
أمجد فيه الـروح والعقـــل والفضـلا

أمجـــد في شيـخ الشيـوخ نضالـهُ
وقد خاض فيه الهول والوعر والسهـلا

فناضَـــل من أجـل السيـادة تـارة
وطالب في الأخـرى التحـرر والعـدلا

ومن أجل نشـر العلـم سَهَّـد جفنَـه
فعلّـم أجيـالا، وكـان لهـم خِـلا

وعلّمهـم أن العلـــوم وسيلـــة
إلى المجد والتحرير والنهضة المثلَى

فلا خيـر في عيـش بـدون سيـادة
ولا خير في شعب إذا رضيَ الجهـلا

* * *

سَلُـوا كتلـة قوميـــة وطنيـــة
عن"المكي" المقدام كيف انتضى النَّصلا

فكـان إلى حقـل النضـال مبـادرا
مع النخبـة الأولى، وكان لهـم عِـدْلا

وأصبـح للشعـب المكافـح قـدوةً
وما انفكّ بالتوجيـه يصقلـه صقـلا

ولقَّنـــه أن الكفـــاح ذريعـــــة

إلى العزة القعسـاء والرتبـة الفُضــلَى

فكـــوَّن أفواجـــا تفيـــض حماســـة

قد استوعبت مضمون رأيه والشكـــلا

وكان خطيبـا في المحافـل مِصقعـــا

ويهتز بالتصفيـــق من سمـــع القـولا

وكان سراجـــا في الصحافـــة لامعـــا

يحرر في السياسة البحث والفصــــلا

فأمْلَى بإِسهـــاب خلاصـــة مهجـــة

بدقـــة نِحريـــر، ووثَّـــق ما أمـــلى

وأيقـــظ أفكـــارًا بوحـــي يَراعـــــه

وقـاد إلى الأمجـــاد من أنِـــف الـــذلا

ثم يقول:

وعاد إلى العلـــم الشريـــف مُكرَّمـــا

إمامـــا وأُستـــاذا، ومَن ذا بِـــذا أولى؟

هو السيد الغطريف ذو المجد والحجى

هو إلاّ لمعيَ اللوذعيَ، ومـــا استعـــلى

«هو البحـــر في أحشائـــه الـــدرُّ كامـــن»

فلله مـــا أعطـــاه من درر نفـــلا

فقيــه نبيــــــه، عالــــم متبحـــــر

وورارث هَدْي الرسْل فضلا من المــولى

سمـــا في سمـــــاء العلم حتى كأنــــه

ذُكاء أشعَّت تُنعش النفــــس والعقــلا

فكرّس للتدريـــس والبحـــث وقتـــه

ولم يسترح جسما وفكرا، وما مَــــلاَ

وخـرّج من "دار الحديـــث" وغيرهـــا

أساتذة، والفرعُ قد يُشبــــه الأصـــلا

فللــه در "الناصـــــري" فمـــــا رأى

لبيـــــب لـــه في وقتـــه أبـــدا مثــلا

فإن ذكــــر اســم "الناصري" قِفوا لــه

وكرِّموا فيه العلم والفكــــر والنبــــلا

ومجِّـــدوا فيـــه رائـــدا ومناضــــلا

رصينـــا، فريـــدا في مواهبـــه الجُلَّى

إلى أن يقول:

مدحتـكَ يا شيـخي بكـــل تواضــــع

وما أنا مـــــدَّاح ولا مطنــــب، كـــلا!

بأي بيـــان يمـــدح المــرء شيخـــه

وقد أسبغ المولى عليــه بـه النُّحْـــلا

فنـال به حظـا من العلـم وافـــرا
ونال من الفكر الحصيف به كِفــــلا
فلو كنتُ مدّاحـا نظمــت مدائحـــا
مـن اللؤلـــؤ اللألاء في مدحــــه تُتلى
ولو صغتُ مدحِي من نُضـــار ولؤلـؤ
لكـــان زهيـدا ، إذ مناقبُـــــه أغـــلى
ولكنــني شخـــص نزيـــه ومنصـــف
أسجّــــل "للمكـــي" ما قـــلّ أو جـــلا
مدحتـــهُ تكريمـــا وحبّـــــا لأنني
وفيّ لأستـــاذ عرفـــت له الفضــــلا
وذو الفضل لا يبخلْ بحســـن ثنائـــه
على مـن لـــه فضــل عليـــه وإن قــلا
ولا خيـل عنـدي أو سبائـــك عَسْجَد
فأُهــدي له تلك السبائــك والخيـــلا
ولكن ، بديلَ التبـر ، عنـدي عواطــف
وفيـــضُ بيـــانٍ كالغَمـــام إذا انهـــلا
فحسبــــه منِّي أن أشــــدتُ بفضلـــه
وأهديت تقديري وشكـري لــه قــولا
أدام لـــه المــولى حيـــاة سعيــــدة
وعافيـــة موصـولـــة أبـــداً وصْـــلا

وأبقــاه للعلــم الشريـــف منـــارة

تضيء بنور الله في أرضـه السّبْـــلا

ودام لــه العــز المنيــف ملازمـــا

ودامت له الأيــام كالـروض مُخضّـلا

وقال الشاعر الأستاذ عبد الغني سكيرج:

شائــقٌ، راقــه المسيــر، فســـارا

وتمـــنى، لو يستطيــع ادّكــارا !

سائر، يســـأل المفـــاوز والقفـر،

إذا القفـــر أفقـــر الأفكـــارا !

شارد اللب، حائـــرا، ليس يــدري

أيوافـــي، أو أن يَــرُدَّ اعتــذارا...

يطلب الشيِّق الجميـــل من القـــو،

ل يُرضِـــي الإجـــلال والإكبـــارا

يسأل الماضي البعيــد عن الجهــد،

إذا الجهـــد حالَـــف الأقـــدارا

وقال:

أتُـــراه يصيـــب منــه القـــوافـي

أم يـــلاقي الأهـــوال والأخطـــارا

ولقد تشتفي النفـــوس من القـــو،

ل وقـــد لا تُجيـــد إلا اعتـــذارا !

والذي يبعـــث المســـرة لاعـــذ

ر، لمن فيـــه يخلـــق الأعـــــذارا

وقال:

صَـــاحَ، خَلَ الوَنَى، وخـــل الهوينَى

ما أبى طيِّعًـــا، يجئـْــك اقتســـارا !

وامض للفاره المُريـــح من الشعـــر،

يَزِيـــن الأسمـــاع والأبصـــــارا

وازوِ للسامعيـــن كل عجيـــــب

واســـق للوافديـــن منه عُقـــارا !

أوَ لسنـــا هنـــا نكـــرِّم ضيفـــا،

أو لَسنـــا هنـــا نشـــرِّف دارا؟

فخليـــق أن ينتـــشي كلٌّ صـــب

وجديـــر بأن يُزيـــح العِـــذارا !

أوَ مَا نحن أمـــة العُـــرْب نقْـــرِي

-كرمًا- ضيفَنـــا، ونحمي الجـــارا؟

أوَ ما قد سمعـــتَ طالـــب مجـــد

يعتـــلي شامخـــا ويوقـــدُ نـــارا؟

يجتدي الوافديـــن من كـــل صقـــع

عـــلَّ في الوافديـــن شهمـــا زارا

لـــمَ لا نقتـــدي بكـــل كريـــم

عزَّ فيهـــم، أو نصطفيــه شعـــارا؟

وقال:

والذي جـــاوز المعـــالِي جديـــر

أن يُفَـــدَّى وأن يَنـــال اعتبـــارا !

ما رأينـــا "كالناصـــري" مثـــالا

أوْ لَنـــا مثلُـــه يَشِـــعُّ منـــارا !

وطنـــيٌّ، جهـــدا، وكـــدا، وودا،

ونضـــالا، وحنكـــة واقتـــدارا !

كافح الضيم، قاوم الظلـــم، نـــادى

بالذي أيقـــظ الغُفـــاة الحيارى...

لقَّن الدرس عالمـــا، روّض الفـــكـ

ـــر، وخاض النضال، ردَّ فخـــارا !

عالـــم، جائـــل، مشِـــع، غيـــور

نـــوَّر الفكـــر، درَّس الآثـــــارا

شاعـــر بالخفِيّ، إن حمـــل الطِّـر

س، ليَـرقى، أو زحـــزح الأشعـــارا

جوهريٌّ اللســـان، إن فـــاه يومـــا

لؤلـــؤيٌّ، إن فســـر الأسفـــــارا!

لوْذعـــيّ، مجـــــدّد، عبقــري

كاتـــب، ناثـــر، يبــزّ حِـــوارا

قائدٌ همُّه الوحيـــد من (الحـــزب)

اتحـــاد، لا يَمنـــةً أو يســـارا...

بعَـــث النخبـــة الزكيـــة للشـــر

ق، فعـــادت تُبـــــدد الأنـــوارا

من بقايا الرموز، والشُّـــمِّ، يبـــدو

شامخا جَـــلَّ، يحمـــل الأســـرارا

إلى أن يقول:

لا تَخَـــالوا أني جريـــتُ مع الشعـ

ــر أوَ آنَ الخيـــالَ فيه استطـــارا،

لم أقـــل فيـــه بالـــذي ليـس فيه

أو أزد ما أقـــولـــه استكـــثـــارا،

إنمـــا قلـــت ما علمـــتُ وحسبي

إن أُطِـــل، زدت فيـــه اختصارا...!

ليس بِدْعا أن يجمـــع الله في المـــر

ء شتاتـــا، أو يقتضـــي استنكـارا!

والذي يمتطـــي المحجـــة للمجـد،

يلاقـــي التمجيـــد والإكبـــارا !

أوَ ما قـد سمعـت قِدْمـا مقـالا
فيه ذكـرى لمـن يوَدُّ ادِّكـارا ؟
«يَحمَدُ القومُ في الصبـاح سُراهـم»
وهنيئا لمن على الـدرب سـارا ! !
أيها الماجـدُ المحنَّـك، مَرْحَى
ثـم مرحَى، تعـاد فيـك مـرارا
ليكنْ شخصـك الرفيـع مثـالا
ولْيـدُمْ ظلك المشـع منـارا
إن نكـرِّم عـلاك فينـا نكـرِّمْ
نفسَنـا كي ننـال منـك فخـارا !

وقال الشاعر الأستاذ عبد اللطيف أحمد خالص:
هنيئـا لحفـل بالمكـارم زاهِـر
وجمـع غنـيّ بالنجـوم الزواهِـر
فأنعِـمْ بـه حفـلا لتكريـم سيـد
كريـم السجايـا في سمـو العناصـر
وأكـرِمْ بحشـد بالوفـاء مُصَبِّحًـا
مشيـد بفضـل الناصـري مُفاخـر
ففي المغرب الأقصى جهابـذة دَعَـوْا
إلى الحـق والعرفـان دون تفاخـر

وكم في رباط الفتح من علَم علا
منابر هَدْي للشريعة ناصر
وكم في رباط الفتح من علَم ثَوى
له في فنون القول غرّ الجواهر
فلا غرو أن تغشى المحافل فتيةٌ
تهزّ بهذا الحفل حرّ الضمائر
وتقدُر أرباب النهى وتجلّهم
وتفخر بالأعلام ركب المفاخر
وما شيخنا (المكي) إلا مواهب
يمنُّ بها الرحمن مبدِي السرائر

وقال:

ولا عجبٌ أن قام في الشعب فتيةٌ
وشدُّوا عليه دائما بالخناصر
وما شيخنا المكيّ إلا نموذج
تفجَّر علما كالبحار الزواخر
فقد دأب المكيّ في كل مجمع
يذود عن الإسلام كل مكابر
ويُلقِي على الدين الحنيف أشعة
تصدُّ كلام الملحدين الأواخر

وتعطـي عن الإِسـلام أجمــل صـــورة

تفتّــق أذهــان الشبـــاب المعاصـــر

حضارتنـــا الغـــراء جُــدّد أمرُهـــا

بفضـل حكيـــم للـــرقي مسايـــر

نفضتَ غبـــارا كـاد يطمس نورهـــا

وأظهرتَهـــا كاللؤلـــؤ المتناثـــر

محـــوتَ طــلاء كـاد يغشي بريقهـــا

فتاهــت ســـرورا كألحـــان الغرائـــر

وقدمتَهـــا في زيٍّ شـــاب مرونـــق

«أشاقته أخــلاق الرســوم الدواثـــر»

وقال:

كسبــت علــوم الأوليــن بحكمـــة

ونلــت علـــوم العصـــر دون تنافـــر

وقد كنـت في هــذا التلاحـــم زاهيـــا

بما شئــت من علـم عهيـد وحاضـــر

فليـس اجتـــرارا أن تصـــان شريعـــة

وليـس من التكـــرار نبــذ المناكـــر

وليـس من التقليـــد حفـــظ عقيـــدة

وليـس من التجـديد نكـــر المآثـــر

مواهبـــــه شتى ومسـعــاه واحــــد

ومقصــوده في الديـــن درء المخاطــر

فإن لـــــه في الــــدرس دور مفكــــر

وإن لـــه في العلــم دور محاضــــــر

وإن لـه في الشعــر وشْيــا منمنَمـــا

وإن لـه في النثـــر أسلـــوب شاعــر

وبالمجلس العلمـــــي أدى رسالــــة

تلقفها أهـــل النهـــيَ بالبشائـــــر

وفي حضرة السلطان تحظى دروسُــــه

بعطـف مليـك للعلــــوم ومناصـــر

ومن يَقــدُر الأعـلامَ مثـــل إمامنـــــا

وينزلهــم أعلى الـذرى والدساكـــر؟

ويرفع بيــــن العالميـــن مقامهــــم

ويدعمهم دعـم العليـم المــــؤازر؟

فلا غـرو أن تنهـــال منه فضائــــــل

وتشملهـم خيــــر اللُّهَا والذخائـــر

أدام عــــــلاه الله بين رعيــــــــة

وأبقـــاه ذخرا للورى والمعاشــــــر

وقال:

فيا شيخنا المكي واصـــلْ مساعيـا

وحـــررْ من الأوهـــام عقـــلا وبـــادر

فقـــد عـــمّ بين المسلمين تناحـــر

وليس بخـــاف عنـــك داء التناحـــر

ففي كـــل قطـــر مذهـــب وشريعـــة

وفي كـــل مصـــــر دعـــوة للتآمـــر

وهذا كتـــاب الله حُـــرِّف رسمـــــه

وأُوِّل تأويـــل البغـــيّ المهاتـــــــر

وصار حديـث المصطفى وكلامـــــه

يعبث به الفســاق فـــوق المنابـــر

تبوأتَ في (دار الحديث) مكانـــــة

وأمليت درســا في أصـــول المآثـــر

حديث رسول الله أوضحتَ نهجـــه

صحيحا وما يـــروى لنا بالتواتـــر

وأسندتَ هذا العلم في كل مرســـل

وأضعفتَ موضوعـا أتى بتوافـــــر

وعاد حديـــث المصطفى متألقـــا

وسِيمَ ثنايا الوجـه غضّ المكاســـر

ومادت أصول الدين تختال نخـــوةً

وتمـرح في وشي بهيّ المسافـــر

وخلدت بـ "التيسير" أروع صفحـــة

فوائدُه عمّـت جميـع الحواضـــر

تناقلـــت "الأمـــواج" دُرَّ بيانـــه

ففتـــق بالتفسيـر كل البصائـــر

إلى أن يقول في ختام القصيدة:

فيــا أيهــا الشيــخ الرئيـس تحيتـــي

أقدمهـــا في حلـــة المتنـــاثـــر

فليس مـرادي أن أقــول قصيـــدة

فما أنـا في فــن القريــض بشاعـــر

ولكنهـــا مني تحيـــة "خالــــص"

يزينهـــا ودّي وأوفى مشاعـــري

وفيهـــا من التكريـــم أجمـــل حلـة

أثارت شعوري واستحثت خواطـــري

وفيها من الإخـــلاص عقـــد مرصّـع

يُنيـــر من الإيمـــان قلبي وخاطـري

وقال الشاعر الأستاذ محمد بن محمد العلمي:

حـدثْ عن البحــر الخضـمّ الزاخــر ،

واذكرْ لنا الشيخ الهمام (الناصــري)

"فمحمد" أهـــل الكرامـة، والثنـــا،
والحمدِ، في البلـــد الأميـن الزاهـــر
ومكانة "المكـــي" في هـــام العـــلا،
فـوق الثريـــا، من أعـــز مفاخـــــر!
موسوعـــة طفحـت بأنـــوار الحِجى،
وتألقــــت آياتهـــــا للناظـــــــر
ومنـــارة تَهـــدِي لأقـــوم خطـــة،
وتكـــــون عونـا للشريـد الحائـر:
ما شئتَ من فقـــه، وتفسيـــر، ومـــا
يُغنِي القريحـة بالحديـــث السائـــر
تلك الأصالة في الأصول تبلـــورت،
وترصعــــت بلآلئ وجواهـــــــر
ونفائـــس الألفـــاظ عزَّ نظيرهـــــا
من صارم، عضب، صقيـــل، باتـــر!
وقال:
يا كوثـرَ العلـم الرفيـــع وشهـــده،
تَهنيك في العرفان خيـرُ كواثـــر!
إن العروبـــة كلهـــا ممنونـــة
...لك حبذا من شاعر... من ناثـــر!

والضاد أنت بقطرةٍ قاموسُها ،
تحمي حماها من دخيل قاصر
«فإذا خطبت فللمنابر هَزَّة !»
وإذا تُحاضِر كنت خير محاضر
في قوة الإقناع ، عندك حجة ،
ليس تضاهَى ، باجتلاء سرائر
آثارُك الغراء شاهدة بما
قد كان برهانا لخير مآثر
وفرائد القرآن تَسبُر غورَها
سبراً ، بوجدان البصير الساهر
يا حبذا تلك الكنوز ! وحبذا
مَن بات يرعاها بقلب عامر !
جعل الحوار مع العلوم سبيله ،
بقريحة تُذكِي فؤادَ محاور
في (المجلس العلمي) شعّ سناؤه ،
والشعب يطفح باللسان الشاكر ،
فإذا (رباط الفتح) تزهو نخوة
بالشيخ ، في الوعي الزلال الفائر
و(سلا) تنافس غيرها بوجوده ،
وتراه ينبوعا لخير وافر

ومن (الوصاية) صار يشغل مجلسـا،
يرعى الأمانـة من أعـز مصـادر[1]
(دار الحديـث) به تفتّـح قلبُهـا،
وتبـوأت عنـوان عهـد زاهـر
ووزارة الأوقـاف خلـد عندهـا
بنضالـه الراقي أجـلَّ بـوادر
سلْهـا تنبِئـك اليقيـن، فإنـه
أدى أمانتـه بحـزم نـادر
قد كان مرموقـا بأرفـع صفـوة
منها إليهـا في النبـوغ الظاهـر
إذ صار في الأقطاب نجما ساطعـا،
فهْو المتـوج بالذكـاء الباكـر[2]
مـاذا عسـاني أن أقـول لعالـم
فحل، عصامـي، قديـر ماهـر؟!
إني أتيـت وفي يميـني باقـة
من كـل بستـان، أزفُّ أزاهـري
مالـي سوى شعـري إليـك هديـة،
ورسـول وجـداني، عواطـف شاعـر

---

(1) إشارة إلى كونه عضوا في أكاديمية المملكة المغربية.

(2) يشير الشاعر إلى أنه عضو في مجلس الوصاية.

وختم القصيدة بقوله:

فاسْلَم لأمتك الكريمـــة، ولتـــدم،

نـــورا بعمـــق ضمائـــر وبصائـــر !

إنـــا نكـــرّم فيـــك عهـــدا مشرقـــا

للعلم، فالحسنى جزاء (الناصري) !

• خطاب المحتفى به الأستاذ محمد المكي الناصري:

سيادة والي صاحب الجلالة المحترم

أصحاب السعادة والفضيلة

حضرات الأساتذة الأعزاء، والإخوة الأبرار الأوفياء

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

لقد كانت ندوة التكريم التي دشنتموها بدار الحديث الحسنية منذ صبيحة الأمس، تحت رعاية معالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، والتي أبيتم إلا أن يكون مسك ختامها في مساء هذا اليوم، بقاعة الحفلات الكبرى لولاية الرباط وسلا، تحت رئاسة سيادة والي صاحب الجلالة الأستاذ عمر بنشمسي، ندوة حافلة رائعة، وجامعة مانعة، بشكل متميز جعلها فوق ما كان يُتوقَّع لها لدى منظميها والمشاركين فيها، فقد تفضلتم فسلطتم الأضواء خلالها على الشخصية التي هي موضوع التكريم، أحيانًا بشكل عام لمس جوانبها المتعددة، وأحيانًا بشكل خاص لمس بعض زواياها دون بعض، واستعرضتم أحيانًا أخرى بعض الذكريات الممتعة، التي لم يُبلها مرور الأيام، وشارك الشعر إلى جانب النثر في هذه الندوة بشكل مشرِّف للعلم والأدب معًا، فبارك الله فيكم، وأحيا بكم وعلى يدكم تقاليد الإخاء والوفاء في هذا البلد الأمين.

لقد انطبعت ندوتكم المباركة بطابع خاص، من جميل العواطف، ونبل المشاعر، وتحلت بشيء كثير من الصدق والموضوعية والإنصاف، ولا أخفي عنكم أنني -وأنا أستمع إلى عروض هذه الندوة طيلة يومين كاملين- ظللت أتساءل فيما بيني وبين نفسي مَنْ هم أصحاب الحق في هذا التكريم، وإلى مَنْ هو موجَّه في نهاية المطاف؟ وانتهيت بعد إمعان وتأمل إلى أن هذا التكريم موجَّه في الحقيقة إلى عدة جهات:

أولا: هو موجَّه إلى سيد البلاد، مؤسس دار الحديث الحسنية وراعيها الأعلى أمير المؤمنين الحسن الثاني، الذي نادى بالبعث الإسلامي بمجرد جلوسه على العرش، والذي أتبع القول بالعمل، فأنشأ دار الحديث الحسنية للحفاظ على الصُّبابة الباقية من معالم الثقافة الإسلامية، وتداركها قبل أن تدخل في غيبوبة الاحتضار، ويكفي أن نتذكر وضع الجامعة المغربية قبل إنشاء دار الحديث الحسنية ثم وضعها بعد ذلك، حيث أصبح للثقافة الإسلامية فيها منبر ولسان، ونفوذ وسلطان، وأصبحت معاقلها مؤطرة بخريجي هذه الدار في أغلب الأحيان، وتعزَّز ذلك كله بمجموع الدراسات الإسلامية القيمة التي أنجزت على يد أولئك الخريجين، والواقع أن دار الحديث الحسنية هي التي هيأت المُناخ الصالح لإحياء الثقافة الإسلامية، ونشر الوعي الإسلامي، وتجديد التقاليد العلمية المغربية، وتكريم حَمَلَة العلم الشريف.

ثانياً: هو موجَّه إلى الفكرة السليمة التي أوحت لجمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية، بأن ينطلقوا في إعداد هذه الندوة من مفهوم إنساني وحضاري عام، لا يطبعه طابع عصبية ولا حزبية، حيث فكروا في الوفاء لمجموعة من الأساتذة أجمعت على خدمة رسالة دار

البعث، رغمًا عن اختلاف اتجاهاتها ونزعاتها، ونظروا إلى الجوانب الإيجابية التي ساهم بها أولئك الأساتذة في خدمة هذا الجيل وأداء تلك الرسالة، دون أن يُسقِطوا من القائمة فريقًا على حساب فريق، وهنا أحيِّي ذكرى كافة الزملاء أساتذة الدار الراحلين: الأستاذ علال الفاسي، والأستاذ الرحالي الفاروق، والأستاذ حسن الزهراوي، والأستاذ العباس الأمراني، والأستاذ جواد الصقلي، والأستاذ العابد الفاسي، والأستاذ عبد الواحد العلوي، والأستاذ عبد الرحمن الغريسي، والأستاذ الناصر الكتاني، والقاضي العبادي، والأستاذ عمر المعداني، والأستاذ التهامي الوزاني، والأستاذ محمد بن تاويت الطنجي، والمدير الأول لدار الحديث الحسنية الأستاذ خليل الورزازي، تغمّدهم الله جميعا برحمته الواسعة وأسكنهم فسيح جناته.

ثالثًا: هو موجَّه إلى نخبة العلماء والشعراء والأساتذة الجامعيين والأكاديميين ورجال الفكر والتاريخ الذين استجابوا لدعوة الخريجين، فتباروا في هذه الندوة المباركة، وساهموا فيها مساهمة رائعة، بتلقائية وكرم نفس، وكرَّسوا من ثمين وقتهم، وعصارة فكرهم، وجميل عواطفهم، قسطًا غير قليل، للتأمل في حياة مواطن من مواطنيهم لم يبخل على وطنه بتضحية، ولا على دينه بجهد، فتحدثوا عن حياته، موضِّحين كثيرًا من معالمها، وجملة من مراحلها، بكامل النزاهة الفكرية، والأمانة التاريخية، دون أن يبخَسوا حقه بجانب حقوق الآخرين، بل اعتبروا حياته وحياة جميع نظرائه عبارة عن "بستان" فيه من الزهور أصناف وألوان، لكل زهرة شذاها الطيب ولونها الجذاب، الذي تستحق به حظها من الإعجاب، وبذلك ضربوا المثل لغيرهم في التزام النزاهة والإنصاف، عملا بالمثل القائل: «الإنصاف من شيم الأشراف».

رابعاً: هو موجَّه من الناحية الثقافية والتربوية إلى البيئة الأولى التي احتضنتنا، والميراث الأدبي والتاريخي الذي ورثناه، ثم إلى شيوخنا الذين سبقونا بالإيمان، والذين لسنا إلا فرعًا من شجرتهم الطيبة الوارفة الظلال، وحَبَّة من سنابلهم المعطاء، أولئك الشيوخ الذين تلقينا عنهم ما أفاء الله به من العلم، وتربينا بين أيديهم وفي حلقات مجالسهم على التأدب بآداب العلماء، وتعلمنا منهم كيف يجب أن يكون العالِم في نعته وسَمته، ومظهره ومخْبَرِه، ولولا ما بذلوه لنا من علم، عن كرم وسخاء وأريحية، وما أوحت به إلينا حياتهم اليومية من سلوك قويم وقدوة حسنة، وما فتحوا في وجوهنا من عوالم المعرفة والتربية والأخلاق، لما كان في الإمكان أن يوجد أحد منا على الصفة التي عرفه الناس عليها، وقدَّروه من أجلها، ولما أصبحنا مؤهلين لخوض المعركة التي خاضتها بلادنا دينيا وعلميا ووطنيًا، ولما كان لهذا التكريم أيّ داع ولا مبرر.

خامساً: هو مُوجَّه من الناحية الوطنية إلى جميع رفاقنا الأعزاء، الذين اشتركوا معنا في وضع الأسس الثابتة للحركة الوطنية، والذين عملوا معنا جنبًا إلى جنب، وفي حالتَي البعد والقرب، عندما كنا كتلة واحدة في الجنوب والشمال قبل نشأة الأحزاب، ثم خضنا معهم حَلَبة السباق في خدمة الشعب والعرش، عندما أصبح كل منا يعمل في عرينه المستقل، طبقًا لاجتهاده الخاص، إلى أن اجتمعنا وإياهم في صعيد واحد وتحت لواء واحد، عندما دقت ساعة الخطر بالشمال، في نطاق (الجبهة القومية للحركة الوطنية) التي انطلقت من تطوان، وعندما دقت ساعة الخطر بالجنوب، في نطاق (الجبهة الوطنية لأحزاب المغرب الأربعة) التي انطلقت من طنجة، وأخص بالذكر رفاقنا الذين انتقلوا إلى رحمة الله،

وفي طليعتهم الأستاذ عبد الخالق الطريس، والأستاذ محمد بن الحسن الوزاني، بالإضافة إلى الأستاذ علال الفاسي الذي عمل معنا بصفته زعيمًا وطنيًا، وأستاذًا جامعيًا.

سادساً: هو مُوجَّه من الناحية العملية إلى تلك الشخصيات الكريمة، التي لقيت ربها، بعد أن قدمت العون الأدبي والمادي المستمر للحركة الوطنية والثقافية، بوحي من ضميرها الحيّ، وشعورها الوطني العميق، فساهمت بحظ وافر في تمويل مشاريعنا، وإمداد حركتنا في البوادي والحواضر، أمثال عائلة بلكورة بالرباط (الحاج بوبكر والحاج محمد والحاج أحمد) وعائلة البحراوي بنفس المدينة: (الحاج محمد وسيدي ادريس) وعائلات الرزيني والمريبطو وابن عبود من أعيان تطوان، وعائلات ابن كيران والقباج والصنهاجي من أعيان تجار مليلية الذين انتقلوا منها إلى تطوان، ولا بد من كشف النقاب في هذا المقام عن مساعدات رجال القصر والمشور الخليفي، (أمثال السيد أحمد بن البشير الهسكوري، والسادة محمد ابن موسى ومحمد أفيلال ومحمد بن المكي بن ريسون من وزراء سمو الخليفة، الذين اتخذوه قدوة لهم في هذا الميدان رحمهم الله جميعًا).

سابعاً: هو مُوجَّه من ناحية النضال والكفاح إلى أولئك الوطنيين الأحرار، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، والذين لولا مساندتهم لنا ووقوفهم بجانبنا في الشدائد والأزمات للتغلب على العقبات، ولولا تحملهم معنا لجميع التضحيات ماديًا وإداريًا، وسياسيًا، لَمَا أمكن لحركتنا نجاح ولا صمود، وفي طليعتهم عميد الحركة الوطنية بطنجة السيد الحاج المختار أحرضان، الذي كان مضرب الأمثال في الشهامة

والإباء، والإخلاص للدين والوطن، والتمسك بالمبدإ، والثبات على العهد، والتضحية بالنفس والنفيس، إلى أن لقي ربه راضيًا مرضيًا، فشيعته طنجة إلى مثواه الأخير في موكب رهيب ومهيب، وزميله السيد محمد العربي الزكاري الذي تعرض معه للنفي من طنجة واستقر مثله بتطوان، فعمل في صحافة الوحدة المغربية منذ نشأتها كاتبًا ومحررًا، وكانت مقالاته تلهب بسياطها دهاقنة الاستعمار، وتثير مضايقاتهم له في كل حين، وعمل في معهد مولاي المهدي بتطوان وطنجة مديرًا، وعمل في المركز العام للوحدة المغربية وكيلاً ورئيسًا، وكان طيلة قيامه بهذه المهام مثال التفاني والصدق والإخلاص والتضحية، ومثلهما إخوانهما الطنجيون السادة: المختار الحاج ناصر، والتهامي الفلوس، ومحمد الزيدي، حيث كان الأول رئيس تحرير جريدة "صوت المغرب" التي أصدرتها الوحدة المغربية في طنجة باللغة الفرنسية، تعزيزا لأختها "الوحدة المغربية" التي كانت تصدر بتطوان، فكان "لصوت المغرب" فضل كبير في تعريف الأجانب بحقيقة الحركة الوطنية والدفاع عنها ضد هجمات الاستعمار، وفي التعريف بجوهر القضية المغربية لمختلف الأوساط الأجنبية والمحافل الدولية، وقد تعرض هذا الكاتب الوطني الشجاع للنفي من مسقط رأسه بطنجة من أجل ذلك عدة مرات، لِما كانت تحدثه حملاتُه القوية، ومقالاته البليغة لسانا وبيانا، وحجة وبرهانا، من أثر بالغ في الأوساط الفرنسية والإسبانية، وكان له ولشقيقه الوطني الغيور السيد عبد الله الحاج ناصر مساهمة مالية مهمة من أجل اقتناء مطبعة خاصة تطبع بها جريدة "صوت المغرب" بعد أن امتنعت المطابع الأجنبية بطنجة عن طبعها، وذلك على غرار المساهمات المالية

الأخرى التي قدمها مدير "صوت المغرب" المرحوم الحاج المختار أحرضان، وعدد آخر من الإخوان، أما الثاني والثالث فقد تحمل كلٌّ منهما في نطاق الوحدة المغربية مسؤوليات متعددة بكل كفاءة وشجاعة وذكاء: مسؤولية ثقافية وتربوية في معهد مولاي المهدي بتطوان وفرعه بطنجة، ومسؤوليات أدبية وصحافية بالخصوص في جريدة "منبر الشعب" وجريدة "الشعب" اليوميتين اللتين أصدرتهما الوحدة المغربية باللغة العربية في طنجة، وكانتا لسان حال الناطق باسمها، ومسؤوليات سياسية وإدارية في مركزها العام، حيث قاما إلى جانب رئيس المركز المرحوم الحاج المختار أحرضان، في أدق الظروف وأحرجها، بدور مهم وخطير، في التعبير عن مواقف الوحدة المغربية بكل شجاعة وصراحة، ضد الخطة الاستعمارية التي كشفت القناع عن وجهها، واستهدفت القضاء على المغرب عرشًا وشعبًا، وفي القيام بتزويد مراسلي الإذاعات ووكالات الأخبار الأجنبية، بحقيقة المواقف الوطنية في أحداث الساعة، طبقًا لمبادئ الوحدة المغربية العامة، ووفقًا للتوجيهات والتعليمات التي يتلقونها من رئاسة الحزب، بعدما أصبح رئيسه منفيًا من جميع المناطق المغربية، ومقيمًا في الخارج، يتنقل في مختلف الأقطار للدفاع عن كرامة العرش ورفع العدوان الأثيم الذي تعرض له، والمطالبة بعودة الوحدة المغربية وحرية الشعب المغربي إلى سابق عهدها، وذلك منذ سنة 1952 إلى أن عاد محرر الوطن المغفور له محمد الخامس إلى عرشه وشعبه ظافرا منتصرا، فلهؤلاء المناضلين وبقية رفاقه الأوفياء من أعضاء المركز العام وأعضاء الفروع بمختلف مناطق المغرب، الأحياء منهم والأموات، حظ وافر مما يتضمنه هذا التكريم من تنويه وثناء.

ثامناً: هو مُوجَّه في نفس الوقت إلى أولئك الشبان الأبرار الذين التحقوا في مستهل حياتهم بالحركة الوطنية عاملين مخلصين، وجنوداً مكافحين، فكانوا لها أكبر مَدد، ولوطنهم أعظم سَند، والذين لولا حماسهم واندفاعهم، ولولا مظاهراتهم ومهرجاناتهم، ولولا نداءاتهم وهتافاتهم، لما أزعجنا المستعمر، ولما شقت حركتنا طريقها إلى الأمام، لتسير من وراء مولانا الإمام، وهنا أحيي تحية خاصة أولئك الشبان الأبرار وممثليهم الأوفياء في هذه الندوة المباركة، وسيكون لهم ولجميع العاملين المخلصين لسانُ صدق في الآخرين، عندما يصدر تاريخ الحركة الوطنية التي تربَّوا في أحضانها، وكانوا من أعمدتها وأركانها.

حضرات السادة:

إن هذا التكريم مُوجَّه بصفة دائمة ومستمرة إلى جملة من القِيم الروحية والفكرية شاءت الأقدار أن تبرز على يد أخيكم كما برزت على يد غيره، وأن تتبلور في عدد من المنجزات والمشاريع التي عمل على تأسيسها، وكان له شرف تسييرها، وأن تكون الرائد الأسمى والموجه الأول والأخير لتصرفاته وتصرفات رفاقه في الحياة الخاصة والعامة، وقد ألهمَنا الحق سبحانه وتعالى أن نكون أحد الألسنة الناطقة بها والمدافعة عنها، وأن نتحمل التضحية في سبيلها بالنفس والنفيس، حتى تمكنت ورسخت في النفوس، وأصبحت ميراثًا قوميًا لجميع المواطنين.

ومجمل القول أن هذا التكريم في البداية والنهاية، إنما هو تكريم للقيم المقدسة، التي استطاع المغرب بفضلها أن يصمد في وجه الزوابع، وأن يتحدى جميع الخصوم، وأن يحافظ على وحدته وانسجامه ووئام أبنائه: قِيَم التعلق بالوطن، والتمسك بالعروبة، والاعتزاز بالإسلام، والولاء الدائم

للعرش الخالد، الرائد والقائد، فالتكريم إذن ليس لشخص بعينه، بل هو تكريم معنوي أدبي روحي لمفاهيم خالدة، ومبادئ ثابتة، يلزم أن تستمر حية في القلوب يتناولها الخَلف عن السلف جيلاً بعد جيل، حتى تبقى هذه الأمة معصومة من الضلال، موحدة العقيدة، موحدة الكلمة، مجموعة الشمل، تحت راية العرش العلوي الشريف، حصنًا حصينًا للعروبة والإسلام إلى يوم الدين، أما هذا الشخص الماثل أمامكم وكل الأشخاص، فَهْوَ وهُم إلى فناء وزوال، والدوام والبقاء لله (كل من عليها فان ويبقى وجه ربه ذو الجلال والإكرام).

أصحاب الفضيلة العلماء خريجي دار الحديث الحسنية.

إن دار الحديث الحسنية أمانة في أعناقكم، ووديعة بين أيديكم، ائتمنكم عليها أمير المؤمنين، فكونوا أوفياء له ولها، وكونوا حريصين على توسيع دائرة إشعاعها، عاملين على تأطير الحركة الإسلامية داخل الجامعات المغربية وخارجها، ناشرين طرائف الثقافة الإسلامية، وكاشفين الستار عن كنوزها، لا تناموا على ما وصلتم إليه من العلم، فازدادوا كل يوم علمًا، لا تقتصروا على تخصصكم، فوسعوا دائرة معارفكم في كل الميادين.

إن مهمة عالِم اليوم أصعب من مهمة عالِم الأمس، وإن مهمة عالِم الغد أصعب من مهمة عالِم اليوم.

فعليكم بمواصلة البحث والدرس، والمشاركة في مختلف مجالات الفكر، حتى تستطيعوا أن تتحدثوا إلى كل فئة بلسانها، ومن منطلق تخصصها، وافتحوا جميع النوافذ، وأزيلوا كافة الحُجُب التي تحول دون وصول المَدِّ الإسلامي إلى كل مكان، ولا تقتصروا على جمع المعلومات

وهضمها، واعملوا على أن تكونوا "مبتكرين" تضيفون إلى علم السابقين علمًا جديدًا، وتسلطون على جوانب الثقافة الإسلامية أضواء جديدة كاشِفة، بلغة الوقت وأسلوب العصر.

حضرات العلماء خريجي دار الحديث الحسنية،

لا تنسوا أن الأمة تنتظر من علمائها أن يكونوا قدوة لها في كل خير، فحافظوا على سَمت العلماء، وتمسكوا بتقاليدهم الخيِّرة، وكونوا مصابيح لها في الدُّجَى، وطلائع في موكب النهضة، ولا تساوموا بمقدسات الإسلام، بل اثبتوا عليها، وكافحوا من أجلها، وتطلعوا بكامل الوعي والانتباه إلى ما يدور حولكم من تيارات معادية: تيارات المادية والإلحاد والصهيونية والصليبية، واعملوا على محاصرة تلك التيارات حتى لا تتجذر في هذه البلاد، فالمغرب بلد "الحرية"، وحرية المغرب يسيل لها لُعابُ كافة الخصوم والأعداء، فكونوا لهم بالمرصاد، وتعاونوا مع جميع العناصر الخيِّرة في مختلف كليات الجامعات المغربية، ومع جميع المواطنين الأخيار الملتزمين بالإسلام، ولا تَعزِلوا أنفسكم عن الفئات الأخرى، فإن كثيرًا من سوء التفاهم وسوء الظن يزول بجلسة أو جلستين يتبادل فيها المتحدثون أطراف الحديث بصفاء سريرة، ونقاء ضمير، ونزاهة فكر، واعملوا على رفع كل حاجز يحول بين التعرف على الثقافة الإسلامية والثقافة الحديثة، حبِّبوا الثقافة الإسلامية إلى ناشئة البلاد، وقرِّبوهم منها وإليها، وشجعوهم على الارتواء من معينها، وكُونوا بهم رفقاء، ولهم نصحاء، واذكروا دائمًا وصية مجد الدين الفيروزبادي للعلماء والطلاب في مقدمة كتابه "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز"، عندما قال: «إن للعلم عَرْفًا يَنُمّ على صاحبه، ونورًا يُرشد إليه،

وضياء يُشرق عليه، فحامل المسك لا تخفى روائحه: مُعظَّمٌ عند النفوس الخيرة، محبَّب إلى العقلاء، وجيهٌ عند ذوي الوجوه، تتلقى القلوب أقواله وأفعاله بالقبول، ومن لم تظهر عليه أمارات علمه فهو ذو بطالة لا صاحب إخلاص»[1] قال تعالى: «**ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً، ولكن الله يزكي من يشاء**»[2]، وقال تعالى: «**ولول فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا**»[3]، وقال تعالى: «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا، هو خير مما يجمعون»[4].

هذه وصيتي إليكم أوصيكم بها ابتغاء وجه الله، عسى أن نلقى بها الله، فكونوا أوفياء لها، متمسكين بها، بارك الله فيكم، ونفع الأمة بجهودكم، وشكرًا لجمعيتكم، وللسادة المشاركين في ندوتكم، وشكرًا لسعادة مدير دار الحديث الحسنية، ولمعالي وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، وسيادة والي ولاية الرباط وسلا، وأخيرا أستودعكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله.

● لمحات من حياته:

اسمه: محمد المكي الناصري، ونسب عائلته (بنو ناصر) وهم مشهورون في تاريخ المغرب بالعلم والمعرفة وخدمة الصالح العام.

ولد في الرباط عاصمة المملكة المغربية يوم 24 شوال عام 1324هـ الموافق لـ 11 سنة 1906. أنهى دراسته الابتدائية سنة 1918، وأنهى دراسته المتوسطة والثانوية سنة 1926، وأنهى دراسته الجامعية سنة 1932.

---

(1) الجزء الأول، الصفحة 54.
(2) (النور/ 21).
(3) (النساء/ 83).
(4) (يونس/ 58).

إلى جانب دراسته الواسعة للثقافة الإسلامية العربية وتخصصه فيها درس فروع الفلسفة والاجتماع بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وعلوم التربية بكلية الآداب جامعة باريس، ومادة القانون الدستوري، والقانون الدولي العام، بكلية الحقوق جامعة جنيف.

من أشهر أساتذته بالمغرب: أبو شعيب الدكالي، والمدني ابن الحسني، والحاج محمد الناصري، ومحمد السائح.

ومن أشهر أساتذته بالمشرق العربي: مصطفى عبد الرازق ومنصور فهمي، وطه حسين، وأحمد أمين، وعبد الحميد العبّادي وعبد الوهاب عزام، ويوسف كرم.

ومن أشهر أساتذته الغربيين: المستشرقان الإيطاليان فللينو، وجوندي، والمستشرقان الألمانيان: ليتهان وبرجستراسر، والفيلسوف الفرنسي: أندري لالاند.

أما وجوه نشاطه، والمجالس والهيئات التي عمل فيها فأكثر من أن تستقصى، وأوسع من أن يتسع لها هذا المقام!

وأما مؤلفاته فتشهد المكتبات بوفرتها وإقبال هواة العلم وعشاق المعرفة عليها، نذكر منها:

- التيسير في أحاديث التفسير (طبع بلبنان في ستة مجلدات).
- مبادئ القانون الإداري في الإسلام.
- نظام الحقوق في الإسلام.
- منهاج الحكم في الإسلام.
- الحضارة الإسلامية.
- كيف نجدد رسالة الإسلام.
- تاريخ التشريع الإسلامي.

وكانت لي علاقة طيبة عميقة بالعلامة محمد المكي الناصري أعتزّ بها على الدوام، وأذكرها بالثناء والتمجيد، ذلك أنني كنت مسؤولا عن الإعلام لثورتنا التحريرية بليبيا سنوات 1958 – 1962، وعندما جاء إلى ليبيا سفيرا للمغرب الشقيق في شهر يناير سنة 1961 أقام مأدبة عشاء للتعارف حضرها سفراء البلدان العربية والإسلامية ودعاني، ودعا رئيس البعثة الجزائرية آنذاك المرحوم أحمد بودا، وكانت المكالمة الهاتفية الداعية بيني وبينه استمرت طويلا فكأنه كان يتحدث إلى صديق توثقت بينه وبينه عرى المودة والإخاء وانمحت بينهما التكاليف، وأذكر أنه كشف لي عن إعجابه بتعليق سياسي كنت قدمته قبل ذلك اليوم على أمواج الأثير عما تشيعه أبواق الاستعمار الفرنسي من أن هناك تصدعا في صفوف جبهة التحرير الوطني!

وكانت المأدبة فاخرة كان الشيخ واسطة العقد فيها يدير الحديث في أدب ولطف ويسرع في مهارة إلى اقتناص مناسبات تليق بالمقام، ويتفنن في طرح قضايا الساعة التي تشغل الأذهان، وكان كلما توغل الدبلوماسيون في قضية ما، وتشعبت فيها آراؤهم حوَّل الحديث بلباقة إلى قضية الجزائر، وقال أنها قضية العرب والمسلمين، ففيها يجدر الكلام، وفيها يطيب، ويلذ!

وإذا كنتُ قد عرفتُ مكانةَ المكي الناصري العلمية قبل ذلك اليوم من خلال ما كنت أقرأه، فإنني عرفت في هذا اللقاء الدبلوماسي، سموَّ ذوقه، ودقة شعوره، وعلو حديثه، ولباقته في إدارة الكلام ولمِّ أطرافه عند تشعبه!

وعند انتثار العقد ولم يبق سوانا ننتظر سيارة البعثة، أفضى إلينا بحديث قلبه، وفيض وجدانه، وقال يسعدني أن نتعاون في هذا البلد

التاريخي على صالح البلدين الشقيقين: الجزائر والمغرب، واعتبروني واحدا منكم، ولا تترددوا في شيء تريدون أن أساعد به الثورة، فإن خدمتها واجب مقدس، يفرضه الإسلام والتاريخ والجوار، وهو في نفس الوقت شرف لا يضاهيه شرف.

ومع أن المعروف عن مختلف السفارات العربية والإسلامية في مختلف أنحاء العالم، خدمة ثورتنا التحريرية بلا حدود مع التفاوت - طبعا- بينها، نتيجة الظروف والإمكانات والقرب من الجزائر والبعد عنها، فإن العالم الدبلوماسي الشيخ المكي الناصري كان يشفع هذه الخدمة بزيارته إلى إدارة البعثة، ويهتف إلينا من حين لآخر للاطمئنان على مسيرة الثورة.

وتوطدت عروة المودة والإخاء بيني وبين العلامة المكي، وتبادلنا إهداء المنتوج الفكري، وكان إذا أهديته كتابا عن ثورتنا التحريرية، تقبله في ابتهاج وقال: هذا جهاد آخر ستتضاعف أهميته بعد الثورة في عهد الجهاد الأكبر!

وانقطعت صلتي بالشيخ معايشة ولكنها لم تنقطع روحيا، فقد كنت أتابع نشاطه العلمي والفكري كعرضه لموقف الإسلام في المؤتمر العالمي لزرع الأعضاء الذي انعقد بمدريد سنة 1969، وعرضه لموقف الإسلام في الرياضة في المؤتمر العالمي للرياضة المنعقد بمدينة ميونيخ 1972، وعرضه لبحث أكاديمي هام عن السيرة النبوية في المؤتمر الدولي الذي دعت إليه جامعة الأزهر بالقاهرة في شهر نوفمبر 1984 بعنوان (رسالة القرآن في عصر العلم) وعروض أخرى كثيرة تنم كلها عن جهاده المتواصل، وبعد نظره، وعمق فكره في الأعمال الفكرية التي يعالجها!

وفي شهر رجب 1410 هـ الموافق فبراير سنة 1990 عقدت أيام دراسية بطنجة عن شخصية وفكر العلامة الشيخ عبد الله كنون حضرتها موفدا من قبل وزارة الشؤون الدينية، وكانت فرصة ثمينة التقيت فيها رجال الفكر والأدب بالمغرب، وفي مقدمتهم الأستاذ المكي الناصري، وقد استعدنا ذكريات جميلة عن ماضينا بليبيا، وكنا خلال ثلاثة أيام لا نفتأ نتذاكر في قضايا تاريخية وأدبية، وكان -كما ألفناه وعهدناه- معينا لا ينضب ومحدثا يتخير اللفظ، والمعنى، ولا أنسى كلماته الرقيقة اللطيفة وهو يعبر لي عن أسفه لعدم تمكنه من الاستماع إلى محاضرتي، وأثنى عليها الثناء الجم، وذكر لي بعض محتوياتها كما حدثه عنها بعض من حضرها.

ولا أنسى بالخصوص مجلسنا في فناء منزل الشيخ عبد الله كنون في اليوم الأخير من أيام الندوة بعد تناول الغداء، وقد ضم نخبة من رجال الفكر والأدب في مقدمتهم الشيخ المكي، وقد جرت في هذا المجلس أحاديث شيقة ممتعة في الأدب والتاريخ والفكر الإسلامي، وأذكر من تلك الموضوعات التي شغلت أفكارنا وألسنتنا قرابة ساعتين هذه:

أولا: "الشجاعة الأدبية" التي هي شدة القلب، وقوة النفس عند البأس، وهي ضرب من الصبر، ويشترط فيها أن تستعمل معها الرؤية وصدق النظر. وقياس الأسباب والنتائج، ليلا يقدم صاحبها على عمل ثم يرى خطأه، فيفشل، وقد استعرضنا طائفة ممن اشتهروا بهذا النوع من الشجاعة في المغرب الكبير قديما وحديثا!

ثانيا: "الأمير شكيب أرسلان" اشتهر بالنثر، وقلمه فيه بليغ يثمر أشهى الثمر حتى لقب برسول البيان، ولم يعرف أنه شاعر، وذكر الأستاذ المكي أنه شاعر، وأنه إذا تصدّى له بلغ القمة فيه، ومما ذكره عنه أنه نظم قصيدا

في احتفال الهلال الأحمر بالقاهرة سنة 1912م اهتزت له أرجاء القاعة وكان من الشعراء الذين ساهموا في هذا الحفل أمير الشعراء شوقي وخليل مطران. وعرض من هذا القصيد أبياتا منها هذا البيت:

ولو أنصف الأقوام في حقهم رأوا   مواساتهم فرضا على كل آدمي

ثالثا: "قيمة الكلام" للقول في حياة العرب مكانة فة ووزن عظيم، لأن القول والتفكير والعمل أمور متلازمة في الحياة العربية، ولذا اعتبر زهير القول أحد شطري الإنسان:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحم والدّم

واعتبر مالك بن سلمة العبسي الصمت سترا للعيّ.

وتطرقنا في حوارنا -في ظل هذه الفكرة- إلى قوله تعالى: «الرحمن علَّم القرآن، خلق الإنسان، علَّمه البيان».

رابعا: "التيسير في أحاديث التفسير"، وهذا عنوان تفسير الأستاذ المكي الناصري، سأله عنه أحد الحاضرين فذكر له أنه أصدره بلبنان في ستة مجلدات، وتحدث عن طريقته فيه، وعن المدة التي استغرقها في إنجازه، وهنا سأله أستاذ مغربي عما أنجرّ له من هذا الجهد الكبير، من الفوائد المادية، وكانت الكيفية التي قدم بها السؤال توحي باعتقاد السائل أن المؤلف قد خسر في طبعه، وربما تحمل الديون من أجله، فقال الأستاذ المكي في لهجة الواثق: إن للقرآن الكريم - يا بنيّ- بركة لا يستطيع تصورها إلا من تعامل معه، مهما فكرت فإنك لا تقدر أن تتصور ما انجرّ لي وراءه من الربح المادي، أمّا الربح المعنوي فأمره عند الله.. نرجو أن يكون كاملا غير منقوص، قال هذا أو ما هذا مؤداه: ثم سألني عن رأيي في الموضوع، فقلت له: لقد أصدرت عدة كتب، ولم أكن أنتظر

الأرباح المادية من ورائها بقدر ما كنت أنتظر الربح المعنوي منها. ولكني مع ذلك أعترف أن ما ربحت منها ماديا نصيب محترم، حسبكم أنني أنشأت به أسرة، وعلّمت أولادا، وبنيت دارا، واقتنيت سيارة، وكوّنت مكتبة، وعشت عيشا رغدا، ولله الحمد والمنة[1]!!

صحيح أن مردود التأليف بالنسبة إلى البلدان الأوروبية وبعض البلدان الشرقية قليل، ولكنه مع التدبير وحسن التصرف كثير..

وهنا تدخل أحد الأساتذة وقال: ومع هذا أعتقد جازما أنكم في قرارة أنفسكم غير راضين بوضع المؤلفين عندنا، فإن ما أخذتموه أنتم عن كل كتبكم لا يبلغ ما تأخذه المغنية عن حفلة واحدة، أو ملاكم، أو لاعب كرة عن مقابلة!!!

هذه الجلسة الممتعة هي آخر عهدي بالأستاذ المكي الناصري ثم كانت خاتمة حياته الحافلة بجلائل الأعمال العلمية والأدبية في سنة 1996م -رحمه الله-.

• من وحي تكريم الشيخ الناصري:

يثير انتباهنا -ونحن نقرأ ما قيل في الشيخ الناصري من النثر والشعر- ذلك الوفاء الذي تنبض به كل كلمة وكل جملة وكل تركيب، فكأننا بالخطباء والشعراء يشعرون من أعماقهم أن كل كلام يقال في المحتفى به هو دون الغرض المطلوب، ومن ثمَّ فهم يتمنون لو أن القلوب تنكشف لتُرى على ما هي عليه من المحبة والإخلاص، والوفاء والتقدير نحو هذا الرجل المحتفى به!

---

(1) أعني بهذا ما انجرّ لي من الحقوق المادية بالفكر والقلم في مختلف المجالات: الكتب، الإاعة، التلفزة، الصحف والمجلات.

والذي جعل الخطباء والشعراء، في هذا الوضع وارتفع بهم إلى هذا المستوى هو تاريخ هذا الرجل الحافل بجلائل الأعمال، التي كانت من ثمار الإيمان والعقيدة، والصدق والوفاء، والإيمان، والصدق والوفاء، قوة من الله، فيها الحب والإيثار، وفيها التفاني والتضحية، وفيها الشجاعة التي لا تبالي العدد، ولا ترهب السلاح، ولا تبالي بالمخاطر والمهالك!

ومن هنا كان جهاد المكي الناصري المتواصل في مختلف المجالات، وكان وفاء الخطباء والشعراء له، كما كان وفاؤه لدينه ووطنه ولغته!

وهكذا فليكن التكريم حتى لا يكون صورةً جوفاء باهتة توحي أن الإنسان بمظهره لا بجوهره، بجهله لا بعلمه! بغيره لا بذاته، كما دلّت على ذلك صورٌ من التكريم في هذا العصر!

الجوائز الأدبية

- تمهيـد
- عودة إلى الجوائز الأدبية
- جائزة نوبل
- قائمة بأسماء بعض الذين حصلوا على جائزة نوبل
- بين الأدب والسياسة

الجوائــز الأدبيــة

تمهيــد:

هناك نوع من التكريم يتمثل في الجوائز التي يعلَن عنها، وترصد للناجح في علم، أو أدب، أو اختراع أو اكتشاف، وسواء أكانت هذه الجوائز مادية أو أدبية، فهي أيضا -كأنواع التكريم الأخرى- خير مشحّذ لأذهان الكتاب والشعراء، والعلماء-، وأهمٌ مثير لقرائحهم، ومقوّ لعزائمهم، ومفجر لطاقاتهم المعنوية!

ومنحُ الجائزة للجدير بها تُشعره بمكانته في المجتمع ومن خلال ذلك وضمنه تلفت الأنظار إلى أنه ذو إرادة قوية، وعزيمة صادقة، وأنه يعيش لغيره بما ينجزه من أعمال فكرية، وبرغبته في الإفادة والنفع، وأنه بكل هذه المعاني والقيم ليس شخصًا عاديا، بل هو إنسان جدير بأن يكون قدوة يحتذى، ومنارة يستضاء بها في الحياة.

والتكريم بالجوائز معروف في مختلف البلدان الأروبية والعربية والإسلامية، فمن حين لآخر تقرأ في صحيفة أو مجلة، أو تسمع من إذاعة إعلانا عن مسابقة علمية أو أدبية فيتبارى الراغبون فيها ويتنافسون بمحصولهم الفكري والقلمي، كل يحرص على أن يكون الفارس المجلّى، الذي ينتزع الجائزة.

وجاء في افتتاحية مقال عن الجوائز الأدبية نشرته مجلة (الهلال) في أبريل سنة 1922 ما يلي:

«ما أشقى حياة الأديب في الشرق، وما أقل المكافأة التي ينالها مقابل كده وتعبه، وإذا كان الغربيون قد أدركوا فائدة الجوائز الأدبية من حيث

تشجيعها للأدباء، فإن حاجتنا إليها أشد وأعظم من حاجتهم، فحبذا يوم يدرك فيه أغنياؤنا هذه الحقيقة، ويهبون مما وهبهم الله ما يخلد اسمهم ويقوم لأبناء لغتهم بخدمة من أجل الخدم».

ولولا أنني أخشى أن أُتَّهم بالمبالغة وإلقاء الكلام على عواهنه، لقلت إن أهون الناس على الناس، حتى في هذا العصر العلمي المتميز، في مختلف البلدان العربية والإسلامية -وخاصة في الجزائر- هم هؤلاء: الأديب، الشاعر، العالم!

قد يُذكَر هؤلاء في المجالس بالحفاوة والتقدير، وتصاغ لهم في حضورهم عبارات فخمة جذّابة تُسيل لعاب الغُمّر، وتهز أعطاف الجاهل، ولكن أن يتحول هذا التقدير النظري إلى التقدير العملي، والكلام إلى الفعل بأن يقف ذوُو الثروات إلى جانبهم، ويشجعوهم ويكافئوهم، فهذا ما لا يفكر فيه هؤلاء ولا يخطر على بالهم، ولا يحبون أو لا يستطيعون أن يضعوا أنفسهم في طريقه لأنه طريق إلى الحياة وهم أموات، وطريق إلى الأفق الأعلى وهم هواة الأرض، وعبيد الدينار.

شتَّان بين الدارِ تبسط ظلمة والدارِ فيها تسطع الأنوار

وإذا كان هناك من يخترق هذا الوضع مرةً في عمر نوح فيقف بجانب الأديب أو العالم بماله، فإنه لا يبلغ أن يكون دليلا على أن أهل الثروات يدركون قيمة أهل العلم والأدب، ويشعرون الانتماء إليهم، والسير على طريقهم، والوقوف بجانبهم، بشيء من العظمة، أو السموّ والشرف لأنهم خدموا أغلى ما في الإنسان هو الفكر والوجدان، وشاركوا صناع البيان، وبناة المجد الصحيح، اهتمامهم وجهادهم وتضحيتهم!

إن الكتابة صناعة قد تكون مصدرًا للرزق، وقد تكون مصدرا للغنى، ولكن ضحاياها أكثر من ضحايا المهن والصناعات المختلفة، وإذا كنت - قارئي الكريم- تسمع أسماء خمسة أو عشرة من الكتاب والشعراء يكسبون مالا وافرا بأفكارهم وأقلامهم، فلتعلم أن بجانبهم مئات وآلاف لا ينالون عيشهم إلا بعناء وتعب ومن مصدر آخر غير الكتابة!

إن الأديب أو العالِم المؤلف في بلدِنا -الجزائر- مَثَلاً يجمعُ إلى أدبه وعلمه، وضعَ المؤلفات، ومراقبة طبعها، وتصحيح مسوداتها، وربَّما يتولى الإنفاق عليها من جيبه، وبيعَها في المكتبات العامة، والسَّعي للإعلان عنها، ثم قلَّما يسترد مصاريف هذه المطبوعات إلا إذا عرف كيف يُرضي الجمهور، أو نال شهرة في عالم التأليف والنشر!

ويلاحَظ بجانب هذا أن أصدقاءالكاتب أو المؤلف وزملاءه في العمل أو في المهنة، عوَض أن يشجعوه ويقفوا بجانبه بشراء إنتاجه على الأقل، يطلبون منه الإهداء، أو ينتظرون منه ذلك فإن هو لم يهد لهم امتعضوا ورأوا ذلك تفريطا في جنبهم، وأذكر في هذا السياق أن مدير ثانوية قد بعث إليّ يرغب أن أبعث إليه 42 كتابا من كتبي ليعمر مكتبة الثانوية ولم يفكر في شراء كتاب أو كتب منها مساعدة للمؤلف، كما أذكر أيضا في هذا المضمار أن الكاتب الإسلامي المرحوم مصطفى صادق الرافعي ذكر أنه لم يكد يصدر كتابا من كتبه حتى تهاطلت عليه رسائل ومكالمات يطلب أصحابها من المؤلف أن يرسل إليهم كتابه هدية، أو بنصف القيمة، فأجابهم بأن أغنياء العرب، لو كانوا كأغنياء الغرب لحققوا رغبات الطالبين كلها، ولكنهم منصرفون عن هذه الوجهة وغير مدركين لما ينجر وراءها لهم من الشرف والسؤدد والذكر الجميل في هذه الحياة الدنيا، والثواب والأجر في الآخرة!

إن الكاتب، أو العالم أعلى درجة وأسمى مكانة في المجتمع الإنساني نظريا وإن كان عمليًا في المؤخرة في أكثر البلدان العربية، إن لم نقل في جميعها، فهو أجدر الناس بالاحترام، والتقدير، والتشجيع، والمكافأة لا لشيء سوى أن المؤلف الواعي، والكاتب الملتزم بمثابة المصباح في الأمة، يبدد ظلامها، وينير جوانب حياتها، ويضيء أمامها طريق الرقي والازدهار، فالأمة تستطيع أن تشق الطرق الواسعة، وتشيّد المصانع الكبيرة، وتبني العمارات الشاهقة، وتمد الجسور العريضة الطويلة، ولكن إذا لم يكن لها علماء، ورجال الثقافة، وأرباب الفكر والعلم، يصنعون المعرفة ويبنون الإنسان الواعي، الذي يعرف كيف يخطط، وكيف يبني وكيف ينجز، فليست في الحقيقة إلا جسما بلا روح وهيكلا مظلما بلا مصباح، يظن أهلها أنهم قد أقاموا صرحا موطد الأركان، يدوم ما دام الزمان فيقبعون فيه -آمنين مطمئنين- ولكنهم لا يلبثون أن يتهاوى البناء على رؤوسهم ويمسي ركاما يبابا لأنهم لم يحصنوه من التصدع بالعلم والمعرفة والثقافة.

ومن السخرية المؤلمة أن نرى بعض البلدان في هذا العصر تقيم الوزن الكبير لِلَعِب الرياضة، وصاحب الزرناطة، ومحركات البطون والأرداف، وتطرح من حسابها وذهنيتها قيمة أهل الفكر والعلم والمعرفة، وترى أن المؤخرة هي مكانتهم الطبيعية لهم!

وهل هناك أجدر بالتقدير والاحترام والمكافأة والتشجيع من هذا الذي يعكف في مكتبه أو (جُحره) الساعات الطوال وهو يتصيد الكلمة اللائقة، والمعنى المناسب، والعبارة الدالة ويظل أياما وليالي مسمَّرًا على

الكرسي في حركة ذهنية لا تتوقف، ومعركة فكرية لا هوادة فيها ولا تني، من أجل أن يقذف إلى الوجود بهذه العصارة النيّرة التي تحرك في النفس الإحساس العميق بالحياة، وتثير في الكيان ذلك الدم الزكي النادر الذي لا يثور إلا في عبادة خالصة، أو في فرح مقدس، أو ألم حافز مهماز، أو هكذا ينبغي أن تكون تلك العصارة؟

من هو أجدر بالتقدير من هذا الأديب، أو العالم أو الكاتب الذي يُشعرك أدبُه أو علمُه أو كتابته بأنك أعظم من جسدك الحيواني، وأنك أوسع من تلك الكتلة اللحمية المحدودة التي تتحوَّل يوما إلى تراب، ويتقاتل عليها الدود في أطباق الثرى، وأنك باستمرار محوط بأسرار وقوى تخاطبك وتجاذبك وتناغيك، ولكنك لا تسمع ولا تحس إلا إذا سمعت كلمةً منبهة، أو كهربك معنى حي سام من قلم نظيف شريف حساس»؟

وإذا كان الكتّاب والمؤلفون يشتركون في المعاناة والاجتهاد من أجل الكلمة -على التفاوت بينهم في ذلك ومن هنا يستحقون التقدير والمكافأة- فإن الكتّاب الجزائريين يستحقون التقدير أضعاف ذلك لأنهم مع معاناتهم المضنية لا يجدون لبنات أفكارهم من يخطبها!

وهنا أجدني مضطرا ومدفوعا إلى أن أعترف بفضل الله عليّ، الذي لا أستطيع أن أفي بشكره ولو تحولتْ جوارحي كلها إلى قلوب تنبض بهذا الشكر، وإلى ألسنة تعبر عنه، فكل كتبي تجري في مجرى طبيعي ميسر لا التواء فيه، ولا تنازل ولا استخذاء، ولا توسط ولا تزلف، وإنما الوضع العام الذي يعيشه الكاتب في بعض البلدان العربية وخاصة في بلدنا هو الذي لاحظناه!

• عودة الجوائز الأدبية:

ولنتحدث الآن بعد هذا التمهيد الطويل عن الجوائز الأدبية الذي هو، صلب موضوعنا لنلاحظ قبل ذلك أن الأديب الناشئ في البلدان العربية لا يختلف كثيرا عن الأديب في العالم الغربي، وإن كان الأديب هناك إذا قبل كتابه لا يراقب طبعه، ولا ينفق عليه، ولا يوزعه، ولا يُعلن عنه، بل يتولى ذلك الناشر ومروج الكتاب، وقلّ من الكتّاب الصغار والأدباء الناشئين من يسلم بجلده من هؤلاء التجّار والوسطاء!

عر ف هذا الوضع الذي يعاني منه الأديب، كثير من ذوي الثروة، وأعضاء الجمعيات الأدبية وكبار الكتّاب الذين ذاقوا مرارة الفقر ولوعة الحاجة صغارا فوضعوا الجوائز المختلفة لتشجيع الأدباء من مؤلفين ومترجمين وكتّاب وشعراء!

وبما أن فرنسا في البلدان الغربية خير مثال يبيّن عناية الغربيين بالأدب والعلم نسوق هذه الكلمة عن الجوائز الفرنسية في أوائل القرن الماضي، معتمدين في ذلك على مقال نشرته مجلة (الهلال) في الجزء السابع بتاريخ أبريل سنة 1922، ولا شكّ أن هذا الوضع للجوائز الأدبية قد تطور في العهد الأخير تَبَعًا للتطور في مختلف مجالات الحياة:

لجمعيات العلم والأدب في فرنسا القدح المعلى في هذا الباب، ناهيك بالجوائز الوقتية التي تعينها المكاتب المشهورة والمحلات الكبرى، وهذا بيان بأسماء المعاهد صاحبة الجوائز الدورية المشهورة:

- الأكاديمية الفرنسية
- أكاديمي النقوش والآداب الر فيعة
- العلوم الأدبية والسياسية

- جمعية رجال الأدب
- أكاديمي جونكور (الكاتب الروائي المعروف)
- اتحاد الأدباء المستقلين
- الجمعية الأهلية لتشجيع الأدب
- جمعية الشعراء الفرنسيين
- مبراث سولي برودوم، فولوب، لاسير
- جمعية آداب العلوم النفسية

مجلات: الشعراء، الحياة السعيدة، ليزانال... إلخ.

ولكل من هذه الهيئات طريقة في منح الجوائز، سواء في فحص المؤلفات التي يقدمها إليها أصحابها مطبوعة أو مخطوطة أم بالنظر في المطبوعات الحاضرة وانتخاب من يستحق منها الجائزة، أم بطلب مؤلفات في فنون معينة وإعطاءالجائزة للمستحق من المتقدمين، وتشترط أغلب الجمعيات أن يقدم إليها من الكتاب المطبوع خمس نسخ، وهي لا ترد سواء أحرز الطالب الجائزة أم لم يحرزها.

والأكاديمية الفرنسية هي محور آمال الكتّاب على اختلاف درجاتهم لعظيم مكانة هذه الجمعية والشهرة التي ينالها من أحرز ثقتها ونال شيئا من جوائزها المتعددة وأهمها:

جائزة مونتيون بمبلغ 18 ألف فرنك، وهي سنوية مخصصة للمؤلفين الفرنسيين الذين يشتهرون بعلو آدابهم وفائدة مؤلفاتهم!

جائزة جوبير بمبلغ 10 آلاف فرنك، خصّصها البارون جوبير سنويا لأبلغ كتاب في تاريخ فرنسا.

جائزة توران سنوية بأربعة آلاف فرنك للمؤلفات التاريخية العامة.

جائزة جان رينو بعشرة آلاف فرنك، وتمنح لأحسن كتاب صدر في الخمس السنوات الماضية، بشرط أن يكون مبتكر الطريقة.

جائزة بمبلغ (3500) فرنك لكتاب يشتمل على رأي حديث.

جائزة توارك لأحسن تمثيل كوميدية نثرا أو نظما من الروايات التي يقبلها التياترو الفرنسي.

جائزة سوربيه أرنولد بمبلغ (2200) فرنك تقسم بالتساوي على مؤلفين من واضعي الكتب الأدبية لتهذيب النشء بشرط أن يكونوا فرنسيين.

جائزة كورسيه بمبلغ (2400) فرنك لأحسن كتاب في موضوع تاريخ العصر الأول من تاريخ فرنسا (العصر المبرو فنجيني أو الكارلو فنجيني).

جائزة أبراد دلكرو بمبلغ (8000) فرنك وهي تمنح مرة كل خمس سنوات.

جائزة برجبه بمبلغ (15000) فرنك وهي خاصة بالمؤلفات المتعلقة بمدينة باريس.

جائزة فابيان بمبلغ (3200) فرنك توزع على المؤلفين الذين يبحثون في موضوعات ترقية الأخلاق وتطهيرها من الأقذار.

وهناك جوائز أخرى كثيرة بمختلف المبالغ تعيَّن لصغار المؤلفين والكتّاب المحتاجين الذين يُجيدون عملاً فكريًا يعالج غرضا من الأغراض الكريمة النافعة.

ويحضرنا في هذا المضمار أن (اللادي نور تكليف) الأنجليزية خصصت جائزة قدرها (100) جنيه أنجليزي سمتها جائزة (فمينا والحياة السعيدة) وانتخبت لها لجنة تحكيم برئاسة (مدام سان أولير وسكرتارية الآنسة وينفريد ستيفنس)

وتألفت في باريس لجنة لسياحة الكتّاب والشعراء، وهي تخصص سنويا مبلغ (3000) فرنك تمنح سنة لشاعر وسنة لكاتب لإنفاقها في سياحة علمية بعد أن يؤيد الطالب استحقاقه لذلك بمؤلف يقدمه إلى اللجنة.

وتجدر الملاحظة أن الجوائز الأدبية في فرنسا كثيرة ومتنوعة الهدف والغرض، فهناك جوائز في تاريخ الوطن وحضارته وأصالته، وهناك جوائز لتهذيب النشء، وتوسيع مداركه الفكرية، وهناك جوائز لترقية الأخلاق النبيلة وتطهير السلوك من الأرذال، وهلم جرا، وبالتنافس في هذه المجالات الحيوية المختلفة ترتقي شؤون الأمة وتزدهر حياتها!

وإذا كان هذا وضع الأدب والعلم وجوائزهما في فرنسا منذ قرن من الزمن، فما بالك في هذا العصر، الذي تطور فيه كل شيء، وازدهر العلم ازدهارا باهرا يثير الدهشة، وصار ضروريا لوجود الإنسان وتنازعه للبقاء؟

وما كان مجهولاً أمام الإنسان في هذا الوجود الهائل أكثر كثيرا ممال أصبح معلوما، فما أكثر ما في الحياة من مجاهيل، وأسرار، وحقائق، ودقائق، ومعمّيات ومعمّقات، ولكن البحث المتواصل المدعَّم بالتشجيع الأدبي سيكشف عن المجهول، فما على رجال الفكر والأدب والقلم إلاَّ أن يواصلوا المسيرة، وما على الذين يدركون مكانة التشجيع وأهميتها في تشحيذ القريحة، وحفز الهمة، إلا أن يدركوا -ولا شك أنهم قد أركوا- أنهم بتشجيعهم هذا ينفخون في الأمم روح التقدم والتمدن، ويساهمون في إضاءة الوجود بنور المعرفة، ويبرهنون بعملهم هذا على أنهم أصحاء الأفئدة والبصائر، يرون الجيد من الرديء، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، ويرون أقرب الطرق وأنجع الوسائل لتحقيق الرفاهية والازدهار.

ولسنا في حاجة بعد هذا أن نتوسع في الموضوع بذكر الجوائز الأدبية التي يعلن عنها من حين لآخر في مختلف البلدان العربية والإسلامية، حسبنا فقط أن نسجل أن الجوائز التقديرية تقليد حسن شائع في البلدان العربية الإسلامية، كما هو شائع في البلدان الغربية على التفاوت بينها.

ويجدر بنا أن نلاحظ أن المسابقة الأدبية قد تكون لاستحثاث قادة الفكر لاختراع أو اكتشاف أو تأليف كما فعلت أكاديمية تورينو العلمية الملوكية (Academie Royale des Sciences a Turin).

حيث نشرت إعلانا سنة 1897 إلى علماء الأرض ومخترعيها من جميع الملل والنحل واللغات والنزعات يقضي بأن تدفع جائزة مقدارها عشرة آلاف فرنك لمن يخترع أهم اختراع، أو يؤلف أحسن تأليف في علم من العلوم الطبيعية، أو التاريخ الطبيعي، أو الرياضيات، أو الكيمياء، أو الفسيولوجيا، أو الباثلوجيا، أو الجيولوجيا، أو التاريخ، أو الجغرافيا، أو الإحصاء[1]

وكما وقع سنة 1895حيث أعلنت الأكاديمية العلمية في بولونيا أنها تدفع جائزة مقدارها أربعون ليرة أنجليزية لمن يصف لها طريقة أو اختراعا أو آلة لمنع الحريق أو لإطفاء النار بوسائط كيمياوية أو طبيعية أو ميكانيكية، وباب المسابقة مفتوح لأرباب العقول من سائر الأمم واللغات والأجناس[2]

وعلى كل فالمسابقة الفكرية، لأيّ غرض أو هدف كانت نتيجتها حسنة هي حفزا لهمم، وإثراء العلم والأدب!

---

(1) الهلال ج11 س5 فبراير سنة 1897.
(2) الهلال ج19 س3 يونيو 1895.

والجوائز الأدبية كما تخلد ذكر من أحرزها تخلد ذكر من يرصدها ويمنحها، فهي ذات أثرين هامين يظل التاريخ يحتفظ بهما لأصحابهما مدى الحياة!

والجزائر هي الأخرى عرفت الجوائز الأدبية على قلَّتها، وآخر جائزة أعلن عنها، هي جائزة المجلس العلمي للغة العربية.

والمثير للأسى أن كثيرا من الجوائز الأدبية متحزبة في قصدها متأثرة بروح العصر في اختيارها، ولذا فكثيرا ما يُحرَم منها مستحقها، وينالها غير الجدير بها!

• جائزة نوبل:

وإذا كانت بعض الجوائز الأدبية التي ظهرت عبر السنوات المختلفة الماضية إن لم نقل معظمها تغلب عليها السمة التجارية، فإن هناك جوائز ظهرت خلال القرن العشرين صادقة في اعترافها بالتفوق الأدبي أو العلمي، أو على الأقل قبل أن تنحرف عن جادّتها وتلتوي بها الأغراض المختلفة عن طبيعتها ووجهتها، ونذكر من هذه الجوائز (جائزة نوبل) في بلاد السويد، وجائزة (جونكور) (Goncourt) والجائزة (الهوثورنية) (Hawthorne) في أنجلترا وجائزة (بولتزر) (Pulitzer) في أمريكا.

وهناك جوائز أخرى ظهرت بعد ذلك تعبر عن اعترافها بقيمة الأديب أو العالم، ولكن المجال لا يسمح لنا بتتبع ذلك أو بعرضه، وحسبنا أن نتحدث بشيء من التفصيل عن جائزة نوبل لأنها أعظم الجوائز في عالم الأدب لحد الآن -فيما نعلم- لأنها لا تُوثر قومية على أخرى، (ثم إنَّهُ لا يحكم بها من أجل كتاب مفرد بل يجري الحكم بها بعد التثبت من صلاحية شطر من مؤلفات أديب بذاته، وهي لهذا السبب

غالبا ما تُمنح في خريف حياة الكاتب الأدبية وبعد أن يستكمل نضوجه الأدبي، وتشبه جائزة نوبل في ذلك اعتراف الشهود على ميت بطيبته وحسن عمله في الحياة)[1].

أما تاريخها، وكيفية ظهورها، وبعض الذين حصلوا عليها فهاكه فيما يلي مستقًى من أهم المصادر وأوثقها:

توفي ألفرد نوبل العالم السويدي الشهير ومخترع الديناميت في سنة 1896 وأوصى أن توقف ثروته المقدرة بنحو 1.950.000 جنيه على تحسين حال الإنسانية بحيث يصرف ريعها السنوي (وقدره نحو 8160 جنيها) جوائز للذين أدوا أجلّ الخدمات في أثناء السنة. أما عدد الجوائز فخمس: (جائزة لمن يتوفق إلى أهم اكتشاف أو اختراع في الطبيعيات، وجائزة لمن يتوفق إلى أهم اكتشاف أو تحسين كيماوي، وجائزة لمن يتوفق إلى أهم اكتشاف في الفيسيولوجيا أو الطب، وجائزة لمن ينتج أفضل أثر أدبي فيه نزوع إلى الكمال المعنوي، وجائزة لمن يبذل أعظم سعي في سبيل تآخي الأمم وإلغاء التجنيد أو تخفيضه وعقد المؤتمرات السلمية).

أما تقرير المستحقين لتلك الجوائز فعلى الصورة الآتية:

جوائز الطبيعيات والكيمياء تمنحها أكاديمية العلوم السويدية وجائزة الفيسيولوجيا والطب يمنحها معهد كارولين (وهو اسم المعهد الطبي في ستوكهلم) وجائزة الأدب تمنحها الأكاديمية السويدية بستوكهولم، وجائزة السلم تمنحها لجنة مؤلفة من خمسة أشخاص ينتخبهم مجلس الأمة النرويجي.

---

(1) الرسالة ع 172 القاهرة 19 أكتوبر 1936.

وهذه المعاهد الأربعة تنتخب كل سنة 15 مندوبا (3 عن كل منها ما عدا أكاديمية العلوم التي توفد 6 مندوبين) وهؤلاء المندوبون ينتخبون لجنة لإدارة العمل مؤلفة من أربعة أشخاص (كلهم سويديون) مقرها ستوكهولم. ثم أن الحكومة تضيف إلى هؤلاء الأربعة عضواً خامساً تعينه. وهذه اللجنة تتولى جميع الشؤون المتعلقة بهذا العمل الجليل. والجوائز توزع في العاشر من شهر ديسمبر وهو يوم وفاة ألفرد نوبل.

قائمة بأسماء بعض الحائزين على جائزة نوبل:

وهاك قائمة بالذين حصلوا على تلك الجوائز (من سنة 1901 إلى 1917) مع بيان جنسية كل منهم:

السنة	الطبيعيات	الكيمياء	الطب	الأدب	السلم
1901	رنتجن (ألماني)	فان هوف (هولندي)	فون بهرنج (ألماني)	سولي بردوم (فرنسي)	دونان (سويسري) وباسي (فرنسي)
1902	لورنتز وزيمن (هولنديان)	فيشر (ألماني)	رونلد روس (أنكليزي)	مومسن (ألماني)	دوكومان وغوبا (سويسريان)
1903	بكريل وكوري (فرنسيان)	أرهينيوس (سويدي)	فينسن (دانماركي)	بجورنسن (نرويجي)	كريمر (أنكليزي)
1904	لورد ريلي (أنكليزي)	وليم رمسي (أنكليزي)	باولوف (روسي)	ميسترال (فرنسي) وإيشيفري (إسباني)	معهد القانون الدولي

1905	لينارد (ألماني)	فون باير (ألماني)	كوخ (ألماني)	سينكيفكز (بولوني)	بارونة فون ستتنر (نمساوية)
1906	تومسن (أنكليزي)	مواسان (فرنسي)	كولجي (إيطالي) كاجال (إسباني)	كردوتشي (إيطالي)	روزفلت (أمريكي)
1907	ميكلسن (ألماني)	بوخنر (ألماني)	لافيران (فرنسي)	كيبلنغ (أنكليزي)	مونيتا (إيطالي) ورينولت (فرنسي)
1908	ليبسن (ألماني)	روثرفرد (أنكليزي)	أرليخ (ألماني) ومتشنيكوف (روسي)	أوكن (ألماني)	أرنولدسن (سويدي)
1909	ماركوني (إيطالي)	أوستوالد (ألماني)	كوخر (ألماني)	لاجرلوف (سويدية) بيرنارت (بلجيكي)	بارون دي كونستان (فرنسي)
1910	فان در والس (هولندي)	والاخ (ألماني)	كوسل (ألماني)	هيز (ألماني)	مكتب السلم الدولي (سويسرا)
1911	وين (ألماني)	مدام كوري (فرنسية)	جولستران (سويسري)	ميترلنك (بلجيكي)	آسر (هولندي) فرايد (نمساوي)

1912	دالن (سويدي)	جرينيار وساباتيه (فرنسيان)	كارل (أمريكي)	هوبتمن (ألماني)	روت (أمريكي)
1913	أونس (هولندي)	ورتر (سويسري)	ريشه (فرنسي)	تاغور (بنغالي)	لافونتين (بلجيكي)
1914	فون لاو (ألماني)	ريتشاردس (أمريكي)	باراني (نمساوي)	لم يمنح	لم يمنح
1915	براج وبراج (أنكليزيان)	ويلستاتر (ألماني)	لم يمنح (فرنسي)	رومان رولان	لم يمنح
1916	لم يمنح	لم يمنح	لم يمنح	هيدنستام (سويدي)	لم يمنح
1917	لم يمنح	لم يمنح	لم يمنح	لم يمنح	جمعية الصليب الأحمر

بين الأدب والسياسة

والجوائز على اختلافها، مكانا ومكانة، ووزنا وأهمية، وغرضا وهدفا، غالبا ما تثير حساسيات، أو انتقادات، أو ملاحظات أو تفضي إلى غبن مؤلم أو تحزب عواطف نحو جهة ما، وحسبنا في هذا أن نذكر -كمثال على ذلك- ما نشرته مجلة (الرسالة) الزياتية في عددها 779 - بتاريخ 23 رمضان 1353 هـ، 7 ديسمبر 1936م من أن اللجنة المختصة بجامعة (استوكهولم) قررت أن تمنح جائزة نوبل للسلام عن سنة 1935م للكاتب الألماني: (كارل فون أوسيتسكي)، وعن سنة 1936 للدكتور سافدرا لاماس سفير جمهورية الأرجنتين في لندن، وذلك لما أبداه كل منهما في سبيل قضية السلام من خدمات وجهود .

وليس في قرار جامعة استوكهولم ما يثير الدهشة، لأن جائزة نوبل للسلام تمنح كل عام كباقي جوائز نوبل الأخرى عن العلوم والآداب والفنون، وقد منحت في الأعوام السابقة لكثير من الكتّاب والساسة مثل مسيو بريان رئيس وزارة فرنسا السابق، والسير نورمان أنجل الكاتب الأنجليزي المعروف.

وقد منحت جائزة نوبل للهرفون أوسيتسكي (Von Ossietzky) تطبيقا لدستور نوبل الذي يقضي بأن تمنح هذه الجائزة «لكل من قام بأكبر جهد وبأفضل جهد في سبيل توثيق روابط الأخوة بين الشعوب، أو في سبيل تخفيض السلاح، أو نشر الدعوة إلى السلام»، وقد لبث فون أوسيتسكي مدى أعوام يبث بقلمه الدعوة إلى السلام من منبر الصحافة، ولاسيما في صحيفة "الڤلت بينه" (Welt Buehne) (مسرح العالم) التي كان يحررها مع صديقه وزميله في الدعوة إلى السلم الكونت فون جيرلاخ الكاتب السياسي الكبير الذي توفي قبل شهر في منفاه في باريس.

ولكن حكومة برلين النازية ترى في منح جائزة السلام لهذا الكاتب الألماني إهانة لها، وتحتج على ذلك رسميًا لدى حكومة السويد، ولماذا؟ لأن كارل فون أوسيتسكي يعتبر في نظرها خائنًا لوطنه، فتكريمه بهذه الصورة من هيئة عالمية يعتبر مناقضًا لواجب المعاملة الدولية، بل يعتبر استفزازًا لألمانيا.

وإليك قصة كارل فون أوسيتسكي المحزنة، ولماذا تعتبره ألمانيا الهتلرية خائنًا لوطنه: كما جاء ذلك في المرجع المذكور: كان فون أوسيتسكي من دعاة السلم كما قدمنا، وكان كاتبًا مستقلاً لا ينتمي لأي حزب سياسي، وإنما يبث دعوته السلمية بالكتابة الملتهبة، ويدعو إلى تفاهم الشعوب ونزع السلاح بكل قواه، ويحمل على السياسة العسكرية لأنها خطر على السلام والمدنية؛ ولم تكن هذه الدعاية مما يتفق مع مبادئ الوطنية الاشتراكية ونزعتها العسكرية؛ فلما قبض الوطنيون

الاشتراكيون (النازي) على زمام الحكم في سنة 1933، كان فون أوسيتسكي ممن قبض عليهم من الكتّاب المعارضين للمباد الهتلرية؛ فزج به من ذلك الحين في أحد معسكرات الاعتقال المشهورة دون محاكمة أو تهمة معينة، وعانى في الاعتقال ضروبًا مرهقة من الحرمان والتعذيب؛ والتمس كثير من الهيئات الأدبية والكتّاب في مختلف الأمم من الحكومة الألمانية أن تطلق سراحه فأبت حتى أشرف الكاتب المعتقل على الموت، وعندئذ فقط سمحت بأن يغادر معسكر الاعتقال إلى أحد المستشفيات، حيث بقي تحت الحجر والاعتقال.

ورأت الهيئات الأدبية المختلفة وأكابر الكتّاب في أنحاء العالم أن يلفتوا نظر جامعة السويد إلى قصة هذا الكاتب الشهيد لكي تمنحه جائزة نوبل للسلام، واشترك في تقديم هذا الطلب رومان رولان، وأبتون سنكلير، وهنريش مان، والفيلسوف ليفي بريل، وأميل لودفيج، وجيللمو فيريرو وغيرهم، تقديرًا لخدماته وكتاباته الكثيرة في سبيل قضية السلام؛ وكان أن شاطرت اللجنة المختصة تقدير الرأي العالمي ومنحت كارل فون أوسيتسكي هذا الشرف العظيم.

أما اعتبار الحكومة الألمانية مواطنها خائنًا، فلأنه كان قبل تبوئها الحكم بأعوام، يكافح بالقلم في سبيل السلام.

ولا نرفع القلم عن قضية الجوائز الأدبية دون أن نسجّل أن في البلدان العربية والإسلامية جوائز أدبية كثيرة مختلفة، منها السنوية الدائمة، ومنها التي تُمنح في مناسبات، والتي تمنح لاستحثاث الهمم وحفز العزائم، والتي تمنح لمن قدم خدمات فكرية جليلة في مجال ما. ومنها التي يعلن عنها لتشجيع الناشئين من حين لآخر في الصحف والمجلات كمجلتي العربي، والهلال.

وللوفاء لأهل الوفاء نُسجل هنا موقف السيد الحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية التونسية من الأدب وهواته، والشعر ورجاله، فقد كان يحفز همم الشعراء والكتّاب، ويُفجّر في أعماقهم كوامن العبقرية فكان في مختلف جولاته عبر الوطن، يكتشف المواهب الخصبة، والطاقات الحية، فينمّيها ويشجّعها، ويرصُد لها الجوائز التقديرية في مختلف الأحداث التاريخية الهامة، فيتبارى الكتّاب والشعراء في منافسة شريفة راية الفوز فيها للقريحة المتوقدة، والشاعرية المتميزة!

ونذكر من تلك العكاظيات التاريخية التي تزهو بها تونس الشقيقة، عكاظية عيد الاستقلال سنة 1957 التي افتتح الرئيس سوقها يوم 5 أكتوبر بمناسبة عيد المولد النبوي الشريف، وذلك بمدينة القيروان، وتقدم إلى الميدان خمسة وثلاثون شاعرًا من شعراء العربية الفصحى، أحرز منهم على الجوائز واحد وعشرون شاعرًا، وفي مساء يوم 20 ديسمبر 1957 أقام الرئيس الحبيب بورقيبة بقصره في سعيدة احتفالا لتوزيع المكافآت على المجيدين، وافتتح الحفل بخطاب جاء فيه بالخصوص:

«هناك لحظات كلحظتنا هذه ننسى فيها كل المشاكل الأخرى ونتفرغ للأدب والشعر، وهو جزء من الحياة لأن البشر كما يحتاجون إلى الكرامة والحرية يحتاجون أيضا إلى الغذاء الفني والأدبي، وهذا سنة من سنن البشر!

وقد رأينا أن من واجب الدولة تشجيع الأدب والأدباء، وليس المقصود من هذا التشجيع خلق القرائح، ولكن الهدف هو تنميتها، وإفساح المجال لها حتى تزدهر وتزيل العقبات المادية، ولو أنه في بعض الأحيان تكون التعاسة المادية سببا من أسباب العبقرية، وهذا شيء جربناه هنا في تونس[1].

(1) عكاظية تونس، الحلقة الأولى ص3.

التكريم بالأوسمة

التكريم بالأوسمة

• التكريم بالأوسمة

وهناك التكريم بالأوسمة، وهذا يكون للمدنيين والعسكريين، الذين لهم الكفاءات والخدمات الجليلة وهو تقليد كان متَّبعًا في العصور الوسطى، ولايزال موجودا معمولا به في بريطانيا وغيرها.

ومن أشهر الأوسمة الأروبية المدنية:

وسام الجزة الذهبية، أنشئ سنة 1429 – 1430، وكانت تمنحه النمسا وإسبانيا، وكانت الدانمارك تمنح وساما (دانبروج) (1219) والفيل (1462) وإيطاليا وسام (أنانشياتا) 1362 ووسام (موريس، ولازاروس 1434 والوسام (البابوي) وهو المهماز الذهبي 1559 وبروسيا (النسر الأسود) و(النسر الأحمر) ووسام (الجدارة) وتمنح بولندا (النسر الأبيض) وفرنسا (لجيون الشرف).

أما الأوسمة العسكرية التي تُمنح لأعمال البطولة في أثناء المعارك والحروب تكريما لشجاعتهم وبسالتهم فهي كثيرة: من أشهرها:

- صليب الحرب (فرنسا)
- الصليب الحديدي (ألمانيا)
- صليب فكتوريا والخدمة الممتازة (أنجلترا)
- ميدالية الشرف (للكونجرس) 1862.
- صليب الخدمة الممتازة (الولايات المتحدة).

النجمة الحمراء، ووسام النصر، ووسام لنين (روسيا)[1]

وفي البلدان العربية والإسلامية أوسمة مدنية وعسكرية لا يتسع المجال لعرضها، وحسبنا أن نذكر منها أوسمة الجزائر في عهد الثورةالتحريرية وعهدِ الاستقلال!

---

(1) انظر (الموسوعة العربية الميسرة) ومجلة (الهلال) فبراير 1915 ج5 س 23.

بعد استشهاد البطلين: عميروش وسي الحواس بأيام قليلة، أي شهر مارس 1959 أصدرت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية قرارا يقضي بتكريم الشهداء والأبطال، وبدا تطبيق هذا القرار بمنح أرفع النياشين للبطلين الشهيدين: عميروش وسي الحواس.

وبهذه المناسبة التاريخية الخالدة نشرت صحيفة (المجاهد) اللسان المركزي لجبهة التحرير الوطني هذا القرار وهذا نصه:

دخلت ثورتنا المجيدة مرحلة جديدة في الكفاح الوطني منذ إعلان قيام الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في 19 سبتمبر 1958 حيث تجسمت إرادة الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال تجسيما عمليا بانبعاث دولته الفتية، وظهورها في الميدان الدولي كحقيقة حيّة تعبّر عن إرادة شعبنا، وتبلور أمانيه ومشاعره الوطنية، وقد تميزت هذه المرحلة الثورية الوطنية العظيمة بمباشرة الحكومة الجزائرية أعمال السيادة الوطنية في جميع الميادين التي تخص الجزائر!

وفي قرار الحكومة الجزائرية الخاص بتكريم الشهداء والأبطال، وإنشاء الأوسمة ليرمز إلى شيء عظيم الأهمية، فإن كفاح الجزائر زاخر بالبطولات الخالدة ولا يمكن أن تمر هذه البطولات منسية مهملة!

فلكي تحتفظ الأجيال بذكرى أبطالها الخالدين، ولكي تكرم الشهداء والأبطال والمضحين بكل أنواع التضحية والمناضلين في جميع ميادين النضال، صدر هذا القرار وبدا تطبيقه العملي بمنح أرفع النياشين وأسمى أشكال التقدير الوطني، والتكريم الثوري للشهيدين العظيمين الفقيد عميروش والفقيد سي الحواس رحمهما الله[1].

---

(1) العدد 40– 9 شوال 1378هـ – 16 مارس 1959م.

وكان في الثورة وسامان أحدهما: هلال الجهاد، والآخر وسام المقاومة. وفي المجاهد المذكور صورتان لشكلهما!

أما في عهد الاستقلال فقد تم تكريم المجاهدين بميداليات تطبيقا لقانون صدر في جانفي سنة 1984 وهي هذه:

- ميدالية الشهيد: (شهيد حرب التحرير الوطني).
- ميدالية المعطوب -عطبا كبيرا- من جرّاء حرب التحرير أيضا.
- ميدالية جيش التحرير الوطني.
- ميدالية المقاوم.

وتمنح هذه الميدالية من طرف رئيس الجمهورية بواسطة مرسوم، وباقتراح من وزارة المجاهدين بعد إشعار منظمة المجاهدين ووزارة الدفاع الوطني!

ترتيب الاستحقاق الوطني

إن ترتيب الاستحقاق الوطني يضم ثلاثة تشريفات، وثلاث مراتب:

- الأثير
- العميد
- الصدر
- العشير
- الجدير

إن عملية التقليد لمصاف التقدير الوطني تمنح مقابل الخدمات الاستثنائية المقدمة للثورة وكذا نظير الخدمات الجليلة المقدمة ضمن نشاط مدني أو عسكريّ للدولة!

وهي كذلك مكافأة وتقدير للمواطنين الذين يساهمون في إظهار ورفع صورة ومكانة الجزائر بين الأمم!

الاحتفال التكريمي بختم خليل
في منطقة القبائل

الاحتفال التكريمي بختم خليل في منطقة القبائل

جرتِ العادة في منطقة القبائل أن يحتفلوا بختم مختصر خليل في الفقه المالكي، والغاية من الاحتفال التبرك، وجمعُ المال من المدعوين لصالح الزاوية التي تدرّس فيها العلوم ومنها الفقه بكتاب خليل، وتكريم الشيخ الذي درّس خليل وختمه.

فعندما يتم ختم خليل يُنادى في مختلف الأسواق الأسبوعية أن هناك حفلا يقام بزاوية كذا يوم كذا، فيجتمع في تلك الزاوية عشرات الآلاف من الناس رجالا ونساء، وغالبا ما تقام لهذا الغرض منصة يجلس عليها من قام بتدريس خليل وحوله أهل العلم والمعرفة وحفظة القرآن والأعيان، ليستمعوا إلى درس يختم به المحتصر، ثم يقدم للعامة مواعظ وتوجيهات تضيء لهم جوانب حياتهم الدينية والدنيوية، ثم تجمع الأموال لفائدة الزاوية كل حسب قدره واستطاعته تطوعا ولا يكلف أحد بما ليس في وسعه، ثم يقدم الطعام ويوزع حسب القرى والعروش.

ولهذا الحفل حسنات وسيئات نذكر أهمها فيما يلي:

فمن حسناته تكريم الفقه والاحتفاء به وقد قيل:

واحتفل للفقه في الدين ولا تشتغل عنه بمال وخول

واهجرِ النوم حصلْه فمن يعرف المطلوب يحقر ما بذل

والاجتماع للتعارف والتذاكر، والاستماع إلى مواعظ وتوجيهات، والانتفاع بها لجلال الموقف الفقهي الشرعي والناس جميعا يجلون

الشريعة، ويعظمون المشائخ، ويحترمون الزوايا، ويعرفون أن سبب هذا اللقاء هو ختم الشيخ الخليل، وفي ذلك من التقدير له والتبجيل ما لا يحصى، إذ تظل القلوب تخفق بحبه، والألسن تنوه بذكره، وهذا التكريم معنوي، لا يضاهيه تكريم، ثم إلى جانب ذلك تلك الإعانة التي تجمع لصالح الطلبة الذين يدرسون في الزاوية، وهم في أشد الحاجة إليها ليواصلوا دراستهم، ومن حسنات الحفل أيضا إطعام الطعام، فإن كثيرا من الفقراء ينتظرون ذلك بفارغ الصبر، فقد يمضي على الواحد منهم عام دون أن يشبع الطعام، ولا شك أن في كل هذا تجديداً للصلة الاجتماعية بين الناس على أقوى ما تكون حبّا ووفاء وإخاء!

أما سيئاته فيمكن إيجاز أهمها في هذين الأمرين:

أولهما: ما يرتكب عادة وغالبا في هذه الزوايا من البدع والخرافات، كالتوسل بأهل القبور، والاعتقاد بأنهم يقضون الحاجات، ويشفون من الأمراض والعاهات، وأن السعيد من نال رضاهم، ومما نشأ من البدع وضع الستور على تابوت الولي الذي لا تخلو منه الزاوية، فترى الزوار يتنافسون في تقبيلها ومسح الوجوه بها للتبرك والتقرب، وكل ذلك ضلال لا يرضاه الله لعباده المؤمنين، ولا ينبغي أن يتسفلوا إليه وهم يحملون عقيدة الإسلام النقية السامية.، وقد جاء الاستقلال بالعلم والمعرفة فاكتسح كل هذا الضلال، ورفع العقول إلى آفاق الوعي والإدراك والرؤية الواضحة الصحيحة!

ثانيهما: ختم الشيخ خليل مختصره بقضية إرث الخنثى المشكل وتقدير مسائله التي يستقبح التصريح بها عرفا وخاصة بين أهل القبائل

الذين اشتهروا بالحياء، فشيخ الزاوية يلقي الدرس الاختتامي أمام هذه الجماهير في مشكل الخنثى، فتسمعه يذكر، الفرج، والحيض، والمني، والبول، كما ذكرها الشيخ خليل، والجوّ لا يسمح بلك والذوق يترفع عنه.

حضر العلامة الشيخ أبو يعلى الزواوي إحدى هذه الحفلات فتألم مما سمع وكتب في الشهاب مقالات تحت هذا العنوان: (فقهاء الزواوة وختم مختصر خليل في الفقه) قال فيه بالخصوص:

إن الحكمة (أن يتفطن إخواني الفقهاء إلى أقل شيء وهو أن ختم الشيخ خليل بأشكال إرث الخنثى المشكل وتقرير مسائله المستقبحة عرفا كقوله: (فإن بال من واحد أو كان أكثر أو أسبق أو نبتت له لحية أو ثدي أو حصل حيض أو مني) والحال أن البربر عموما والزواوة خصوصا شديدو الحياء من ذكر المستقبح ولو في غير الجموع ففيهم قال الشاعر:

قوم لهم شرف العلى من حمير وإذا ائتموا صنهاجة فهم هموا

لما حووا إحـــراز كل فضيلـــة، غلب الحياء عليهموا فتلثموا

فبسبب هذا التفطن، وبسبب مراعاة المناسبات وبسبب أن الشيخ خليل رحمه الله غفل عن هذا وهو هو فلابد أن يتفطنوا كما تفطن ابن رشد الحفيد، فقد ختم بالقضاء والشهادة، أو بالوصية كما فعل غير الشيخ خليل من الفقهاء[1]

وأغلب زوايا العلم والقرآن في منطقة القبائل، تدرس الفقه المالكي في مختصر الشيخ خليل، وتختمه بإقامة حفل كبير، تبركًا وترغيبًا في

(1) ج9 م7 غرة ربيع الأول عام 1350هـ الموافق جويلية سنة 1931م.

العلم، وتنويها بجهد الشيخ المدرس وتكريما له، ولكن أشهر هذه الحفلات حفلان حضرتهما وسيظلان منقوشين في أعماق نفسي، أحدهما بزاوية سيدي منصور ببني جناد ولاية تيزي وزو، وكنت إذ ذاك لا أتجاوز العاشرة من عمري، رأى والدي -رحمه الله- وهو خريج هذه الزاوية أن يصحبني معه للتعرف على أهل العلم وحفظة القرآن الذين سيتلاقون في هذا الحفل، وفي ذلك حفز للهمة، وشحذ للقريحة، وتشجيع على المضي في طلب العلم على حد تعبير الوالد.

ولا أنسى -ما عشت- التفاف طائفة من أهل العلم حولي في شيء من العجب والإعجاب حين علموا أنني حفظت القرآن في التاسعة من عمري، وأنني أحفظ التلخيص للخطيب القزويني، وعدة قصائد من مختلف الشعراء، وأخذوا يتنافسون في عرض أسئلتهم واستفساراتهم، وكان هذا بعد ختم الشيخ لمختصر خليل وتوجيه كلمات إلى العامة ثم إلى طلبة العلم، مما جعل المعجبين بي يدعون لي بالتوفيق في طلب العلم حتى أقوم بتدريس خليل وختمه كما فعل الشيخ في هذا اليوم!

أما الاحتفال الثاني ففي زاوية الشيخ عبد الرحمن اليلولي بجبل (إيلولن) بجرجرة.

ففي يوم الأحد 14 ربيع الثاني سنة 1352 الموافق ليوم 8 جوان 1938 أقام هذا المعهد حفلا بهيجا بمناسبة ختم العالم الأزهري الشيخ الرزقي الشرفاوي لدرس الفقه بمتن الشيخ خليل وشرح الخرشي، وقد حضر إليه آلاف من العلماء، والطلبة وعامة الناس من مختلف أنحاء القطر الجزائري، وخاصة من منطقة القبائل، وممن حضر من العلماء العلامة الفلكي الشيخ المولود الحافظي الأزهري والأستاذ أحمد بن زكري مدير

المدرسة الثعالبية، والشيخ السعيد اليجري معلم أجيال ومربيها، واللغوي المعروف بتتبعه لمعميات اللغة وغموضاتها الشيخ علي الصدقاوي والظريف الخفيف الشيخ الطيب وعمارة وغيرهم.

وألقى الشيخ الرزقي في الجموع الحاشدة خطابا تاريخيا هاما، لم يجر على سنن خليل ومن يختمون مختصره من الختم بأشكال إرث الخنثى المشكل، بل تحدث عن مكانة الفرد في الأسرة ومكانة الأسرة في المجتمع، وركز في نظرة واضحة، وفكر عميق على أن العناية بعلل الأسرة والمجتمع يجب أن لا يقل عن العناية بالرزق والثروة ومختلف شؤون الحياة، ولاحظ أن الإسلام هو أرقى الأديان والشرائع عناية بتوازن القوى المختلفة في المجتمع.

وتحدث بإسهاب عن التعليم في الجزائر وفي منطقة القبائل بالخصوص ودعا العلماء إلى التكتل ليتمكنوا من خدمة الإسلام بنشر قيمه وفضائله، وندد بالبدع والانحرافات التي شاعت في المنطقة بالخصوص وذكر بمشاهير العلماء في زواوة، أمثال ابن معطي والمشدّالي وأحمد الإدريسي!

ثم ارتجل الأستاذ أحمد بن زكري خطابا ركز فيه على أهمية الزوايا العلمية والقرآنية بالمنطقة وخاصة هذه الزاوية الشهيرة التي تعاقب على التدريس بها علماء أجلاء أمثال الشيخ أبي القاسم البجليلي صاحب (التبصرة) والعلامة الفلكي المولود الحافظي صاحب أعمال فكرية هامة، والعلامة الأصولي الشيخ الرزقي الشرفاوي، المؤلف المربي، وقد

أشاد بهذا الأخير طويلا، ولاحظ أنه جدير بكل تكريم لعلمه الغزير، وجهاده الفكري المستميت في سبيل نشر العلم وتربية الأجيال!

وقد تحدثت جريدة (البصائر) عن هذا الحفل التاريخي التكريمي في مقال حرره أحد الحاضرين في الحفل وعلقت إدارة التحرير عليه بقولها:

(نحن لا نجهل قيمة الزوايا ببلاد زواوة الكريمة، فهي معاهد لنشر الدين والقرآن العظيم، بعيدة كل البعد عما اشتهرت به الزوايا الأخرى من الزهد في العلم ومحاربة أهله والاحتفاء بكل بدعة[1]

(1) ع 121 بتاريخ 10 جويلية 1938.

تكريم الأموات

تكريــم الأموات

تمهيد:

يقول الله تعالى في سورة (يس) الآية 12:

«إنا نحن نُحيي الموتَى ونكتب ما قدَّموا وآثارَهم و كلَّ شيء أحصيناه في إمام مبين».

أي أن الله تعالى يُحصي على الموتى ما قدَّموا بين أيديهم من حسَن أو سيء، ويسجلهُ في كتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها، كما يكتب ويسجل كل ما خلّفوه وراءهم من آثار صالحة أو فاسدة، فكل ما تركه الأموات بعد موتهم من آثار بين الناس يبقى يدل على مرورهم بهذه الأرض يوما، سواء أكان خيرا أم شرا، يبقى وراءهم يذكِّر بخيرهم أو شرّهم ، بوجودهم فوق هذه الأرض ينابيعَ خير أو ينابيع شر، هداةً إلى النور أو هداةً إلى الظلام!

يقول الإمام الألوسي في تفسيره لقوله تعالى: «ونكتب ما قدّموا وآثارهم»، أي آثارهم التي أبقوها بعدهم من الحسنات، كعلم علَّموه، أو كتاب ألَّفوه، أو حبيس وقفوه، أو بناء في سبيل الله تعالى بنوه، وغير ذلك من وجوه الخير، ومن السيئات كتأسيس قوانين الظلم والعدوان، وترتيب مبادئ الشر والفساد فيما بين العباد، وغير ذلك من فنون الشرور التي أحدثوها وسنوها بعدهم للمفسدين».

وفي هذا المعنى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

(من سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنة

سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)[1]

وفي رحاب الآية الكريمة: «ونكتب ما قدموا وآثارهم»، وبالاستئناس بها، نسجل أن ذكر مناقب الميت، وتَعدادَ محاسنه، والإشادة بفضله، والتنويه بإيجابيته وفعاليته في حياته، أمر جميل ومندوب، وتقليد حسن مفيد، وفائدته تكريم الميت بنشر فضائله، وتوجيه الأنظار إليه والدعوة إلى ترسم خُطاه على طريقه القويم!

وذكر محاسن الأموات ونشرها والإشادة بها بين الناس مأمورٌ به، ومرغوب فيه، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (اذكروا محاسن موتاكم، وكُفُّوا عن مساويهم)[2]

وهو ما يعرف بالرثاء أو التأبين:

والعاقل، والناجح أيضا من شغل الناس بفضائله ومحاسنه حيًّا وميتا، وعاش قبل موته حيا بعمله الصالح البناء، وعاش بعد موته بذكره الجميل، وسمعته العطرة، قال الشاعر العربي:

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

فارفع لنفسك بعد موتك ذِكرَها فالذِكر للإنسان عمرٌ ثان

وليس بميت من يموت ويغيَّب في التراب ولكن وراءه آثاره الدالة عليه، الناطقة بوجوده، ومن هنا كان للآثار أهميتُها القصوى في إثارة الذكريات، وتفجير المشاعر والأحاسيس، وإطلاق الألسن بروائع البيان.

---

(1) صحيح مسلم.

(2) رواه أبو داود، والترمذي، والحاكم، والبيهقي في السنن عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قال الأحوص:

ضـــوءُ نارٍ بــدا لعينك أم شــبَّـ ـــتْ لذي الأثل من سلامة نـار
تلك بين الرياض والأثْل والبَـــا نات منّا ومـــن سلامـــةَ دَار
وكـــذا الزمانُ يذهـــب بالنـــا سِ وتبقى الرسوم والآثـار[1]

وقال أبو الطيب المتنبي:

تصفو الحياةُ لجاهلٍ أو غافـــلٍ عما مضى فيها وما يُتَوقّــع
ولمن يُغالط في الحقائق نفســه ويسومها طلبَ المحال فيقنَع
أينَ الذي الهرمـــان من بنيانـــه ما قومُه ما يومُه ما المصـرع
تتخلـــف الآثـــار عن أربابهـــا حينا ويدركها الفناء فتتبــع

والآثار نوعان: مادية ومعنوية فالمادية لها وقتها المحدود ثم يدركها الفناء أما المعنوية فدائمة دَوام الحقائق التي لا تزول!

الرثاء:

من الموضوعات الهامة التي تناولها الأدب العربي في مختلف عصوره، وأفاض فيها القولَ الخطباء والشعراء وتنافسوا في الإجادة فيها، الرثاء. وهو تعداد فضائل الميّت وعرض مناقبه وشمائله، في توجع وتحسر، وحزن وتألّم، وقد سئل أحد الأعراب: ما بال أفضل أشعاركم في الرثاء فأجاب: لأننا نقولها وقلوبنا موجعة، أي لأنها صادرة عن عاطفة حارة صادقة، بعيدة عن التكلف:

---

(1) الأبيات في (الأغاني) 9 – 132.

والحقيقة الناصعة المذهلة هي أن الإنسان يرى كل يوم ويسمع فقْد صديق، أو قريب، أو زميل، فتتراءى له حقيقة رهيبة تطغى على سائر الحقائق، وتتكشف له كبيرة ضخمةً تتضاءل أمامها قيم الأشياء وأقدارها. وتتحول أمام عينيه إلى سراب فيتبين أن هذه الحياة التي هام في جمالها، ويكافح صباح مساء، ليلَ نهار من أجلها، ليست في واقعها الأوهما، وما العالَم كله إلا قبر واسع يبث رسل الموت، ويرسل عواصف الهلاك! وكيف يكون حال من يشيع إخوانه وأصدقاءه إلى قبورهم، ويُنتظر ساعة يلتحق فيها بهم وهي آتية لا ريب فيها.

من كان يعلَم أن الموتَ يُدركه والقبرُ مسْكَنُه والبعثُ يخرجه
وأنه بين جنــات مزخْـرفــةٍ يومَ القيامة أو نار ستُنضجه
فكل شيءٍ سوى التقوى به سمَج ومن أقام عليه منه أسمَجُه
ترى الذي اتخذ الدنيا له وطنا لم يدْر أن المنايا سوف تُزعجه

والشعراء أو الخطباء إزاء الرثاء صنفان:

شعراء أو خطباء يقفون موقفا ذاتيا من المصاب الأليم، يعددون فضائل الميت ويبكون مناقبه وشمائله، وشعراء أو خطباء ينزعون من الميت إلى الموت ومن الفرد إلى الإنسان، ومن المصير الجزئي إلى المصير الكلي، فالأولون هم شعراء الوجدانية والآخرون هم شعراء الرثاء الكلاسيكي[1]

والرثاء على كل تكريم للميت لأنه عرض لأعماله، وتعداد لفضائله، وكشف عن وجوده الإيجابي في أمته وبين قومه، وإن كان التكريم أظهر وأجلى عند الوجدانيين!

---

(1) انظر (المفيد في الأدب العربي) ج1 ص 458.

التأبين:

يقوم التأبين بالثناء على الفقيد، وعرض فضائله الكريمة، وصفاته النبيلة، وأعماله الصالحة، وتصوير الفراغ الذي خلفه الميت وراءه، وهو عادة يكون للعظماء، والأمراء، والعلماء، الذين لهم الوزن الثقيل في الأمة، وربما من الفوارق بين الرثاء والتأبين أن هذا الأخير تكون فيه الإشادة بالذكر والفضائل أكثر من الندب والتفجع والتحسر!

ولاقتراب التأبين من المدح، يصعب أحيانا الفرق بينهما، أو تبين ما إذا كانت الخطبة أو القصيدة في المدح أو في التأبين، بيد أن براعة الشاعر أو مهارة الخطيب تجعل السامع في شعور دائم بأن الكلام حول ميّت.

وجماع القول في الرثاء والتأبين أنهما مرآتان مجلوتان، تعكسان فضائل الميت وشمائله، وتصوران مكانته في أمته أو مجتمعه، وذلك هو التكريم!

وهذا النوع من التكريم معروف في مختلف العصور العربية والإسلامية على تطور فيه، وتفاوت في مناحيه[1].

ومن الشعراء المشاهير بالرثاء الخنساء، والمهلهل في الجاهلية، وجرير وابن الرومي والفرزدق في الإسلام، ثم عرفت ساحة الرثاء والتأبين شعراء لا يحصيهم العد في مختلف مراحل التاريخ العربي الإسلامي، ومختلف الأقطار والبلدان، ومن أشهر شعراء هذا العصر في الرثاء شاعر النيل حافظ إبراهيم -رحمه الله-.

وإذا كان تكريم الأحياء قليلاً -نسبيًا- لأنه إنصاف من الأحياء للأحياء، والإنصاف في هذه الحياة قليل نادر، ولأنه يتطلّب في المكرَّم مؤهلاتٍ وكفاءات، وهذه قلما تتوفر في شخص بسعة وعمق حتى يكون

---

(1) يراجع هذا في كتاب (التوجيه الأدبي) للدكتور طه حسين ورفاقه.

تكريمُه من أجلها عن جدارة واستحقاق، فإن تكريم الأموات كثير، شائع، ذائع، لأن الميت قد ترك الحياة للأحياء، ولم يعد ينازعهم فيها، فلا أقل من أن يجودوا عليه بما كانوا يبخلون به عليه يوم كان ينافسهم في الحياة، ومن هنا نرى الناس يبخلون بكلمة صغيرة مقتضبة يقدِّرون بها عمل مجاهد بالفكر والقلم، أو مجاهدٍ بالسِّلاح، أو بانٍ للفضيلة، أو ناصر للحق، أو حامٍ للذمار، فإذا مات واحد من هؤلاء جمعوا له من مختلف المعاجم اللغوية أجمل النعوت والأوصاف، وصبوها عليه صبا، وقد كان في حياته أحوج ما يكون إلى القليل من ذلك!

وليس معنى هذا أننا ندعو إلى ترك هذا التقليد الحسن الجميل، وندفن عظماءنا

وأبطالنا، وعلماءنا في صمت، دون كلمةٍ تكريمية تقديرية نودِّعهم بها، أو أننا نقلل من أهمية هذا الإرشاد النبوي (اذكروا محاسن موتاكم) وإنما ندعو في شدة وإلحاح إلى الاعتراف بالفضل لأهله، وهم أحياء ليمضوا في طريقهم بعزيمة أقوى وحيوية ونشاط، وعلم بأنهم يعملون أمام ذوي العُيون المبصرة!

والجدير بالملاحظة أن المؤبّن غالبًا ما ينزع في تأبينه إلى التحدث عن الدنيا والآخرة، وعن الفناء والبقاء، ويُثير في أعماق الناس تأملات عقلية، واعتبارات نفسية، ونظرات فلسفية، وهذه النزعة نجدها عند لبيد في تأبينه لأخيه إذ يقول:

ألا كل شيء ما خلا الله باطـل ... وكل نعـم لا محالة زائـل
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رماذا بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائـع ... ولابد يوما أن ترد الودائـع
أليس ورائي إن تراخـت منيتي ... لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

وقد فشت هذه الظاهرة بعد مجيء الإسلام وتعلق الناس بالآخرة وما ينتظرونه فيها من سعادة، ثم تعمقت في العصر العباسي باتساع آفاق العلم والفلسفة (فأصبح الشعراء يوزعون قصيدتهم بين البكاء والتأبين والتعزية والحكمة، وربما غلبت عند بعض الشعراء وفي بعض القصائد خاصة الحكمة على كل ما عداها، شأن أبي العلاء المعري في قصيدته برثاء فقيه حنفي، وقد صبغها التشاؤم من هذه الحياة:

غير مجد في ملتي واعتقـادي   نوح باك ولا ترنم شـــاد
وشبيه صوت النعي إذا قيـس   بصوت البشير في كل ناد
صاح هذى قبورنا تملأ الرحب   فأين القبور من عهد عـاد
خفف الوطء ما أظـن أديـم   الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيـح بنـا وإن قـدم العهـد   هـوانُ الآبـاء والأجـداد

والتأبين قد تغلب عليه مسحة الكآبة، والتفجع والتألم، مما يدل على قوة العاطفة وصدقها، ولكن خيرا من ذلك أن تقابل الفاجعة بالعقل المدرك، والنفس الواعية، والنظر العميق، في الموت والحياة، فتُستغل المناسبة في الإشادة بفضائل الميت حتى يظل بها حيا في القلوب، وهذا تكريم له.

واشتهرت عبر العصور الإسلامية -بالخصوص- مراث وتأبينات تجلت فيها العاطفة الصادقة، والعقلية الرزينة الحكيمة، وظهرت فيها مآثر الموتى المؤبَّنين جلية واضحة تدعو إلى الإعجاب بها، وتغري بالاقتداء بها، والتضحية في سبيلها.

تأمل رثاء حسان للرسول صلى الله عليه وسلم إذ يقول من قصيدة طويلة:

تُهيـل عليه التـــربَ أيـدٍ وأعيـــنٌ

عليه -وقد غارت بذلك- أسعـــــدُ

لقـــد غيَّبـــوا حِلْمـــا ورحمـــةً

عشيـــة علُّـــوه الثـــرى لابوسَّد

وراحـوا بحزن ليـس فيهـم نبيُّهـــم

وقد وهَنت منهـم ظهـــورٌ وأعضُـــد

ويبكون من تبكي السمـواتُ يومَـــه

ومن قد بكتـه الأرض فالنـــاس أكمـد

وهـل عدَّلـت يومـــا رزيـــةُ هالـكٍ

رزيـــةَ يـوم مـــات فيـــه محمـد

تقَطَّـــع فيـه منــزلُ الوحي عنهـــمُ

وقـــد كـان ذا نـــور يَغـــور ويُنْجـــد

يـدل على الرحمـــن من يقتـــدي بـه

وينقـذ مِن هـــول الخزَايـــا ويُرشـــد

إمام لهم يَهديهـــم الحـــقّ جَاهــدا

معلـمٌ صِـــدقٍ إن يُطيـعوه يســـعدوا

عفــوّ عـــن الزّلات يقبـــل عذرَهـــم

وإن يُحسنـــوا فالله بالخيـــر أجْـــود

وإن نـــاب أمرٌ لـم يقومـــوا بحملــه

فمـــن عنـــده تيسيـــر ما يتشـــدَّد

فبيناهمُ في نعمـــــة الله وسْطهـــم
دليـــلٌ به نهــج الطربـــــق يُقصــد
عزيـــزٌ عليه أن يحــوروا عن الهـــدى
حريــص على أن يستقيموا ويهتــدوا
عطــوف عليهـــم لا يثنّــى جناحُــــه
إلى كنــف يحنـــو عليهـــم ويُمْهـدُ[1]

والقصيدة طويلة، وهي زافرة بالشمائل النبوية، وهي قطرة من بحر، وذرة من رمل، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا تعد فضائله وشمائله، حسبنا قول الله فيه: «وإنَّكَ لعلى خلق عظيم»[2]

والقصيدة -كما نرى- تفيض بالصدق، وتتسم بالعمق، وتتموج فيها العاطفة القوية المتأججة، وتعكس هول المصاب، ووقع الفجيعة، وفظاعة الألم والحزن.

وتأمّل أيضا هذه الأبيات من قصيدة يرثي بها أبو تمام محمد بن حميد الطوسي:

كذا فلْيجلّ الخطـبُ وليفــدحِ الأمــرُ
فليس لعيـــنٍ لم يَفــضْ ماؤُهــا عُــذر
توفيــتِ الآمـــــال بعـــد محمــــدٍ
وأصبح في شُغــل عن السفَر السفْـــر

(1) السيرة النبوية للإمام أبي الفداء ابن كثير ج2 ص 506.

(2) سورة القلم، الآية 4.

وما كــان إلاّ مــــال من قـــلّ مالــه
وذخـرا لمــن أمسى وليـس له ذُخــر
فتى كلما فاضـــت عيــونُ قبيلـــةٍ
دماء ضحكت عنه الأحاديث، والذِكرُ

وتأمل في الأخير هذه الأبيات:

كنـت الضيـاءَ لناظــري فعمى عنــك الناظـــــر
من شـــاء بعدك فليمتْ فعليــك كنـت أحـــاذر
ليـتَ المنـــازلَ والديـــا رَ حضــائـــر ومقابــــر

حسبك من مكانة الفقيد ومآثره أنهُ كان ضياء، وما إن طواه الموتُ حتى أصبح الوجود يسبح في الظلام الدّامس! وأنَّ الشاعر كان يحاذر على الفقيد، أما وقد مات فعلى كل من شاء الموت أن يموت!

كما نرى صدق العاطفة، وصدق التّأبين التكريمي في هذا القصيد البليغ الرائع الذي ألقاهُ شاعر الجزائر الأستاذ مفدي زكريا، في الذكرى الأربعين لوفاة مفخرة المغرب العربي بل مفخرة العالم العربي والإسلامي العلامة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور مفتي الجمهورية التونسية وعميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين في يوم الجمعة 29 من شهر ماي سنة 1970 بالمسرح البلدي في حفل رهيب خاشع، حضره رجال الفكر والعلم والأدب، من تونس والمغرب والجزائر وليبيا والقاهرة.

ولن نكتفي من هذه القصيدة بأبيات بل سنقدمها كلها لأنها بتمامها وكمالها تصوّر بعمق فضائل الفقيد، ومكانته العلمية الفذة بين أعلام الفكر العربي والإسلامي، وفي إبراز هذه الفضائل وتسجيلها تكريم للفقيد!

وهل هناك تكريم للفقيد أجمل وأحسن من هذا الشعر الوجداني الرائع الصادق، الذي يظل عبر التاريخ تردده الألسن، وتنبض به القلوب.

إن هذا التكريم الذي تقوم به الجزائر نحو الفاضل ونحو تونس الشقيقة على لسان ابنها الشاعر، تكريمٌ للفقيد، وتكريم للخصائص الحضارية العربية الإسلامية التي خدمها الفقيد بفكره وقلمه ولسانه، وتكريم لمختلف مواقفه الفكرية والدينية والسلوكية.

وفي هذا التأبين التكريمي تعبير عن وجدان الأمة وإعجابها بمن خدمها وأخلص لها ووفى، وضحى وأعطى بسخاء، وهاهي القصيدة:

مالي وللشعـر، والأكبـاد تنفطـر؟
وللرثـاء، وما يـرثى لنـا القـدر
الجـرح أعمـق أن ينسى بقافيـة
والقـرح أعـرق أن يمحى لـه أثـر
والخطـب أفـدح أن يبكى بملحمـة
ورب خطـب بكى من هولـه الحجـر
ما لليالـي، نصافيهـا، فتنغصنـا؟
وللمسـرات، في أعطافهـا الكـدر؟
أ للحـوادث وتـر في مرابعنـا؟
أم للكـوارث في أوطاننـا وطـر؟
نعلل النفـس باليسـرى، فيكسفنـا
هـذا الزمـان، وتخزينـا بـه العبر

وكم صبرنا، فيشكو الصبـــر صلتنــا
ويعجــب الصبــر منا، كيف نصطبـــر
وقلت –رباه– بعـــد العســـر ميســـرة
هل ينقضي الدهر والمظلوم ينتظـــر؟
فهل خفرنا ذمـــامـــا فانتقمـــت لـــه
وهل ضمائرنـــا في الخطـــب تزدجر؟
هبنـــا أسأنـــا، أما طمأنـت مسرفنـــا
من رحمـــة الله لا يـــأس ولا ضجـــر
ولم تـــزل صفـــة الغفـــران قائمـــة
ما دام في الأرض من يعصـــي، فتغتفـــر
يا من سبتهـــم من الدنيـــا ملاوتهـــا
وفي الثمالـــة من كاساتهـــا الصبـــر
ومطمئنيـــــن، أغراهـــم بمرتعهـــا
طيب المقـــام، وأيـــام الدنـــا سفـــر
وساديـــن مع الأوهـــام، خدرهـــم
صفو الليالي، وما يصفو بها السحـــر
وعاشقيـــن من الرقطـــاء ملمسهـــا
وفي لعـــاب الأفـــاعي يكمن الضـــرر
وللزمـــان، وإن ســـرت بواكـــره
حينـــا، بـــوادر لا تبـــقي ولا تـــذر

فكــــم بلــــوت الدنــــا علما وتجربـة

فهـــالني من دنـــاي الخبـــر والخبـــر

وكم وثقـــت بما تخـــفي مظاهرهـــا

(وبالعيـــون التي في طرفهـــا حـــور)

لئـــن خدعـــت بها حينـــا فلا عجب

ما كنـــت (أول ســـار غـــره قمـــر)

نطيـــل فيهـــا الأماني، وهي ساخـــرة

ونبســـط العيـــش والآجال تختصـــر

ومـــا علمنـــا بأنـــــا في أحبتنـــــا

نمنى، وتبعـــث في أفضالنـــا الغيـــر

والموت يعلم -كالصـــراف- عملتـــه

يختـــار عنصرهـــا الأنقـــى ويختبـــر

والراحلـــــون كثيـــــر في قوافلنـــا

وليـــس ينـــدب إلا من لـــــه خطـــر

* * *

يا عـــارجـــا لسمـــاء لا نفـــاق بهـــا

ونـــازلا برحـــاب ما بهـــا نكـــــــر

وصاعـــدا -شهـــد الأفـــلاك حائـــرة

فشاقـــه في السمـــوات العلا السمـــر

(وفاضلا) لم تــزل تسمــو فضائلــه
فــراح في إثرهــا يسمــو ويبتكــر
لو أنبأتنــا الليالــي عــن تصرفهــا
كنا صرفنــاك، لــولا أننـــا بشــر
ألفـــت (مؤتمــر الإســلام) تحضره
هل في السموات للإســلام مؤتمــر؟
ولست أدري، ودنيـا الدرس تجمعنـا
وفيـض علمــك في الآفــاق ينهمـر
أفاضل أنـــت؟، أم صــورت مدرســة
تمشي على الأرض، في أعماقها الدرر؟
أم أنـــت في كلمات العلــم معجــزة
من صنع (طاهر) تسمو طوعها الفكـر؟
أم من صميم أصـول الديــن فلسفــة
يدعــم النـــص في تأييدهـــا النظر؟
أم حجــة العبقريــات التي انطلقـت
من مغرب لم يـــزل ينمــو ويزدهــر؟
كم فيه وحـــدت للعرفــان مجتمعـا
أعناقــه للمعــالي ليــس تنحصــر
وفي الحضــارة علــم لست تجهلــه
ما دام بالديــن والأخــلاق ينصبــر

والعلـــم حق مشـــاع لا حــــدود لــــه
وليس في العلـــم منـــاع ومحتكـــــر
والخالـــــدون وإن تطـــوى حياتهـــم
لا يسوى لهم طـــول المـــدى عمـــر
يــــا راحــــلا لم تـــزل فينــــا مأثـــره
أيـــان خلـــق -لا يفـــنى لهـــا أثـــر
مذ شاع نعيك فينــــا ارتــــج مغربنــــا
وارتاع بالشرق صـــدر كـــاد ينفجـــر
البـــرق يخفـــق، والأســـلاك نابضة
والقلب يرجـــف، والحبـــات تنتشـــر
ووافـــدون على الخضـــراء تدفعهـــم
وشيجـــة، حولها الأكبـــاد تستعـــر
ويسمع الحســـن الثـــاني، فيفجـــؤه-
وقع المصـــاب، وما قـــد زور القـــدر
مشاعـــر الحســـن الثانـــي لراحلنــــا
(علويـــة) ليس يبـــلى ذكرها العطـــر
وفي الجـــزائـــر أكبـــاد ملوعـــة
خفت لتونس حيرى، هالهـــا الخبـــر
وأوفـــدت رسلهـــا ليبيـــا تشاطرنـــا
وللفقيـــد بليبيـــا الخـــرد الغـــرر

تنازعتــك الحنايــــا والأكـــف معــا

لمن ترى، كتب التوفيــق والظفـــر؟

وأودعـــــوك ترابــا عشت تغرســـه

علمـا وفضـلا، فزكـى غرسـك الثمــر

نم مطئنـــا - كفى الخضـراء مفخـرة

أن العـــلا بـك والخضــراء، تفتخـــر

وأســـأل إلهـــك في أبنـــاء ملتــه

فقـــد أحـــاط بهـــم من وزرهـــــم وزر

وقل لأحمـــد، هل ترضيـــك محنتنا؟

إلى م نحـــن إلى الأعمـــاق ننحــــدر؟

وقبلـة الله تشكـــو ظلـــم غاصبهـــا

والقـدس يعبـــث فيه الغـــادر الأشـــر

فأثار لحرمة بيــــت ديــس مقدســـه

واغضـب لنكبـة أرض حفهـا الخطـر

كـــم ذا وعــدت بنصـــر فاعجلــن بـه

وكـم نصرنـــاك، هـل ترضى فننتصــر؟

الخاتمة

إذا كان العاملون الكادحون من أجل العيش، ورفاهية الحياة المادية، يستحقون كل التقدير والاحترام، لأن عجلة الحياة بسواعدهم تدور، ولولاهم لما لفظت الأرض خزائنها، وقذف البحر بنعيمه وخيراته -فإن رجال الفكر وأهل الاجتهاد والكفاءات والنبوغ، جديرون بتقدير مضاعَف، واحترام زائد، واهتمام متميز، لأنهم في أممهم عقولُها المفكرة، وقلوبُها النابضة، وعيونُها المبصرة، ومصابيحها الهادية، ومعيار رقيِّها وتقدمها!

ومن هنا أدركتِ الأمم الحيّة مكانتهم، وعظَم خطورتهم، فأسَّست ونظمت جوائز لتكريمهم، وأقامت حفلات ومهرجانات للتعبير عن هذا التكريم وهذا التقدير، وفي كل مناسبة من هذه المناسبات تتجنّد وسائل الإعلام للإشادة بذلك والتنويه به، واستقطاب الأنظار حولهم وحول هذا التقليد المثير!

وقد رأينا تحبيذًا لهذا التقليد، واستحسانًا له، وتقديرًا لطائفة من المكرّمين، وتذكيرًا بتاريخهم، وجلائل أعمالهم، واستنهاضا للهمم، وحفزًا للعزائم في هذا العصر الذي أصبحت فيه المادة معبودةَ الجميع، أن نضع هذا الكتاب الذي نرجو أن يفي ببعض الغرض، ويؤدي بعض المطلوب!

وإزاء الجهد المضني الذي بذلناه في تأليف هذا الكتاب في ظروف جدٍّ قاسية، نتوقع أن أيّ قارئ يقرأه، أو متصفح يتصفحه سيتساءل: أين العالِم الفلاني أو الأديب الفلاني، أو المخترع الفلاني، قد أكرموا ولكن لا وجود لهم في الكتاب؟

والجواب عن هذا التساؤل المفترَض أنَّ تتبُّعَ كل الذين كُرِّموا في البلدان العربية والإسلامية واستقصاءَهم -دع عنك البلدان الغربية- أمر متعسر إن لم يكن متعذرًا إلا على جماعة من الباحثين يتفرغون لهذا العمل على شرط الاستعداد الخاص، والوقت الواسع، ووفرة المراجع!

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإننا أردنا بهذا الكتاب عرض عيّنات من بعض البلدان العربية والأروبية، وفي ذلك، تقديرٌ لهذا التقليد، ودعوة إلى مواصلته وإجرائه على الأسس العلمية الصحيحة حتى تكون شهادة بحق على النبوغ والتفوق الفكري في العلم أو الأدب، وتذكير بتاريخ هؤلاء المكرَّمين، وتكريمٌ ضِمني لكل العاملين الجديرين بالتكريم، فذلك هدفنا وغايتنا والله وليّ الهداية والتوفيق.

المؤلف

المراجـــع

● التفاسير:

- تفسير الإمام الفخر الرازي
- تفسير الإمام الألوسي: (روح المعاني)
- تفسير الإمام الزمخشري (الكشاف)

● كتب متنوعة:

- الموسوعة العربية الميسرة
- موسوعة الموارد العربية
- بصائر ذوي التمييز، للفيروز أبادي
- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - لآدم متز
- أيام العرب في الجاهلية لجماعة من المؤلفين
- البيان والتبيين للجاحظ
- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة لأحمد زكي صفوت
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس
- آمالي المرتضى
- المنازل والديار لأسامة بن مرشد
- الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني
- تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات
- المفصل في تاريخ الأدب العربي لأحمد أمين وجماعته
- تاريخ الأدب والنصوص الأدبية لمحمد الطيب عبد النافع وإبراهيم عبد الرحيم

- المفيد في الأدب العربي لجوزيف الهاشم وجماعته
- آثار الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي
- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس
- حياة كفاح للشيخ أحمد توفيق المدني
- وحي الرسالة لأحمد حسن الزيات

● الدواوين الشعرية:

- الشوقيات لأحمد شوقي
- ديوان حافظ إبراهيم
- ديوان خليل مطران
- ديوان البارودي
- ديوان إسماعيل صبري
- اللهب المقدس لمفدي زكريا

● الدوريات:

- الشهاب - الجزائر
- الرسالة - مصر
- الهلال - مصر
- المجلة الزيتونية - تونس
- الفيصل - المملكة العربية السعودية
- الدوحة - قطر
- المجلة العربية - المملكة العربية السعودية
- العربي - الكويت

دليـل الكتـاب

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية ـ بن عكنون
الجزائر